

## الإيمان والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه (وبعد) ..

فإن قضية "الإيمان" ليست أمراً على هامش الوجود، يجوز لنا أن نغفله أو نستخف به، أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره؟ بل أجد قضية الإيمان هي أعظم "قضية مصيرية" بالنظر إلى الإنسان.

إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنة أبدأ أو لنار أبدأ، فكان لزاماً على كل ذي عقل أن يفكر فيها ويضمن إلى حقيقتها.

وقد فكر الكثيرون من أولي الآلِباب، وانتهى كل منهم إلى إثبات العقيدة في الله بطريقه الخاص.

فمنهم من استند إلى صوت الفطرة في أعماقه (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) (إبراهيم:10).. (فطرة الله التي فطر الناس عليها) (الروم:30). ومنهم من استند على مبدأ "السببية" الذي يقرر أن كل شئ لا بد لها من صانع، وكل حادث لا بد له من محدث، وكل حركة لا بد لها من محرك، وكل نظام لا بد وإن يكون وراءه منظم، وهذا المبدأ ثابت ثبوت الأوليات البديهية في العقول.

ومنهم من ناقش المسألة مناقشة حسابية، رياضية، فانتهى إلى أن الأضمن لحياته، وما بعد حياته: أن يؤمن بالله وبالأخرة والبعث والجزاء. وفي مثل هذا يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري:

قال المنجم والطبيب كلاهما  
إن صح قولكما فليست بخاسر  
لا تبعث الأموات ، قلت : إليكما  
أو صح قولني فليخسر عليكما

وقال الفيلسوف الرياضي "باسكال":

"إما أن تعتقد أن الله موجود أو لا تعتقد ذلك، فماداً تختار؟ إن عقلتك لعاجز كل العجز أن يختار، وإنها للعبة جارية بينك وبين الطبيعة، رمى فيها كل منكما بسهمه، ولا بد أن يربح أحد السهمين .. فوازن بين كل ما يمكن أن تربح، وما يمكن أن تخسر. إذا راهنت بكل ما تملك على ظهور السهم الأول -أي على وجود الله- فإذا كسبت الرهان، فقد حصلت على سعادة أبدية. فإذا أخفقت فسوف لا تفقد شيئاً مهماً ... فليست تخاطر إلا بشيء فان، وكل غرم فإن، -ولو كان محقق الوقوع- متحمل ومقوّل".

ونحن نزيد على هذا فنقول: إن الذي يؤمن بالله والدار الآخرة لا يخاطر بدينه القابلية ليربح أخوته الباقية ... كلا، إنه بإيمانه يربح الحياتين معاً، ويفوز بالحياتين في الدنيا والآخرة جميعاً. وصدق الله العظيم: (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) (النساء:134) (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير) (التحل:30).

إن العبادات التي فرضها الدين إنما هي وسائل لتزكية نفس المؤمن وترقية روحه، وما أقل ما يبذل فيها من جهد، إلى جنب ما يكسب وراءها من خير.

وإن المحرمات التي حظرها عليه الدين، إنما صان بتحريمها عقله وخلقه ونفسه وماله وعرضه ونسله، فهو إنما (بأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (الأعراف: 157).

والدين إذا حرم على الناس شيئاً عوضهم ما هو خير منه، مما لا يشتمل على مفسدة الشيء المحرم.

إن المؤمن لم يخسر شيئاً بعبادة الله سبحانه، واتقانه ما حرم الله عليه، وإنما ربح الهدى والاستقامة على الحق، والثبات على الخير، والاستعلاء على الشهوات، وربح بعد ذلك هدوء النفس وطمأنينة الحياة.

وفي عصرنا هذا أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهئين، حتى أن كثيراً منهم ليرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع أو ما تقوم البراهين على صحته.

وقد قام مذهب برأسه بنادي بأن "المنفعة مقياس الحقيقة" ويصر على أن المهم من كل شيء هو نتائجه وما يترتب عليه من آثار في حياتنا العملية.. وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع، بل انسجامه مع ما يقع، وهكذا، فكل شيء يحكم عليه بما يتبعه من نتائج، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا، ومع ما نريد من مقدماتها، كانت خيراً وصدقاً وحقاً. وإن كانت غير ذلك كانت شراً وكذباً وباطلاً، ولا يوصف الفعل بحسن ولا قبح، ولا يوصف القول بالصدق والكذب حتى تعرف ثمرته (مقتبس من خاتمة الدكتور محمود حب الله لكتابي "إرادة الاعتقاد" و "العقل والدين" لوليم جيمس). هذا هو مذهب "البراجماتزم".

ونحن لا نخشى هذا المذهب على عقيدتنا وإن كنا لا نوافق عليه في الجملة. فإننا نوقن أن أنفع شيء للناس هو الحق، وإن أضر شيء بالناس هو الباطل، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء السائل والمعدن النافع، وللباطل بالزبد الرابي على وجه الماء حين يسيل به الوادي، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع.

ثم قال تعالى معقياً على هذا التمثيل: (كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال) (الرعد : 17).

والذي يمكث في الأرض هو الحق، وهو الذي عبر عنه القرآن بـ (ما ينفع الناس) إنه ينفعهم مادياً ومعنوياً، ينفعهم أجساماً وعقلاً وقلوباً، وينفعهم أفراداً وجماعات، وينفعهم دنيا وآخرة.

إننا إذا وافقنا على اعتبار المنفعة في الجملة فإننا نختلف مع الماديين في قياس المنفعة، وتحديد نوعها ومداها. نحن لا نقيس المنفعة بالكم وبالمادة فحسب، ولا نعتبر المنفعة الفردية وحدها، بل ندخل في اعتبارنا الكم والكيف والمادة والروح، والفرد والمجتمع جميعاً. بل نحن لا نقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا، بل نضع في حسابنا دائماً الحياة الآخرة حياة الخلود التي أعدت للإنسان وأعد لها الإنسان. هذه السطور تمهيد لابد منه، لبيان غرضنا من تأليف هذا الكتاب: "الإيمان والحياة" (هذا الكتاب هو الذي سبق أن أعلنت عنه بعنوان "العقيدة

**والحياة" ولكني أثرت أن أستعمل الكلمة التي استعملها القرآن الكريم في التعبير عن العقيدة وهي كلمة "الإيمان" ولا شك أن إichاءها أعمق وأقوى).**

إننا نريد أن نلقي بعض الضوء على الآثار المباركة للدين في حياة الإنسان. مقتصرين على الدين في جانبه العقدي. الدين باعتباره إيماناً بالله وبرسالته، وبالدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب.

وفي هذا الكتاب سنتبين بوضوح تلك الفرية الظالمة، التي زعمت أن الدين مخدر للشعوب. أو معوق للحياة، كما يزعم الماركسيون. أجل، لو أننا احتكمنا إلى مقياس المنفعة وحدها، ورضينا منطق الذين لا يعتقدون فكرة إلا لمصلحة، ولمصلحة دنيوية فحسب، لوجدنا الدين -مع هذا- ثقيل الميزان مبين السلطان، فقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها: ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتزكو نفسه. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى.

والفرد بغير دين ولا إيمان ريشة في مهب الريح لا تستقر على حال، ولا تعرف لها وجهة، ولا تسكن إلى قرار مكين. الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور، إنسان قلق متبرم حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة. ولماذا ألبسه إياه، ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟! وهو بغير دين ولا إيمان: حيوان شره أو سبع فاتك، لا تستطيع الثقافة ولا القانون -وحدهما- أن يحدا من شرايته، أو يقلما أنظفاره.

والمجتمع بغير دين ولا إيمان مجتمع غابة. وإن لمعت فيه بوارق الحضارة. الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى، لا للأفضل ولا للاتقى مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب التعيم. مجتمع تافه رخيص، لأن غايات أهله لا تتجاوز شهوات البطون والفروج. فهم: **(يَتَمَتَّعون وَيَأْكُلُونَ كما تأكل الأتعام) (محمد : 12).**

و (العلم) المادي وإن امتد رواقه، واتسعت ميادينه، ليس بمستطيع أن يحقق الطمأنينة والسعادة للناس، لأن العلم يرقى الجانب المادي للحياة، فيختصر الشقة البعيدة، والزمن الطويل، إلى مدة أقصر، ولهذا سموا عصرنا هذا "عصر السرعة" أو عصر "التغلب على المسافات". ولكن هل يستطيع أحد أن يسميه عصر "الفضيلة" أو عصر "الطمأنينة" أو عصر "السعادة للبشر"؟

إن العلم هياً للإنسان الحديث وسائل الحياة، ولكنه لم يهده إلى غاياتها، إنه زين له ظاهرها. ولكنه لم يصله بأعماقها، وما أتص الإنسان إذا أغرقتة الوسائل فذهل عن الغايات. وإذا شغل بالسطح عن القاع، وبالقشر عن اللباب!.

العلم المادي أعطى الإنسان أدوات كثيرة، ولكنه لم يعطه "قيمة" كبيرة أو "هدفاً" رقيقاً يحيا له ويموت عليه.

ذلك أن هذه ليست وظيفة العلم وليست من اختصاصه. وإنما ذلك من اختصاص الدين.

ولقد رأينا من المفكرين والفلاسفة من لا يؤمنون بالله ولكنهم يؤمنون بالإيمان بالله! أي يعتقدون بنفع هذا الإيمان باعتباره قوة هادية موجهة، وقوة مؤثرة دافعة، وقوة مثبثة خلاقة.

لم يستطع هؤلاء أن يجحدوا ما للإيمان بالله من طيب الأثر في نفس الفرد وفي حياة المجتمع، فقال بعضهم: لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه!! أي نخترع للناس (إلهاً) يؤمنون به! ويلتمسون رضاه، ويخافون حسابه، حتى ترتدع الأنفس الشريرة، وتستقيم أخلاق الجماهير. وقال آخر: لم تشككون في الله. ولولاه لاختنتي زوجتي، وسرقني خادمي؟!

ونحن لا نوافق على منطق هؤلاء في عمومهم، فإن الحق أحق أن يتبع مهما تكن نتيجته، والأباطيل يجب أن تطارد كيفما كانت العاقبة. ولكن الذي يعطينا من قول هؤلاء -وهم خصوم الدين وأعداء الإيمان- أن أثر الدين والإيمان في النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف، ولو كان من خصوم الإيمان.

إن الحقيقة يجب أن تحترم لذاتها، وإن لم تجلب نفعاً، أو تدفع ضرراً، فكيف إذا كان من ورائها أعظم المنافع، وأطيب الثمرات؟! ووجود الله تعالى وتفرده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة، وبعثة النبيين وصدق ما أخبروا به عن الحياة الآخرة - كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته، والإيمان به واجب، لأنه حق. ومع أنه حق، فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن، ورفي الفرد والمجتمع، وسعادة الدنيا والآخرة.

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعني الإيمان القوي الدافق. الإيمان حين يبلغ مداه، ويشرق على القلوب سناه، ويخط في أعماق النفوس مجراه، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعز، الإيمان المخدر النائم، إنما نتحدث عن الإيمان الحي اليقظ. ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون، فإننا نناقش هنا الماديين الذين يشككون في قيمة الإيمان. ليتعلموا أن الإيمان الذي يحاربونه كلما زاد عمقه في القلوب، وسلطانه على النفوس، ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والجماعات.

وإذا كان هذا أثر الإيمان عموماً، فإن الإيمان الإسلامي خصوصاً أكثر نفعاً وأطيب ثمرأ، فإن الإيمان في الأديان الأخرى قد علق به ما شابه وكدر صفاءه، وربما أمكن أن يؤخذ من تعاليم بعض الأديان، أو من سلوك رجالها، بأنها عدو للحياة أو أفيون للشعوب. كما زعم "كارل ماركس" اليهودي، وتلقفها الببغاوات هنا، فردوها ترديد الحاكلي، دون بصر ولا تمييز، فإن الدين هنا غير الدين هناك، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك.

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التي تغرس في النفس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير الله كفراً وفسقاً وظلماً، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

وإذا كان للدين وللإيمان هذا الأثر في كل بلاد الدنيا، فإن أثره عميق، وضرورته أعظم في بلادنا الإسلامية والعربية خاصة.

إن لكل قفل محكم أصيل مفتاحاً معيناً، مهما تحاول فتحه بغيره كانت محاولتك عبثاً لا فائدة منه، ولا طائل تحته. إلا إضاعة الوقت والجهد في تجارب فاشلة.

ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين، هو الإيمان، هو عقيدة الإسلام.

ومهما نحاول أن ننكي هذه الشخصية، وأن نفجر طاقاتها المكونة بغير مفتاحها الأصل - هو الدين والإيمان - فإننا نحاول عبثاً، كمن يبني على الماء أو يكتب في الهواء.



وبعقيدة الإسلام انطلق العرب من جزيرتهم، يخرجون العالم من الظلمات إلى النور، ويؤيدون بسيفهم الأكرسة والقيصرة، وكل من صغر خده من الجبابرة، وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام.

وبعقيدة الإسلام انتصرت أمتنا العربية على أوروبا، وقد جاءت بقضها وقضيضها في تسع حملات صليبية، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس في هذا الشرق المسلم.

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على هذا الشرق كالريح العقيم (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم) (الذاريات: 42) وكادوا يدمرون الحضارة الإنسانية كلها، لولا أن قيض الله لهم من مسلمي مصر والشام من ردهم على أعقابهم وهزمهم بإذن الله في "عين جالوت". وكانوا مفتاح النصر صيحة أطلقها القائد المملوكي "قطنر" فهزت المشاعر، واستثارت العزائم: وأيقظت الهمم، وهبت بها على المقاتلين نسמת الجنة، تلك هي الصيحة التاريخية "والإسلاماه".

وأمتنا العربية اليوم تحارب عدواً شريراً يجثم على صدمها، ويحتل قلب ديارها، ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق، ذلك هو "إسرائيل" التي تمددا وتعاونها كل قوى الكفر في العالم شرقية وغربية.

ولن نجد في حربنا مع هذا العدو - سلاحاً أمضى ولا أبقي من الإيمان. إنه لا بد من العناد الحربي والقوة المادية التي أمرنا الله بإعدادها، لنرعب بها عدو الله وعدونا، لكن السلاح لا يعمل إلا يدي بطل، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان.

ولقد فتن أقوام منا بالمذاهب المادية الحديثة التي فتننا بها الغرب، والتي لا تجعل لله ولا للآخره مكاناً في الحياة، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادماً وأداة يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتدنية أو إلهائها أو استئثارها لغرض موقوت.

ومن أجل ذلك نحى الدين والإيمان عن مكانه في قيادة الأمة وتربيتها. وعزل عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية الاجتماعية والسياسية، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أقيمت للدين لا تسمن من شبع ولا تغني من جوع. فلما قامت المعركة القريبة في "1967/6/5" بيننا وبين عدونا كان معنا سلاح كثير وإيمان قليل، فلم يغن عنا السلاح شيئاً، لم تغن الدبابات والطائرات والأساطيل وقواعد الصواريخ، لأن هذه الأسلحة - على حدايتها وضخامتها - لم يقم عليها رجال مؤمنون. ورحم الله المتنبئ حين قال:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وهذه حقيقة - على مرارتها وقسوتها - يجب أن تكون لدينا الشجاعة لتعترف بها، ونتخذ من هذه التجربة درساً وعبرة، ونبنى حياتنا على أساس من الإيمان ومقتضياته ونغير ما به نفسنا، ليعيد الله ما بنا، وإلا فسندخل كالثور في الساقية.

إن عدونا يجند أبنائه على أساس ديني، ويقذف بهم في قلب المعارك بأحلام دينية تدور حول مجد إسرائيل، وملك سليمان: ونبوءات التوراة فكيف ننكر نحن دور الإيمان، ونحى المؤمنين، بل نضطهدهم ونعذبهم! ونلقى بشعارات "النصر للثوار" و "الغلبة للجماهير" وأمتنا لا تعرف إلا أن "النصر للمؤمنين، والعاقبة للمتقين" (انظر في هذا، كتاب "درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف نتنصر؟!!" للمؤلف).

ألا إن كل عمل يوجه ضد الدين والإيمان في بلادنا إنما هو عمل عدائي موجه إلى صميم كياناتنا ومقومات حياتنا، وجذور نهضتنا. "نحن قوم مؤمنون" وهذا الإيمان هو أساس شخصيتنا، وسر قوتنا، ورافع رايتنا، هو سر مجدنا في الماضي، وباعث انتفاضتنا في الحاضر، ومناط آمالنا في المستقبل.

"نحن قوم مؤمنون" وهذه قضية بديهية ، يجب أن يلتقي على حمايتها وتثبيتها وإشاعتها قلم الكاتب، ولسان الخطيب، وفكر الفيلسوف، ووجدان الشاعر، وريشة المصور، وتقتين المشرع، وسلطان الحاكم، وقوة الجيش، ورقابة الشعب.

يجب أن يرهاها الأب في البيت، والمعلم في المدرسة، والأستاذ في المحاضرة، والأديب في القصة، والصحفي في الخبر، والمؤلف في الكتاب، وكل ذي فن في فنه.

إن كل ثغرة تفتح في أي جانب من جوانب حياتنا الثقافية والفنية والعملية لتصوب منها سهام الشك أو الجحود إلى صدر الإيمان، تعد خيانة عظيمة لأمتنا وخروجاً سافراً على مبادئها، ومروفاً من صفوقها، وانضماماً إلى ألد أعدائها، وتعويقاً لما تقوم به الجوانب الأخرى من جهاد إيجابي بناء.

وإني لعلى يقين أن كلمة الإيمان ستعلو وتتصغر، وإن كلمة الكفر والشك ستكون هي السفلى، وصديق الله العظيم: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء \* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون \* ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) (إبراهيم: 24 - 26).

#### المؤلف

#### الباب الأول : الإيمان الذي نعينه

##### الفصل الأول- حقيقة الإيمان

- مفهوم الإيمان الذي نعينه
- محتوى الإيمان الذي نعينه
- وجود الله تعالى
- إنما الله إله واحد
- كمال الله تعالى
- الإيمان بالنبوات
- الإيمان بالآخرة

#### مفهوم الإيمان الذي نعينه

ما الإيمان الذي نعينه في هذه الدراسة، ونحاول تجلية أثره في النفس والحياة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مفهوم الإيمان، ومتعلق الإيمان، أما مفهوم الإيمان ومعناه، فبأنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين \* يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) (البقرة: 8، 9).

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتيد أن يقوم بها المؤمنون، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات، وأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصالح والإخلاص لله: (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً) (النساء: 142).

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمنوا: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) (النمل: 14) وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق: (وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (البقرة: 146).

إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني، ولا عمل ذهني.

إن الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها، كلها من إدراك وإرادة ووجدان.

فلا بد من إدراك ذهني تتكشف به حقائق الوجود على ما هي عليه في الواقع، وهذا الاكتشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم. ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلي حد الجزم الموقن، واليقين الجازم، الذي لا يزلزله شك ولا شبهة: (إنما المؤمنون آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) (الحجرات: 15).

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إدعان قلبي، وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (النساء: 65) (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون) (النور: 51) (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (الأحزاب: 36).

ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون \* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون \* أولئك هم المؤمنون حقاً) (الأنفال: 2 - 4). والقرآن الكريم يعرض دائماً الإيمان في أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون، من الكفرة والمنافقين (قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون...) (الآيات (المؤمنون: 1 - 5).

وقال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون) (الحجرات: 15).

يقول شهيد الإسلام الأستاذ "سيد قطب" رحمه الله في تفسير هذه الآية من "ظلال القرآن":

"فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتجلجج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلوة

هذا الإيمان وإطمأن إليه وثبت عليه، لابد من دفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة، ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة، ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس؛ فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، يريد به أن يحقق الصورة المضنية التي في قلبه، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس، والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني وواقعه العملي، وكذلك عدم استطاعته التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله. حتى تنتهي هذه الجاهلية إلى النصور الإيماني والحياة الإيمانية" (في ظلال القرآن ص 26).

هذه العناصر والمقومات التي ذكرتها هي التي تكون "الإيمان الحق" وإن شئت قلت "العقيدة الحقّة" وإذا فقد بعض هذه العناصر فإن ما بقي منها لا يستحق أن يسمى "إيماناً" أو "عقيدة".

يمكن أن تسمى "فكرة" أو "نظرية" أو "رأياً" أو أي عنوان من هذه العناوين، أما الإيمان الحق فهو الذي تشرق شمس على جوانب النفس كلها، فتتغذى إليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة. أجل تتغذى هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتتهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل، وتحرك القلب، واتجهت الإرادة، استجابات الجوارح، واندفعت للعمل، استجابات الرعية للراعي المطاع. ويعجبني ما كتبه في هذا المقام الأستاذ أحمد أمين رحمه الله مفرقاً بين الرأي والعقيدة (في كتاب فيض الخاطر ج 1) قال: "افرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك، وتغلغل في أعماق قلبك.

ذو الرأي فيلسوف، يقول: "إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه وقد أكون مصيباً".

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة، هي الحق اليوم، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل (هذا بعد الاقتناع والتصديق. أما قبل ذلك فالإسلام لا يرضى من المسلم إلا أن يكون اعتقاده قائماً على أساس الدليل والبرهان، ولا يعياً بإيمان المقدس، وسنبين بعد في مزايا العقيدة الإسلامية أنها "عقيدة مبرهنة") وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ائتمس إبسامة هادنة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

ذو الرأي سهل أن يتحول ويترعرع، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر في شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله: "ولو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أدع هذا الذي جنت به ما تركته".

الرأي جثة هامة، لا حياة لها ما لم تتغذى فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضعية أن تتوالد على سطحه. والرأي سديم يتكون، والعقيدة نجم يتألق.

الرأي يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات، ويبعث على التردد. والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغير سير التاريخ، وتسفك الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح".

### محتوى الإيمان الذي نعنيه

ولا يكفي أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه. فلابد أن نعرف أي إيمان نعني في دراستنا هذه؟ إن الناس قد ابتدلوا كلمة "الإيمان" فوضعوها في غير موضعها، فأصبحنا نقرأ عن إيمان "بالشيوعية"، وإيمان "بالوجودية"، وإيمان "بالقومية"، وإيمان "بالوطن"، وإيمان "بالثورة"، وإيمان بغير ذلك مما ابتدع البشر لأنفسهم مما لم يأت به الله.

وليقل الناس ما شاعوا، فلن يضيرنا ذلك إذا عرفنا نحن الإيمان الذي نريد. إنه الإيمان الذي لا تدل هذه الكلمة على غيره عند إطلاقها، الإيمان "الديني" الذي صاحب البشرية منذ طفولتها، ولم يفارقها في صباها وشبابها وكهولتها، ولم يزل سلطانه مهيمناً على الكثير من تصرفاتها وأعمالها.

إنه الإيمان الذي يتجسد في خاتمة العقائد السماوية، عقيدة الإسلام، كما بينها القرآن الكريم، وهدي الرسول العظيم، متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبیین.

هذه العقيدة هي التي تحل لغز الموجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيب عن أسئلته الخالدة : من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التي بُعث بها أنبياء الله جميعاً، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم .. ما يبصره منه وما لا يبصره، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه، وأعلنها نوح في قومه، ودعا إليها هود وصالح، عاد وثمود، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى في توراته، وداود في زبور، وعيسى في إنجيله.

كل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفاها من الأجسام الغريبة، التي أدخلتها العصور عليها، فكدت صفاءها وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تزجيتها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علواً كبيراً، وشوهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم؛ كما عوض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية؛ وأن تكون غاية لكل البشر؛ إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور؛ ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور. ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلين؛ وتحريف المغالين وانتحال المبطلين؛ ودجل المشعوذين. والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هي الإيمان بالله؛ والإيمان بالنبوات؛ والإيمان بالآخرة.

ويمكن أن نجمل في الإيمان: الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده؛ والإيمان بوحدانيته؛ والإيمان بكماله.

### وجود الله تعالى

لقد قامت الأئمة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه، سماها أحدهم «العة الأولى» وسماها غيره «العقل الأول» وسماها ثالث «المحرك الأول» وسماها القرآن العربي المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال «الله». هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم، ليس في استطاعة العقل البشرى إدراك كنهه، ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته وعن كنه النفس وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها؟ وما عرف إلا آثارها، فكيف يطعم في معرفة ذات الله العلي الكبير؟ (ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل \* لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (الأنعام: 102، 103).

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين. وإنما هو (رب العالمين) (الفاتحة: 2 وكثير من السور) (رب السموات والأرض) (الكهف: 14) (رب المشرق والمغرب) (الشعراء: 28) (قل أغير الله أبيغي رباً وهو رب كل شيء) (الأنعام: 164). ولنستمع إلى ما قصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون ليتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى:

(قال فرعون: وما رب العالمين \* قال: رب السموات والأرض وما بينهما، إن كنتم موقنين \* قال لمن حوله: ألا تستمعون؟ \* قال: ربكم ورب آبائكم الأولين \* قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون \* قال رب المشرق والمغرب وما بينهما، إن كنتم تعقلون) (الشعراء: 23-28). وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة:

1. فبلغت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيماً. وهو قانون يديه عند العقل الذي يؤمن بمبدأ «السببية» إيماناً طبيعياً لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (البقرة: 164).

2. هذا الخلق لا بد له من خالق، وهذا النظام لا بد له من منظم: (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض؟) (الطور: 35)، (36) (قال: فمن ربكما يا موسى؟ \* قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (طه: 49، 50).

ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يدرك المرء إدراكاً مباشراً أن له رباً وإلهاً قوياً عظيماً يكلوه ويرعاه. (فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، تلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم: 30).

وإذا اختفت هذه الفطرة في ساعات الرخاء واللهو فباتها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء، وسرعان ما يذوب الظلام الكاذب، وينكشف المعن الأصيل في النفس البشرية، فتعود إلى ربها داعية متضرعة: (هو الذي سيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجينا من هذه لنكونن من الشاكرين) (يونس: 22).

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً «الله»: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) (العنكبوت: 61) (قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ أمن يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج

الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون: الله، فقل: أفلا تتقون \* فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأني تصرفون (يونس: 31، 32).

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإيمان بالله ورسوله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به ورسوله كان نذير الهلاك والبوار، ففي نوح يقول: (فكذبوه فاتجنيدهم والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوماً عمن) (الأعراف: 64). وفي هود يقول: (فاتجنيدهم والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) (الأعراف: 72). وفي صالح وقومه ثمود يقول: (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون \* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) (الشمل: 52، 53).

وفي رسل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وسلم: (ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانكفمنا من الذين أجمعوا، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (الروم: 47).

### إنما الله إله واحد

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا له مثل في ذاته أو صفاته أو أفعاله (قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد) (سورة الإخلاص). (والهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (البقرة: 163).

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومديره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يدبر، وأكثر من يد تنظم، لأختل نظامه: واضطربت سننه، وصدق الله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون) (الأنبياء: 22)، (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إنن لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون) (المؤمنون: 91). هو تعالى واحد في ربوبيته، فهو رب السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعي أنه الخالق أو الرازق أو المدبر لذرة في السماء أو في الأرض (وما ينبغي لهم وما يستطيعون) (الشعراء: 211).

وهو تعالى واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجا إلى إله. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه ولا انقياد إلا لحكمه. والبشر جميعاً سواء أكانوا أنبياء وصدقيين أم ملوكاً وسلاطين. عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فمن آله واحداً منهم، أو خضع له وحني رأسه، فت جاوز به قدره؛ ونزل بقدر نفسه. ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) (آل عمران: 64).

ومحمد نبي الإسلام لم يقل القرآن عنه إلا أنه: (رسول قد خلت من قبله الرسل) (آل عمران: 144). ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه "عبد الله ورسوله" (في الصحيح: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ولكن قولوا عبد الله ورسوله").

والأنبياء جميعاً ليسوا في نظر القرآن - إلا بشرأ مثلنا، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده، ولهذا كان النداء الأول في رسالة كل واحد منهم: (يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره) (انظر الأعراف: 59، 65، 73، 85، وانظر هود: 50، 61، 84 وغيرها) وفي هذا

يقول القرآن: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل: 36)، (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (الأنبياء: 25).

ومن الضلال المبين أن يزعم زاعم، أو يفترى مفتر على هؤلاء الأنبياء: أن أحداً منهم دعا الناس إلى تأليهه أو تقديس شخصه ... (ما كان ليشر أن يوتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون \* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، أياهمكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟) (آل عمران: 79، 80).

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة «التوحيد» وكلمة «الإخلاص» وكلمة «التقوى» وهي: «لا إله إلا الله».

كانت "لا إله إلا الله" إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله: سواء أكانت شجراً أم حجراً أم بشراً.

وكانت «لا إله إلا الله» نداءً عالمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكانت «لا إله إلا الله» عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف، إنه منهج الله الذي لا تغو الوجوه إلا له، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت «لا إله إلا الله» إيذاناً بمولد مجتمع جديد، يغير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته، متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية، لأنه ينتمي إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه.

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبايرتها ما تتطوي عليه دعوة «لا إله إلا الله» من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعفين عليهم، فلم يألوا جهداً في حربها، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من أمن وببغونها عوجاً. لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناساً منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون.

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلهاً، ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلا حل فيه الإله! ولم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقّة. وأصل الحرية الحقّة، وأصل الكرامة الحقّة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعي ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذة حكماً من دون الله.

قال أبو موسى الأشعري: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمر بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقيسيون جلوس سماطين وقد قال له عمرو وعمارة -وهما مندوبا مشركي قريش بمكة إلى النجاشي- إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القيسيين والرهبان: اسجدوا للملك، فقال جعفر بن أبي طالب: لا نسجد إلا لله!



فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون، وغرباء لاجنون، وهم في أرض هذا الملك وفي حوزته، أبوا أن يفرطوا في توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعاراً لكل مسلم "لا نسجد إلا لله".

### كمال الله تعالى

ولابد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزّه عن كل نقص: (لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد) (الإخلاص: 3، 4) (ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير) (الشورى: 11).

دل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه. فهو سبحانه العليم الذي لا يخفى عليه شيء: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا ورطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (الأنعام: 59).

وهو العزيز الفعال لما يريد، الذي لا يغلبيه شيء، ولا يقهر إرادته شيء (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير) (آل عمران: 26).

وهو القدير الذي لا يعجزه شيء. يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويحيي العظام وهي رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أھون عليه: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) (الملك: 1).

وهو الحكيم الذي لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يترك شيئاً سدىً، ولا يفعل فعلاً، أو يشرع شريعاً إلا لحكم، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها. وهذا ما شهد به الملائكة هذا الملائع الأعلى: (قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم) (البقرة: 32). وما شهد به أنبياء الله وأوليائؤه، وأولوا الألباب من عبادته: (الذين ينكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانه) (آل عمران: 191).

وهو الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه، ووسعت رحمته كل شيء، كما وسع علمه كل شيء، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) (غافر: 7) وقال: (عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء) (الأعراف: 156) وقد بدأ سور القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء في قلوب عبادته، وإن تورطوا في الذنوب والآثام: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر: 53).

الإله في الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه ومن فيه كإله أرسطو الذي سماه «المحرك الأول» أو «العلة الأولى» ووصفه بصفات كلها «سلوب» لا فاعلية لها ولا تأثير، ولا تصريف ولا تدبير، فإن هذا الإله -كما صورته الفلسفة الأرسطية- لا يعلم إلا ذاته، ولا يدري شيئاً عما يدور في هذا الكون العريض.

إله أرسطو والفلسفة اليونانية لم يخلق هذا الكون من عدم، بل العالم عندهم أزلي غير محدث ولا مخلوق.

والله أرسطو لا صلة له بهذا العالم، ولا عناية له به، ولا يدبر أمراً فيه، لأنه لا يعلم ما يجري فيه مما يلج في الأرض أو يخرج منها، وما ينزل من السماء أو يعرج فيها. كل ما يقوله أرسطو ومن تبعه عن الإله أنه ليس بجوهر ولا عرض وليس له بداية ولا نهاية، وليس مركباً ولا جزءاً من مركب وليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، وهذه السلبيات لا تجعل الإله كائناتاً يرجى ويخشى، ولا تربط الناس بربهم رباطاً محكماً يقوم على المراقبة والتقوى والثقة والتوكل والخشية والمحبة.

هذا الإله المعزول عن الكون -الذي عرفه الفكر اليوناني، وعنه انتقل إلى الفكر الغربي الحديث- لا يعرفه الإسلام، وإنما يعرف إلهاً (خلق الأرض والسموات العلا \* الرحمن على العرش استوى \* له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى \* وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى \* الله لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى) (طه: 4 - 8) (الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم) (البقرة: 255).

الإله في الإسلام هو خالق كل شيء، ورازق كل حي، ومدبر كل أمر، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة، خلق فسوى، وقدر فهدى، يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) (المجادلة: 7).

له الخلق والأمر، ويبدد ملكوت كل شيء، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب.

له ما في السموات وما في الأرض ملكاً وملكاً (الأولى بكسر الميم والثانية بضمها). لا يملك أحد مثقال ذرة في السموات والأرض، وما لأحد فيهما من شرك، الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، والأرض وما عليها مهيأة بقدرته، مسيرة بمشيئته، وفق حكمته. هو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ثم يجعله سحاباً كثيفاً لئلا يخرج من خلاله، وهو الذي سخر الفلك لتجري في البحر بأمره، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وهو الذي جعل الأرض ذلولاً ليمشي الناس في مناكبها ويأكلوا من رزقه. كل من في السموات والأرض خلقه وعباده، الملائكة في السموات، والجن والإنس في الأرض، كلهم في قبضة قدرته، وطوع مشيئته: الملائكة جنده المطيعون بفطرتهم، (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (الأنبياء: 27). (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (التحريم: 6).

والجن والانس وإن أعطاهم الحرية والاختيار- لا يخرجون عن مشيئته وسلطانه، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ومن تمرد منهم على العبودية له اليوم فسوف يعترف بها غداً (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) (مريم: 93 - 95).

هو تعالى شأنه- مع عباده جميعاً بعلمه وإحاطته: (وهو معكم أين ما كنتم) (الحديد: 4) وهو مع المؤمنين خاصة بتأييده ومعاونته: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (النحل: 128) (وأن الله مع المؤمنين) (الأنفال: 19).

الكون كله عاليه ودانيه، صامته وناطقه، أحياءه وجماداته كله خاضع لأمر الله، منقاد لقانون الله، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان خليماً غفوراً) (الإسراء: 44).

إن تسبيح الكون لله، وسجوده لله، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصمت عنها أذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بأذان قلوبهم، فإذا هم يرون الوجود كله محراباً، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغو والواصل) (الرعد: 15) (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبيل والشجر والدواب وكثير من الناس) (الحج: 18) (سبح لله ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم \* له ملك السموات والأرض، يحيى ويميت، وهو على كل شيء قدير \* هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم) (الحديد: 1 - 3).

### الإيمان بالنبوات

والإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولابد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما في الكون جميعاً، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهين له زاده الروحي، كما هيا له زاده المادي، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيي به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيي به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكوته المختلفة، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة في عكس هذا. كانت الحكمة في إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى الله، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد. ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولاً عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح: (يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين \* أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون \* أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) (الأعراف: 61 - 63).

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذه المقالة.

ويقول القرآن رداً على المشركين الجاحدين برسالة محمد: (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قلم صدق عند ربهم، قال الكافرون: إن هذا لساحر مبين) (يونس: 2).

والهداية بالوحي هي أعلى مراتب الهداية التي منحها الله للإنسان.

فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهي التي عبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمي، جعت فالتقمت الثدي وتألمت فبكيت!!!.

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهي التي عبر عنها بالوحي في شأن النحل (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون) (النحل: 68)، بل هي منيئة في أجزاء الكون كله: في النبات الذي يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم، وفي الكواكب التي يسير كل منها في مداره الذي لا يتعده، وفق قانون لا يتخطاه (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون) (يس: 40) فهي هداية عامة للمخلوقات علويها وسفليها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى لفرعون قال: (فمن ربكما يا موسى \* قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (طه: 49، 50). وقال تعالى: (سبح اسم ربك الأعلى \* الذي خلق فسوى \* والذي قدر فهدى) (الأعلى: 1 - 3).

والمرتبة الثانية للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق، والباطنة كالمجوع والعطش والفرح والحزن، وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها نوع من الانتباه، وقدر من الإدراك، وإن كانت لا تسلم من الخطأ، كما نرى في السراب الذي يحسبه الرائي ماء، وفي الظل الذي يظنه ساكناً وهو متحرك.

والمرتبة الثالثة: هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيراً ما يعتمد على الحس في الحكم والاستنباط. وبذلك يتعرض للخطأ. كما يتعرض له في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج. والعقل في عملياته العليا من خصائص الإنسان، التي تفرد بها عن الحيوان.

والمرتبة الرابعة: هي هداية الوحي، وهي التي تصحح خطأ العقل، وتتفنى وهم الحواس، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول.

(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (البقرة: 213).

(لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) (الحديد: 25) (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (النساء: 165).

والإيمان بالنبوة والرسالة يتضمن في حناياه معاني عديدة:

1. فهمناه الإيمان بحكمة الله البالغة، ورحمته الواسعة، فحكمة الحكيم ورحمة الرحيم هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سدى، وألا يعذبوا قبل البلاغ والتبشير والإنذار، وألا يتركوا للخلف ياكلهم دون حكم يرجعون إليه: (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) (القيامة: 26) (وما كنا معذبين حتى نبعث رسلاً) (الإسراء: 15) (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (البقرة: 213).
2. ومعناه الإيمان بوحدة الدين عند الله، وأن دين الله في جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغير، وإن تغيرت المناهج والشرائع باختلاف الأعمار. (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربه لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (البقرة: 136) (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) (الشورى: 13).

ويصور رسول الإسلام موقفه من الأنبياء قبله، أنه ليس إلا اللبنة الأخيرة، في هذا الصرح الكبير، فيقول: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين".

3. ومعناه الإيمان بمثل عليا إنسانية واقعية، وقدرات بشرية ممتازة، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق، وصوالح الأعمال، وفضائل النفوس حقائق واقعة، وشخصاً مرئية للناس، لا مجرد أفكار في بعض الرؤوس، أو أماني في بعض النفوس، أو نظريات في الكتب والقراطين. وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات، وإنما يؤمنون ويثرون وينفعلون بما يشاهدون وما يحسون، ولهذا جعل الله الرسل إلى الناس بشراً مثلهم، لا ملائكة من غير جنسهم، لأن الإنسان لا يأس إلا لمثله، ولا يقتدي إلا بمثله، ولا تقوم عليه الحجة إلا به. وقد استبعد المشركون أن يكون الرسول بشراً، وقالوا: منذ عهد نوح : (لو شاء الله لآتزل ملائكة) (المؤمنون: 24) وقالوا في عهد محمد: (أبعث الله بشراً رسولاً) (الإسراء: 94) فرد الله عليهم بقوله: (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) (الإسراء: 95).

فالأنبيا ليسوا في نظر القرآن آلهة، ولا أنصاف آلهة، ولا أبناء آلهة، إنهم بشر مثلنا، من الله عليهم بنعمة الوحي، ليلبغوا رسالة الله للناس: (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن تأتكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (إبراهيم: 11).

#### الإيمان بالآخرة

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان؟ أرحام تدفع وأرض تبلى ولا شيء بعد هذا؟ أو كما عبر القرآن عن قوم: (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) (المؤمنون: 37).

إن فما سر هذا الشعور الخفي، والوجدان الكامن الذي يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان في هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟ هذا الشعور الذي رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا -استجابة له- جثث الموتى، وبنوا الأهرام، والذي ظهرت آثاره في أمم شتى بأساليب مختلفة. يقول الشيخ محمد عبده: "اتفقت كلمة البشر موحدتين ووثنتين، نبیین وفلاسفة -إلا قليلا لا يقام لهم وزن- على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء -أي زوال مطلق- وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازلهم في تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون فيه، وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ في أحياء البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذهب إلى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال: أنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه الأجسام المرئية. هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة والمنبعث في جميع الأفسس عالمها وجاهلها، وحشيتها ومستأنسها، باديتها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلعة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التي اخصت بها هذا النوع. فكما أنهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا -وإن شذ أناس منه أنكروا ذلك أو شكوا فيه- كذلك قد ألهمت العقول، وشعرت النفوس، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد، كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا في طور آخر، وإن لم يدرك كنهه.

ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناسبة من طريق غير محصورة، شيقة إلى لذات غير محدودة، ولا واقفة عند غاية، مهياة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات".

ثم كيف يسبق العقل أن ينفذ سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه، بل تستر واختفى فأقلت ونجا .. أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت؟ وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحو وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما لأنهم كانوا جنوداً مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتكبرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق، واستمسكوا به، ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى في سبيله. وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية بل في ترف ونعيم.

ألا يسبق العقل -الذي يؤمن بعبادة الإله الواحد- بل يطلب، أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرة في السموات والأرض: (وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما لآعين \* ما خلقتناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون \* إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) (الدخان: 38 - 40) (وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) (سورة ص: 27، 28).

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون \* وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) (الجن: 21، 22).

(ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) (النجم: 31).

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزى على من خلقهم أول مرة : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم) (الروم: 27).

بهذا الخلق الأول يستدل القرآن على إمكان البعث، كما يستدل عليه بمظاهر قدرة الله في عالم النبات: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث فإنا خلقتكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض هاملة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج \* ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) (الحج: 5 - 7) ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة في هذا الكون من السموات والأرض، وهي لمن تأمل- أكبر من خلق الناس وأعظم: (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بل هو الخلاق العظيم) (يس: 81) (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى، بل إن الله على كل شيء قدير) (الأحقاف: 33).

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، لا ظلم اليوم، إن الله سريع الحساب) (غافر: 17) (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين) (الأنبياء: 47) وهناك

ينقسم العباد إلى شقي وسعيد، (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق \* خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعّال لما يريد \* وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، عطاء غير مجذوذ) (هود: 106 - 108).

والجنة دار هياها الله لمثوبة الصالحين من عباده، وأعد فيها من النعيم الروحي والمادي ما عبر الله عنه في الحديث القدسي "أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" وأقرأوا إن شئتم قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (السجدة: 17).

إن الحياة في هذه الدار هي الحياة الحقّة، وإن نعيمها هو النعيم الذي يقصر الخيال البشري عن وصفه. إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً، ولا نعيماً مادياً صرفاً، وإنما هو مزيج من الأمرين، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردة، ولا مادة بحتاً، إنما هو مركب منهما، والإنسان في الآخرة امتداد للإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل، فلا عجب أن يكون في الجنة فاكهة ولحم وطيور وحوار عین (ورضوان من الله أكبر) (التوبة: 72).

والنار دار أعدّها الله لعقوبة الفجار من الخلق. وهي تجمع العقوبتين المادية والروحية معاً.. فهناك العذاب الحسي (كلما نصّجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) (النساء: 56) وهناك العذاب النفسي الذي يتمثل في الهوان والخزي كقوله تعالى لهم: (اخشأوا فيها ولا تكلمون) (المؤمنون: 108).

## الباب الأول : الإيمان الذي نغنيه

### الفصل الثاني - مزايا العقيدة الإسلامية

- عقيدة واضحة
- عقيدة الفطرة
- عقيدة ثابتة
- عقيدة مبرهنة
- عقيدة وسط

### عقيدة واضحة

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد:

فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص في أن وراء هذا العالم البديع انسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه. وقدر كل شيء فيه تقديرًا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد (بل له ما في السموات والأرض، كل له قانتون) (البقرة: 116). وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد.

فليس في عقيدة التوحيد ما في عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائماً على الكلمة الماثورة عند غير المسلمين  
"اعتقد وأنت أعمى".

### عقيدة الفطرة

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: (فَاقْمْ وُجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم: 30). وصريح الحديث النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة أي على الإسلام- وإنما أبواه يهودونه أو ينصرّونه أو يمجّسونه" (متفق عليه). فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبيون.

أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء.

### عقيدة ثابتة

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجامع العلمية، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها أو يحوّر فيها، وكل إضافة أو تحوير مردودة على صاحبها، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد" (متفق عليه) أي مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكراً: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْتِهِمْ مِنَ اللَّهِ) (الشورى: 21). وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التي نُسبت في بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

### عقيدة مبرهنة

وهي عقيدة "مبرهنة" لا تكتفي من تقرير قضايها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى "اعتقد وأنت أعمى" أو "أمن ثم اعلم" أو "أغض عينيك ثم اتبعني" أو "الجهالة أم التقوى" بل يقول كتابها بصراحة: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 111 والنمل: 64) ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحي (أوغسطين): "أومن بهذا لأنه محال"! بل يقول علماؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفي بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساساً للاعتقاد بل تتبع قضايها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذي يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماؤها: إن العقل أساس النقل .. والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصحيح. فنرى القرآن في قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله. وفي قضية البعث يدلل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السموات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية في إثابة المحسن، وعقوبة المسيء: (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) (النجم: 31).



### عقيدة وسط

وهي عقيدة وسط لا تجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً:

هي وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله في الملوك والحكام بل في بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار، فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وأثبتت للعالم إلهاً واحداً، لا إله إلا هو: (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون \* سيقولون لله، قل أفلا تذكرون \* قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم \* سيقولون لله، قل أفلا تتقون \* قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون \* سيقولون لله، قل فأتأتى تسحرنون) (المؤمنون: 84 - 89).

وهي عقيدة وسط في صفات الإله:

فليس فيها الغلو في التجريد الذي يجعل صفات الإله مجرد أسلوب لا تعطي معنى، ولا توحى بخوف أو رجاء، حكما فعلت الفلسفة اليونانية- فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا .. من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها في هذا العالم؟ ويقابل هذا أنها خلعت من التشبيه والتجسيم الذي وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية .. جعلت الخالق كاحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحابة والقسوة .. و .. وجعلته يلتقي ببعض الأنبياء فيصارعهم فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد! .

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيهه إجمالاً- عن مشابهة مخلوقاته (ليس كمثله شيء، وهو السمع البصير) (الشورى: 11) (ولم يكن له كفواً أحد) (الإخلاص: 4) ومع هذا تصفه- تحصيلاً- بصفات إيجابية فعالة (الله لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما، وهو العلي العظيم) (البقرة: 255).

(إن بطش ربك لشديد \* إنه هو يبدئ ويعيد \* وهو الغفور الدود \* ذو العرش المجيد \* فعال لما يريد) (البروج: 12 - 16).

وهي وسط بين التسليم الأبله الذي يأخذ عقائد الآباء بالورثة، كما يرث عنهم العقارات والأماك: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون) (الزخرف: 23)، وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شيء حتى الألوهية وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التي بين جنوبهم، ولا ماهية حياتهم وموتهم، ولا كنه شيء من القوى الكونية المحيطة بهم، فكيف يطمع العقل بعد ذلك في معرفة كنه الألوهية؟ وهل يعرف النسبي كنه المطلق؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود؟!

وهي مع هذا تفتح الباب للنظر في الكون والتفكير فيه، يقول الرسول: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا" (الحديث روي بالفاظ متعددة، من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال السخاوي في المقاصد الحسنة) ويقول القرآن: (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) (يونس: 101) (أو لم يتفكروا في أنفسهم) (الروم: 8) (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) (الأعراف: 185) (وفي الأرض آيات للموقنين \* وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات: 20، 21).

وهي وسط في علاقتها بالعقائد الأخرى، فلا تقبل الذوبان في غيرها، بل تدعو في قوة إلى الثبات عليها والاستمسك بها: (فتوكل على الله، إنك على الحق المبين) (النمل: 79)، (فاستمسك بالذي أوحى إليك، إنك على صراط مستقيم) (الزخرف: 43) ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية: (الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) (الشورى: 15) بل يتسع صدرها لما يخالفها: (لكم دينكم ولي دين) (الكافرون: 6) (لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) (يونس: 41).

تهيب بأصحابها أن يدعوا إليها: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) (فصلت: 33) ولكنها لا ترض بإكراه أحد على اعتناقها: (لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي) (البقرة: 256).

لا تقبل التهاون في موادة من يحاربونها ويضعون العراقيل في سبيلها وإن كانوا من ذوى القرابة القريبة: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (المجادلة: 22) ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عن مخالفتها ولا يعتدي على أهلها: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة: 8).

وهي وسط بين الذين يتساهلون في إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير، وبين الذين لا يقبلون في العقيدة أي خطرة تمر بالذهن ثم تختفي، أو هاجس يهيج في النفس ثم يزول، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن في أصول العقيدة فضلاً عن الشك أو الوهم- قال تعالى: (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً) (يونس: 36) (إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) (النجم: 23) (وما لهم به من علم، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) (النجم: 28).

ومع هذا تسامحت في الخواطر التي لا يسلم منها العقل البشري، بل اعتبرت أحياناً دليل يقظة العقل، ومظنة للطمأنينة وعلم اليقين. قال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنا نجد في أنفسنا ما لو أن نصير حمماً فحمماً محترقاً- أهون من أن نتكلم به- يحنون خطرات ترد عليهم في قضايا الألوهية- فقال النبي في صراحة وقوة: أو قد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان (رواه البخاري وغيره).

ويروي الحاكم أن ابن عباس وابن عمر التقيا، فقال ابن عباس: أي آية في كتاب الله أرجى؟ فقال ابن عمر: قول الله: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) (البقرة: 260). فرضي منه بقوله (بلى)، فهذا لما يعترض في الصدر مما يوسوس به الشيطان.

إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام الملك في قلب المؤمن، إنها طيف يلوح ثم يختفي، وهاجس يهيج ثم يزول بإسلام الوجه لله. والاعتصام بهداه، وتلاوة آياته: (ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم) (آل عمران: 101) (ومن يسلم وجهه إلى الله فهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور) (لقمان: 22).

وهي وسط في أمر النبوة، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية، ففتح الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله، كما اعتقد أهل الملل في أنبيائهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات من شرب للمسكرات: واتباع للشبهوات، بل قتل للنفس في سبيلها كما رأينا في وصف أسفار العهد القديم للأنبياء.

وإنما الأنبياء في عقيدة الإسلام بشر أصفاء، علم الله طيب معادتهم، وحسن استعدادهم، فأنزل وحيه عليهم: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (الأنعام: 124) وجعلهم أسوة لاتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنيء الأعمال، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون) (البقرة: 44) وحتى يكونوا أهلاً لعهد الله (قال لا ينال عهدي الظالمين) (البقرة: 124). وهي عقيدة وسط في قضية الإرادة الإنسانية، قضية الجبر والاختيار، تلك القضية التي حار العقل البشري في الوصول إلى رأي فيها، وتنازع فيها الفلاسفة وعلماء الأخلاق والنفس والتربية وغيرهم منذ تفلسف الإنسان إلى اليوم.

عقيدة الإسلام في هذا هي العقيدة الوسط المطابقة للقطرة السليمة والواقع المشاهد، فالإنسان في دائرة أعماله الاختيارية- حر مسئول عن نفسه وعمله، له أن يفعل وأن يترك، أن يقدم وأن يحجم كما تشهد بذلك بديته وإحساسه، وكما تشهد نصوص القرآن (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (الكهف: 29) (إن هذه تذكرة، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) (المزمل: 19) (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) (المدثر: 37) (من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها) (الجاثية: 15) (لا تكلف نفس إلا وسعها) (البقرة: 233) إلى غير ذلك من آيات تبلغ المنات، كلها تقر حرية الإنسان ومسئوليته عن عمله.

ولم يكف القرآن بهذا التقرير الإيجابي، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر، محتجين بمشينة الله فقال: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) (الأنعام: 148).

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء، كذلك فعل الذين من قبلهم: فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) (النحل: 35).

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، إن أنتم إلا في ضلال مبين) (يس: 47). ولكن الإنسان كما هو الواقع- ليس مطلق الإرادة، كامل الاختيار، بحيث يفعل كل ما يشاء، وينفذ كل ما يريد، ولو فعل لكان إلهاً. ولن يستطيع أحد- مهما بلغ من الانتصار للحرية الإنسانية- أن ينكر هذه المحدودية لإرادة البشر، فقد حكموا فيه الوراثة، أو البيئة أو كليهما وقال بعضهم: "الإنسان حر في ميدان من القيود"، حتى أولئك الماديون الجدليون قيده بوسائل الإنتاج، وظواهر الاقتصاد، فنزلوا بالإنسان إلى أحط مستوى من "الجبرية" حين جعلوه عبداً خاضعاً لمظاهر المادة. لا سيداً مهيماً عليها كما يقرر الإسلام.

هذه الحقيقة المتفق عليها قررها الإسلام في صورة أشرف وأكرم للإنسان، فهو حر مختار في دائرة ما رسم الله للوجود من سنن، يجريها بعلمه وحكمته ومشينته على أجزاء الكون كله، ومنها هذا الإنسان، فهو حر لأن الله أراد له الحرية. أو هو يشاء، لأن الله هو الذي قدر له أن يشاء: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) (الإنسان: 30).

فالقُرآن -جانب ما يقرره من حرية الإرادة الإنسانية- يذكر الجانب الآخر، جانب الإرادة الإلهية النافذة، والقدرة الإلهية القاهرة: (ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعاً) (يونس: 99) (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك عدأً إلا أن يشاء الله) (الكهف: 23، 24) (إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر) (الإسراء: 30) (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) (فاطر: 8) (قل كل من عند الله) (النساء: 78). والقُرآن قد أدى للحقيقة حقها من كل جوانبها، فلم يغمط الألوهية حقها، كما لم يعد بالإنسان قدره. وكان بشموله واتساع نظراته كتاب العالم كله وكتاب الزمن كله.

يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة :

"إن القرآن كتاب موجه للإنسانية كلها، وهو ينطبق على جميع طوائف هذه الإنسانية ويعبر عن ذلك تماماً، فالمتمدين الورع، الذي قد نفذ في كيانه الشعور العميق أنه مخلوق فيريد أن يخرج عن حوله وقوته وينسب الخير لله والشر لنفسه، أو يرى أن ينسب كل شيء لله نسبة ميتافيزيقية لا مادية يجد في القرآن ما يناسبه ذلك. من مثل: (ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (النساء: 79) (قل كل من عند الله) (النساء: 78).

والمتمدين المعتز بفعل الخير، المعترف بمسئوليته في فعله للشر، يجد ما يرضي شعوره بذاته، ويتفق مع العدالة التي يتصورها. من مثل: (من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها) (فصلت: 46، الجاثية: 15) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: 7، 8).

والمذنب المسرف على نفسه يجد إذا تاب وأناب ما يبده يأسه ويطمئنه على مصيره. من مثل: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر: 53).

والناظر نظرة فلسفية ميتافيزيقية عميقة يجد ما يلائم نظراته..

والخاسر الذي يزعم أنه هالك قد قضى عليه بالشر والشقاء يجد ما يقرر وصف حاله.

فالقُرآن ليس موجهاً للسذج ولا للمصريين على النظر إلى شيء واحد وعلى النظر من جانب واحد، بل هو موجه إلى الإنسانية المتطورة، السائرة في تطورها نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموحدة" (من تعقيبات الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريذة على كتاب "تاريخ الفلسفة في الإسلام" لديبور ص 69).

### الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

#### تمهيد

هل نستطيع أن نحدد أهم ما يريده الفرد لنفسه، وما ينشده في حياته؟ وما الذي تتطلع إليه نفسه، ويسعى جاهداً لتحقيقه من الأهداف الكبيرة والغايات البعيدة؟

نعم نستطيع، أن نحدد ذلك إذا نظرنا إلى أنفسنا ونظرنا إلى البشر من حولنا، واستقرنا أحوال البشر في تاريخهم القريب والبعيد.. نستطيع أن نحدد ذلك إذا عرفنا أن مقصودنا من الفرد هو الإنسان السوي لا الشاذ، الإنسان السليم لا المختل المشوه المشوش. إن الفرد يريد أن يشعر باتساقه، ويحيا بخصائصها. يريد أن يحس بكرامته وذاتيته، وأن له وزناً وقيمة في هذا الوجود، يريد أن يشعر أن لوجوده غايةً ولحياته رسالة، وأنه شيء مذكور بين أشياء هذا الكون العديدة. وأنه مخلوق متميز عن القرد والدواب والحشرات، وأنه لم يخلق في هذه الأرض عبثاً، ولا أعطي العقل وغلم البيان اعتباطاً.

الفرد ينشد الكرامة، وينشد معها القوة .. القوة تجاه الطبيعة، وتجاه الأحداث، القوة أمام طغيان الغير، وأمام شهوات النفس، على حد سواء. القوة على تحقيق الغايات وأداء الواجبات، القوة التي تعوض الفرد عن ضعفه الجسدي، وعجزه الخلقي وقصوره الذاتي، إزاء الأقدار، وإزاء الموت، وإزاء المجتمع بقواه الكبيرة المتنوعة.

وهو مع هذا- ينشد شيئاً آخر. يلهث الناس جميعاً في البحث عنه: إنه ينشد السعادة، ينشدها في هذه الحياة لا في الحياة الأخرى فحسب .. لا يريد أن يقضي أيامه المقدرة له في هذه الدنيا شقياً تعيساً. يريد أن يعيش حياته ناعماً بسكينة النفس، وطمأنينة القلب. يريد أن يتمتع بالأمن الداخلي يغمر جوانحه، وبالرضا الذاتي يملأ عليه أقطار روحه، وبالأمل المشرق يضيء له آفاق حياته، وبالحب الكبير يغمر بالنور والضياء كل حناياه، وكل جوانب دنياه.

هذه هي أهم وأعظم ما ينشده "الإنسان" السوي لنفسه ولكل من يحب من أهله ومن الناس.

أما الشواذ الذين يريدون أن يعيشوا ليأكلوا ويتمتعوا كما تتمتع الأنعام، ثم ينفقوا (نفقت الدابة: هلكت) أخيراً كما تنفق الأنعام أيضاً. وأما الذين يريدون أن يعيشوا كالأدب والسباع، تعدو وتسطو وتتسلط على غيرها بمنطق الثاب والمخالب وتجد لذة في هذا السطو والعدوان. أما هؤلاء وأولئك وأمثالهم، فليسوا مقياساً لكل البشر .. ومع هذا لا يبعد أن يقيق أحدهم أو يصحو .. ليفتش عن نفسه: أين هي؟ وعن ذاته: ما هو؟ ويبحث مع البشر الأسوياء- عن الكرامة والقوة، عن السعادة والسكينة، عن المعاني الإنسانية الرفيعة، التي بدونها لا يجد الإنسان ذاته، ولا يتذوق لحياته طعماً، ولا يشعر لوجوده بمعنى أو قيمة.

فهل للإيمان أثر في تحقيق هذه المعاني الكبيرة، والأهداف العميقة، في حياة الفرد؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصول التالية من هذا الكتاب إن شاء الله.

## الفصل الأول- الإيمان وكرامة الإنسان

(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (الإسراء: 70)

- الإنسان في نظر الماديين
- الإنسان في نظر المؤمنين
- مكانة الإنسان من الله
- مكانة الإنسان في الملة الأعلى
- عزة الإيمان بعد عزة الإنسانية
- بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للإنسان
- منزلة الإنسان
- طبيعة الإنسان

## غاية الإنسان

• مكانة الإنسان في هذا العالم المادي

• علماء الإسلام يشيّدون بمكانة الإنسان

## الإنسان في نظر الماديين

### ما الإنسان؟

إنه في نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض. من الأرض نشأ، وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل وإلى الأرض يعود!! هو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ، كما تفرز الكبد الصفراء، أو كما تفرز الكلية البول! هو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره، إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض، بل هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقردة، غاية أمره إنه «تطور» بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان!!.

والأرض التي يحيا عليها الإنسان، إن هي إلا كوكب صغير ضمن المجموعة الشمسية، التي هي مجموعة من مجاميع ضخمة كبيرة كثيرة يضمها عالم الأفلاك، تعد بمنات الملايين.

هكذا أنبأنا الفلك الحديث، وعرفنا من "كوبرنيكس" أن الإنسان شيء ضئيل في الكون الكبير.. هذا من حيث المكان.

أما من حيث الزمان، فقد جاء «دارون» وجاء الجيولوجيون فأثبتوا لنا أن الإنسان شيء تافه أيضاً من حيث الزمان، فإن عمر الأرض يمتد إلى منات الملايين من السنين، فما قيمة أي مائة أو حتى منات من الأعوام يعيشها الإنسان؟

تلك هي قيمة الإنسان بالنسبة إلى المكان وإلى الزمان في نظر الماديين.

إنهم لا يميزونه بما يسميه غيرهم «الروح الإلهي» أو «النفس الناطقة»، إنه ليس إلا هذا الهيكل المادي وهذا الجسم الحيواني. وما قيمة هذا الجسم، وهذا الهيكل الذي هو الإنسان؟.

"إن أحد العلماء رد جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية فيه، فخرج بالنتائج الآتية:

إذا جئنا بإتسان زنته مائة وأربعون رطلاً (140) وغلغلنا النظر في تكوينه وجدنا بدنه يحتوي على المواد الآتية:

قدر من الدهن يكفي لصنع (7) قطع من الصابون.

قدر من الكربون يكفي لصنع (7) أقلام رصاص.

قدر من الفوسفور يكفي لصنع رؤوس (120) عود ثقاب.

قدر من ملح المغنيسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات.

قدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه.

قدر من الجير يكفي لتبييض بيت للدجاج.

قدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التي تسكن شعره.

قدر من الماء يملأ برميلاً سعة عشرة جالونات!

وهذه المواد تشتري من الأسواق بمبلغ من المال يساوي خمسين أو ستين قرشاً مصرياً!!!.

وتلك هي قيمة الإنسان المادية (من كتاب "نظرات في القرآن" للأستاذ محمد الغزالي).

لا روح هنالك ولا نفحة من السماء يختص بها هذا الكائن الفذ!!

يقول أحد ملحد العرب المعاصرين:

"هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة؟! نحن لا نساوي أكثر من أنفسنا، وكذلك الحشرات. ونحن لا نريد إلا أن نحقق أنفسنا، وكذلك أيضاً الحشرات!!".

والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط و فرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان. لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان! ماذا نفقد أو يفقد الكون أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا؟!

وليس ما ذهب إليه دارون وفرويد وأمثالهما من الماديين بأفضل من هذه النظرة إلى الإنسان. إنه عندهم أخو الحشرات، وصنو القروء! إنهم لا يبصرون فيه إلا القشرة والغلاف، ولا يعرفون فيه إلا الطين والحما المسنون! فهو مخلوق من طبيعته الانجذاب إلى أسفل، وليس الرقي إلى أعلى. من طبيعته الهبوط إلى الأرض، وليس الارتفاع إلى السماء. هو -بعبارة موجزة- "حيوان متطور" ترقى من طور إلى طور حتى بلغ ما هو عليه. فالحيوانية في الإنسان قشرته ولبيه، ولحمته وسداه!

فأي إحياء للنفس الإنسانية أسوأ من هذا الإحياء أثر؟ أن يرى الإنسان نفسه مخلوقاً هابطاً .. حيواناً .. طيناً وحماً! إنه لا يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف ولا يستنكف من الفذارة والأوحال أن يتمرغ فيها، ويتلطح بها، بل المستغرب منه أن يتعفف ويتطهر، وأن يحيا نظيفاً مستعالياً على الشهوات، والمطامع المادية باذلاً النفس والمال في سبيل الحق، ابتغاء رضوان الله.

الإنسان في نظر المؤمنين

أما الإنسان في نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفته في الأرض، ومحور النشاط في الكون، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما في الكون له ولخدمته. أما هو فجعله تعالى لنفسه. يقول الله تعالى في بعض الآثار الإلهية: "ابن آدم، خلقتك لنفسي، وخلقك كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشغل بما خلقتك لك عما خلقتك له، ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب. ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتنني فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء".

حقاً إن الإنسان شيء ضئيل بالنسبة لسعة الكون من حيث حجمه وحياة جسمه، ولكنه من حيث روحه وكيانه المعنوي شيء كبير، وهل الإنسان في الحقيقة إلا ذلك الروح وذلك الكيان المعنوي؟

والله در القائل:

دواؤك فيك وما تبصر      ودواؤك منك وما تشعر!!  
وترزعم أنك جرم صغير      وفيك انطوى العالم الأكبر!

وحقاً أن الإنسان من حيث عمره القصير على الأرض ذرة في صحراء الأزمنة الجيولوجية البعيدة الضاربة في أغوار القدم -إن صح ما قالوا- ولكن المؤمنين: يوقنون أن الموت ليس نهاية الإنسان، إنه محطة انتقال إلى الأبد الذي لا نهاية له، إلى دار الخلود .. إلى حيث يقال للمؤمنين: (سلاطكم طيبتم فادخلوها خالدين) (الزمر: 73).

وإذا كانت هذه كرامة الإنسان هذا نظر الدين عامة، فله في الإسلام خاصة مكان أي مكان. تحدث القرآن عن الإنسان في عشرات بل مئات من آياته، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وكانت خمس آيات لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه - علاقة الخلق والتكريم. وعلاقة الهداية والتعظيم، واختارت الآيات لفظ "الرب" لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، هذه الآيات الأولى هذا القرآن هي قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق: 1 - 5)

#### مكانة الإنسان من الله

وفي آيات كثيرة من سور شتى، بين القرآن قرب الإنسان من الله، وقرب الله من الإنسان، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالاديان، الذين جعلوا من أنفسهم «حجاباً» على «أبواب» رحمة الله الواسعة، والله يعلم إنهم كاذبون. قال الله في القرآن: (وإذا سألك عبيدي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان) (البقرة: 186) (والله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله) (البقرة: 115) (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) (سورة ق: 16) (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا) (المجادلة: 7). ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في أحاديثه عن ربه: "أنا عند حسن ظن عبيدي بي وأنا معه إذا ذكرني: إذا ذكرني في نفسه ذكرته



في نفسي. وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولاً" (رواه البخاري).

هذه مكانة الإنسان عند الله.

#### مكانة الإنسان في الملائكة

أما مكانته هناك في الملائكة الأعلى -عند العوالم الروحية العلوية- فهي مكانة أشرأبت إليها أعناق الملائكة المقربين، وتناولت إليها نفوسهم فما أوتوها. فإن الذي اختار الله له هذه المكانة خلافة الله في الأرض- هو الإنسان: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون \* وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين \* قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم \* قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) (البقرة: 30 - 33).

وقد أراد الله أن يكرم هذا النوع ويحتفي به، ويظهر مكانته في تلك العوالم الروحية، فأمر الملائكة أن تؤدي التحية لهذا الكائن الجديد، وتستقبله بالحناءة وإجلال وإكبار: (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين \* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين \* فسجد الملائكة كلهم أجمعون \* إلا إبليس.. (سورة ص: 71 - 74)).

لقد تمرد إبليس على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان، ودفعه الحسد والغرور أن أبي واستكبر وكان من الكافرين، واتخذ من الإنسان موقف التحدي والدعاء، فإذ كانت عاقبة هذا العدو المبين؟ كانت كما ذكر القرآن قال: (فأخرج منها فأنك رجيم \* وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) (سورة ص: 77، 78).

وتلك هي مكانة الإنسان في العوالم الروحية.

#### مكانة الإنسان في هذا العالم المادي

أما مركز الإنسان في هذا الكون المادي العريض فهو مركز السيد المتصرف الذي سخر كل ما في هذا العالم لنفعه وإصلاح أمره، وكان كل شيء في هذا الكون قد "نسيج" من أجله و"فصل" على "قده" تفصيلاً، (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار \* وسخر لكم الشمس والقمر دانين، وسخر لكم الليل والنهار \* وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (إبراهيم: 32 - 34) (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلاً) (الإسراء: 70) (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون \* وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الجنّة: 12، 13). (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (لقمان: 20).

وتلك هي مكانة الإنسان في هذا الكون وصلته بما فيه.

وما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة السامقة وفي الكون أجرام أضخم منه وأكبر؟

إنه سر القيس الذي هو فيه من نور الله، والنفخة التي فيه من روح الله.

تلك النفخة التي جعلته مستعداً للخلافة في الأرض، مستعداً لحمل الأمانة الكبرى. أمانة التكليف والمسئولية، تلك التي صورها القرآن تصويراً أدبياً رائعاً حين قال: (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) (الأحزاب: 72). هذا الاستعداد في الإنسان هو الذي جعل مصيره بيده - بعد أن يسر الله له سبل الهداية وأزاح عنه كل الأعذار: (بل الإنسان على نفسه بصيرة) (القيامة: 4) (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (الكهف: 29) (قد أفلح من زكّاه \* وقد خاب من دسّاه) (الشمس: 9، 10) (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم قلنا) (الإسراء: 7).

لقد سما الإسلام بالإنسان فاعترف به كله، روحه وجسده، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، غرائزه الهابطة وأشواقه الصاعدة.. لم يضع في عنقه غلاً، ولا في رجله قيداً، ولم يحرم عليه طيباً، ولم يغلّ في وجهه باب خير، من لم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، بل خاطبه خطاباً مباشراً (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم \* الذي خلقك فسواك فعدلك \* في أي صورة ما شاء ركبك) (الانفطار: 6 - 8). (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) (الانشقاق: 6).

#### علماء الإسلام يشيدون بمكانة الإنسان

هذه صورة سريعة، ولكنها واضحة التقاسيم لمكانة الإنسان كما رسمها القرآن، وقد أشاد بهذه المكانة الإنسانية كل أئمة الإسلام وعلمائه في مختلف البيئات والاختصاصات.

يقول الفقيه أبو بكر بن العربي: "ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله تعالى خلقه حياً عالماً، قادراً، متكلاً، سميعاً بصيراً، مدبراً، حكيماً". وهذه هي صفات الرب جل وعلا..

ويشرح الإمام الغزالي في «إحيائه» أسباب محبة العبد لله تعالى، فيذكر منها المناسبة والمشابهة بين ذات الإنسان وذات الله عز وجل، وهي مناسبة باطنة "لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر". قال: "فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها بالافتقار والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل "تخلقوا بأخلاق الله" وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الألوهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى". "وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي أختص بها الأدمي، فهي التي يَوْمِي إليها قوله تعالى: (ويسألك عن الروح، قل الروح من أمر ربي) (الإسراء: 85) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) (سورة ص: 72) ولذلك أسجد له ملائكته. ويشير إليه قوله تعالى: "إنا جعلناك خليفة في الأرض" (ص 26 والظاهر إنه يقصد آية البقرة: 30 (إني جاعل في الأرض خليفة) لما يبدو من تعقيبهِ على الآية) إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة.. وإليه يرمز قوله صلى الله عليه

وسلم: "إن الله خلق آدم على صورته" (رواه مسلم) حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس، فشبّهوا، وجسموا، وصوروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً - وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى: "مرضت فلم تعدني! فقال: يا رب وكيف ذلك؟ قال: مرض عبي فلان، فلم تعده، ولو عدته لوجدتني عنده".

وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى في الحديث القدس: "لا يزال عبي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به.." (من كتاب "أحياء علوم الدين" ربيع المنجيات هي 263) رواد البخاري.

ويقول الإمام ابن القيم: اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلق نفسه وخلق له كل شيء، وخصه من معرفته ومحبه وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سمواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته الذين هم أقل قرباً. استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وطقته وإقامته .. وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخطبه وكلمه منه وإليه.. فلإنسان شأن ليس لسان المخلوقات" (مدارج السالكين ج 1 هي 210 مطبعة السنة المحمدية).

#### عزة الإيمان بعد عزة الإنسانية

هذه هي معاني الكرامة والعزة التي تغرسها العقيدة في قلب المؤمن باعتباره "إنساناً" ولكنه بوصفه "مؤمناً" يشعر بمعان أعمق، وعزة أشمخ، ويسمو به إيمانه إلى سماء عالية لا يسعى إليها على قدم ولا يطار على جناح؟

وهو بوصفه عضواً في أمة الإيمان - يشعر بكرامة أكبر وعزة أخرى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران: 110) (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) (البقرة: 143) (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) (الحج: 78).

يشعر المؤمن بالعزة التي سجلها الله في كتابه للمؤمنين مقرونة بالعزة لنفسه ولرسوله، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (المنافقون: 8). ويشعر بأنه كتب له الكرامة والحرية التي بها يعطى ولا يعطى، ويسود ولا يساد: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) (النساء: 141). ويشعر أن في ولاية الله البر الكريم، ولاية المعونة والنصرة، والرعاية والهداية. (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (محمد: 11).

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) (البقرة: 257). ويشعر المؤمن إنه في معية الله الذي يكلمه دوماً بعينه التي لا تنام، ويحرسه في كنفه الذي لا يرام، ويمده بنصره الذي لا يقهر: (وأن الله مع المؤمنين) (الأنفال: 19) (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (الروم: 47) (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا، كذلك حقاً علينا نجي المؤمنين) (يونس: 103).

ويشعر المؤمن إنه في حماية الله القوي القدير، يثود عنه، ويرد عن صدره سهام الكائدين والمعتدين: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوان كفور) (الحج: 38).

والقرآن يجعل المؤمنين مقياساً لصلاح الأعمال أو فسادها، فحكمهم عند الله معتبر، ورويتهم للأعمال مقرونة برواية الله ورسوله: (وَقُلْ اَعْمَلُوا فَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَعَلَتْهُمُ كُلُّهَا فَعَلْتُمْ وَفَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ آمَنُوا) (التوبة: 105).

وإذا كانت هذه الآية توحى بأن رضا المؤمنين من رضا الله، فإن مقتهم أيضاً من مقت الله سبحانه: (كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا) (غافر: 35).

إن هذه المعاني الكبيرة، والمشاعر الرفيعة، إذا سرت في كيان فرد، جعلت منه إنساناً عزيزاً كريماً، كبير النفس، كبير الآمال، إنساناً لا يحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيان أو مال أو جاه. إن شعاره هذه الكلمة: "سيد في الكون، عبد الله وحده". لا عجب بعد هذا، إذا رأينا عبداً أسود كبلال بن رباح، حين يشرب قلبه الإيمان، يتيه على "السادة" المتكبرين فخراً، ويرفع رأسه عالياً، فقد صار بالإيمان أرفع عند الله ذكراً، وأسمى مقاماً، ينظر إلى أمية بن خلف وأبي جهل ابن هشام وغيرهما من زعماء قريش وصناديد مكة، نظرة البصير للأعمى، نظرة السائر في النور إلى المتخبط في الدجى: (أَوَ مِنْ كَانَ مِينًا فَاحْيِينَا وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ، كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟) (الأنعام: 122) (أفمن يمشي مكياً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم) (الملك: 22). ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا أعرابياً أمياً من البداة الجفاة، مثل ربعي ابن عامر حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام، وأضاعت فكره آيات القرآن، يقف أمام رستم قائد قواد الفرس، وهو في هيله وهيلمانه، وأبهته وسلطانه، غير مكترث له: ولا عابى به، وبما حوله من خدم وحشم، وما يتوهج بجواره من فضة وذهب، حتى إذا سألته رستم: من أنتم؟ أجابه هذا الأعرابي في عزة مؤمنة، وإيمان عزيز، إجابة خلدها التاريخ، وقال: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولا عجب أن نقرأ لشاعر مؤمن يناجي ربه في عبودية عزيزة بالله، متذلة إليه، غنية بالله، فقيرة إليه، قائلاً

ومما زادني شرفاً وعزاً  
وكدت بأخمصي أطأ الثريا  
دخولي تحت قولك «يا عبادي»  
وإن أرسلت أحمد لي نبياً!

#### بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للإنسان

إن اعتقاد الإنسان بكرامته على الله، ومكانته في الملأ الأعلى، ومركزه القيادي في هذا الكون، يشعر بذاته، ويغالي بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلى الله، وارتباطه بكل ما في الوجود، فيحيا عزيز النفس، عالي الرأس، ألباً للضيم، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ. وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة، إنه كسب كبير ومغرم ضخم للإنسان، كسب له في عالم الشعور والتصور وفي عالم الواقع والسلوك..

وما أعظم الفرق بين رجلين: يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه إنه مجرد (حيوان) من فصيلة راقية ليس له قبل حياته جذور، وليس له بعد موته امتداد، وليس له في حياته صلة بالوجود الكبير أكثر من صلة القروء به. ويعيش الآخر يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ونائبه في إقامة الحق وإفاضة الحب وإشاعة الجمال في هذا الكون! ويشعر بأن الكون كله في خدمته، والملائكة الكرام في حراسته، وأن رب الوجود في معيته، وأنه من فصيلة

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن وجوده لا ينتهي بالموت وداره لا تنتهي بالقيـر، فإتما خلق للخلود وللايد الذي لا ينقطع ولا يزول.

إن هذا الشعور الأصيل الذي بلغ حد الاعتقاد واليقين بمنزلة الإنسان في الكون هو أحد النقاط الرئيسية التي تخالف فيها عقيدة الإسلام للتفكير المادي الذي يسود حضارة الغرب اليوم في النظرة إلى الإنسان.

إن المغايرة بين النظرتين تتمثل في أمور جوهرية ثلاثة:

1. في منزلة الإنسان في هذا الكون.

2. وفي طبيعته التي فطر عليها.

3. وفي غايته ووظيفته في هذه الحياة.

### منزلة الإنسان

فالعقيدة الإسلامية قد حددت منزلة الإنسان في هذا الكون منذ قال الله تعالى للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة) (البقرة: 30) كما نكرنا من قبل، فهو نوع منفرد من مخلوقات الله ليس بجماـد ولا نبات ولا حيوان، ولا بملاك ولا بشيطان، إنه مخلوق مكرم فريد مسؤول، لا يقوم وحده في هذا العالم كما زعم بعض الملحدين، بل يقوم بإرادة رب أوجده وقدره. إله خلقه في أحسن تقويم، وعلمه البيان ووهب له السمع والبصر والفؤاد، ليس الإنسان عبداً ولا مقهوراً لشيء في هذا الكون، إلا إنه عبد الله وحده.

هذا في عقيدة الإسلام، أما النظرة المادية فلم تنتظر للإنسان على أنه مخلوق كريم أوجده خالق عظيم. كلا، بل هو نبات (شيطاني) برز من العدم إلى الوجود وحده، ويعيش وحده، ويموت وحده، وبموته تختم روايته كلها.

إنه باختصار حيوان قد يقال عنه "حيوان راق" أو "حيوان اجتماعي" أو "حيوان متطور" ولكنه على كل حال "حيوان" .. بيد أنه بواسطة العلم التجريبي استطاع أن «يقهر» الطبيعة ويسيطر على المادة، وبذلك العلم أصبح هذا الحيوان المتطور، ينظر إلى نفسه وكأنه إله يتصرف في الأرض كما يشاء. ويظن أنه قادر عليها.

إن هذه النظرة المادية للإنسان، أنتجت شعورين مختلفين:

أولهما: شعور الإنسان بالتفاهة والضياع ونظرتة إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة.

والثاني: شعور الغرور والكبر، ذلك الشعور الذي ينتهي بالإنسان إلى حد تأليه نفسه حين يسقط وجود الإله الحق من اعتباره. ويتصرف وكأنه إله لا يسئل عما يفعل، كما زعم جوليان هكسلي (في كتابه "الإنسان في العالم الحديث" ترجمة حسن خطاب هي 224) حين قال: "إن الإنسان في العالم الحديث أصبح هو الله المنشئ المريد"!!!

ولما بدأ الإنسان في هذا القرن يفيق من سكرة غروره بالتقدم العلمي والانقلاب الصناعي والازدهار المادي بدأ يحس بأزمة نفسه باعتباره إنساناً متميزاً، كما رأينا ذلك في كتابات النقاد منهم. مثل "أليكس كاريل" في كتابه "الإنسان.. ذلك المجهول"، و"شينجلر في كتابه: "تدهور الحضارة الغربية" و"توينبي" و"رينيه جينو" و"كولن ولسون" وغيرهم.

### طبيعة الإنسان

أما طبيعة الإنسان فهي من أخطر المزالق التي تزل فيها الأقدام، وتضل فيها الأفهام، عند النظرة إلى الإنسان، نظراً للازدواج والتعقيد في طبيعته التي ركب عليها، فليس هو شهوة خالصة، ولا عقلاً خالصاً، وليس هو جسماً محضاً، ولا روحاً محضاً، إن تكوينه يشمل الجانبين معاً. يقول البروفيسور "سيشوت" العالم الأمريكي والأستاذ بجامعة "ييل" في كتابه «حياة الروح»:

"مسألة حيرت ألباب العلماء منذ عصور موعلة في القدم، وهي طبيعة الإنسان المزدوجة الغربية، فالجانب المادي منه -وهو جسده- يحيا وينمو ثم يموت، ولكن شيئاً لا تدركه الحواس يبدو إنه يحكم هذا الجسد، وفي مقدور هذا الشيء أن يشعر وأن يفكر. إنه ذلك الجانب الذي تتركز فيه خلاصة كيانه.

فالإنسان يبدو وكأنه كائنان: كائن مادي وكأنه آخر يقابله غير مادي، ترى هل كل منهما حقيقي؟ أم أن أحدهما لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام؟! والضلال والانحراف في فهم الإنسان، وتصور حقيقته، إنما جاء نتيجة لإهمال أحد هذين العنصرين في كيانه، أو نتيجة للفصل بينهما، واعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر".

والإسلام قد عرف طبيعة الإنسان حق معرفتها، وقدرها حق قدرها، لأن الإسلام كلمة الله، والإنسان خلق الله، وخالق الشيء وصانعه لا يجهل طبيعته وكنهه: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟) (الملك: 14).

وقد خلق الله هذا الإنسان جسماً كثيفاً، وروحاً شفافاً. جسماً يشده إلى الأرض، وروحاً يتطلع إلى السماء. جسماً له دوافعه وشهواته، وروحاً له آفاقه وتطلعاته. جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة.

هذه الطبيعة المزدوجة ليست أمراً طارئاً على الإنسان، ولا ثانوياً فيه، بل هي فطرته التي فطره الله عليها، وأهله بها للخلافة في الأرض، منذ خلق آدم خلقاً جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح: (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم \* الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين \* ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين \* ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون) (السجدة: 6 - 9).

وجاءت عقيدة الإسلام، فلم تغفل الروح من أجل الطين، ولم تغفل الطين من أجل الروح. بل زاجت بينهما في وحدة متسقة ملتزمة، وأعطت الروح حقه، والجسد حقه، في غير إفراط ولا تفريط.

وعرف التاريخ أدياناً ونحلاً تقوم فلسفتها على إغفال الجانب المادي الجسدي في الإنسان، والعمل على تعذيبه وإضعافه، لينمو الجانب الروحي فيه، ويصفو ويقوى كالبرهمية الهندية، في الرهبانية المسيحية.

وفي مقابل هذا الاتجاه جاء الاتجاه المادي الذي يجحد أن في الإنسان روحاً أو أن في الكون إلهاً، إذ لا يؤمن إلا بما هو مادي تدركه الحواس، وتحكمه التجربة.

وبهذا عاش الإنسان عند هؤلاء نصف إنسان، بل أدنى، عاش للجزء الحيواني فيه فحسب.

### غاية الإنسان

وأما غاية الإنسان ومهمته في الحياة فقد بينتها عقيدة الإسلام أوضح البنيان، فالإنسان لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدى، وإنما خلق لغاية وحكمة. لم يخلق لنفسه، ولم يخلق ليكون عبداً لعنصر من عناصر الكون، ولم يخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام، ولم يخلق ليعيش هذه السنين التي تقصر أو تطول، ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ويطويه العدم.

إنه خلق ليعرف الله ويعبده، ويكون خليفة في أرضه، خلق ليحمل الأمانة الكبرى في هذه الحياة القصيرة: أمانة التكليف والمسئولية، فيصهره الابتلاء وتصقله التكليف، وبذلك ينضج ويدل حياة أخرى هي حياة الخلود والبقاء والأبد الذي لا ينقطع.

إنه لنبا عظيم حقاً أن يكون هذا الإنسان لم يخلق لنفسه، وإنما خلق لعبادة الله، ولم يخلق لهذه الدنيا الصغيرة الفانية، وإنما خلق للحياة الخالدة الباقية، خلق للابد!

يقولون : إن الأحقق يعيش لبأكل والعافل يأكل ليعيش.

وهذا القول لا يحل العقدة، فإن العيش نفسه ليس غاية، فالسؤال لا يزال قائماً: ولماذا يعيش الإنسان؟

أما الماديون فقالوا: إنه يعيش لنفسه ومتاع دنياه.

وأما المؤمنون فقالوا: إنما يعيش لربه الأعلى، ولحياته الباقية الأخرى: (أفحسبتم أنما خلقتكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون \* فتعالى الله الملك الحق) (المؤمنون: 115، 116).

وما أعظم الفرق بين الذي يعيش لنفسه والذي يعيش لربه، بين من يعيش لدنياه المحدودة، ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان! إن النظرة المادية الملحمة لم تعرف للإنسان غاية، لأن الغاية تقتض قصداً والقصد يقتض قاصداً، وهي تنكر أن يكون الإنسان قد خلق قصداً، ولهذا فليس للإنسان في نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش وابتغاء تحسينه.

وبعبارة أخرى: وراء زينة الحياة الدنيا ومتاعها. لأكثر من ذلك، فإذا فنى العمر القصير للإنسان، فقد انتهى كل شيء في وجوده، وما أصدق قول القرآن (قل متاع الدنيا قليل) (النساء: 77).

وهو ليس متاعاً قليلاً فحسب؟ بل هو أيضاً متاع رخيص، متاع حقير، لأنه متاع حيواني محض، سخر بعض الأدباء من طلابه وعشاقه فقال: "من كانت غايته بطنه وفرجه فقيمه ما يخرج منهما".

وحسينا قول القرآن الكريم: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (محمد: 12).

إن النظرة المادية للإنسان تجعله يدور حول نفسه فقط، أي حول هواه وشهواته، حول جسده ومتطلباته. حول الجزء الحيواني فيه. وبذلك ينمو ويتضخم الجانب الحيواني المادي في الإنسان على حساب الجوانب الأخرى التي تضرر وتتكسر، أو تذبل وتموت.

ونمو الجانب المادي والحيواني في الإنسان بهذه السرعة والضخامة هو نمو خبيث، «نمو سرطاني» يقضي في النهاية إلى هلاك الإنسان كله. إنه لابد للإنسان من هدف يتطلع إليه غير نفسه وهواها، وإلا فإنه سيظل يدور حولها كالحمار في الرحا، أو الثور في الساقية، يدور ويدور والمكان الذي انتهى إليه هو الذي بدأ منه.

أو كما قال أحد الكتاب الغربيين في وصف «الوجوديين» الذين تدور فلسفتهم حول تحقيق الإنسان وجوده وذاته فحسب "إن الوجودي مثله كمثل الكلب الذي يجري دائماً حول نفسه ليمسك بذنبه، فلا هو يدرك ذنبه، ولا هو يقف عن الجري، وهي لعبة يلعبها الكلاب، حينما يجدون الفراغ، فيلهون بما لا نتيجة له".

وهذا التشبيه يذكرنا بالمثل الذي ضربه القرآن لكل من انسلخ من آيات الله، وأخلد إلى الأرض وأتبع هواه، قال تعالى: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناها آياتنا فاتسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين \* ولو شنأنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه، فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون \* ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون) (الأعراف: 175 - 177).

### الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

#### الفصل الثاني - الإيمان والسعادة

السعادة هي جنة الأحلام التي يشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده، إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته. ومن الملك في قصره المشيد، إلى الصعلوك في كوخه الصغير. ولا نحسب أحداً يبحث عن الشقاء لنفسه، أو يرضى بتعاستها.

- أين السعادة؟
- هل السعادة في العلم التجريبي؟
- هل السعادة في النعيم المادي؟
- هل السعادة في داخل الإنسان
- هل السعادة في الأولاد؟
- القدر المادي اللازم لتحقيق السعادة

#### أين السعادة؟

ولكن السؤال الذي حير الناس من قديم هو: أين السعادة؟

لقد طلبها الكثيرون في غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء، صفر اليدين، مجهود البدن، كسير النفس، خائب الرجاء! أجل .. جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية، فما وجدوها -وحدها- تحقق السعادة أبداً، وربما زادتهم -مع كل جديد منها- هماً جديداً.



## هل السعادة في النعيم المادي؟

لقد ظن ذلك قوم، فحسبوا السعادة في الغنى، وفي رخاء العيش، ووفرة النعيم، ورفاهية الحياة، لكن البلاد التي ارتفع فيها مستوى المعيشة، وتيسرت فيها لأبنائها مطالب الحياة المادية، من مأكّل ومشرب، وملبس ومسكن ومركب، مع كماليات كثيرة، لا تزال تشكو من تعاسة الحياة، وتحس بالضيق والانتقاص، وتبحث عن طريق آخر للسعادة.

نشر رئيس تحرير مجلة ( روز اليوسف )\_ وهي مجلة لا تنهم بالتحيز للمعنويات والقيم الروحية- تحقيقاً صحفياً في مقالين منذ سنوات جعل عنوانه: «أهل الجنة ليسوا سعداء» وأهل الجنة الذين يعينهم هم سكان السويد الذين يعيشون في مستوى اقتصادي يشبه الأحلام، ولا يكاد يوجد في حياتهم خوف من فقر أو شيخوخة أو بطالة أو أي كارثة من كوارث الحياة، فإن الدولة تضمن لكل فرد يصيبه شيء من ذلك إعانات دورية ضخمة، بحيث لا يجد مواطن مجالاً للشكوى من العوز أو الحاجة الاقتصادية بحال من الأحوال.

إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومي يساوي 521 جنياً مصرياً في العام أي حوالي 43 جنياً في الشهر الواحد. ووصل نظام الحكم الاشتراكي في السويد إلى ما يقارب محو الفروقات تماماً بين الطبقات، بفرض الضرائب التصاعدية، وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية، التي لا تجدها دول أخرى.

"أكل مواطن سويدي يستحق معاشاً، وإعانة مرض، ومعاش عدم صلاحية وإعانة غلاء معيشة، وإعانة للسكن، وإعانة للعلمي، تصرف نقداً، والعلاج المجاني في المستشفيات".

"تدفع إعانة أمومة لكل النساء، تشمل هذه الإعانة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى. وإعانة إضافية لكل مولود".  
"التأمين ضد إصابات العمل إجباري".

"شروط الإعانات في حالة البطالة هي أسنى شروط معروفة دولياً".

"تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة هي أقرب إلى الخيال. منها إعانة مالية قدرها 40 جنياً في العام للطفل حتى يبلغ 16 سنة. رعاية صحية مجانية. مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن 14 سنة، مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم".

"التعليم في جميع مراحل المجان مع تقديم إعانات ملابس، وإعانات معيشة لغير القادرين، وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى 250 جنياً للطلبة المجتهدين".

"تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصل إلى 300 جنياً بغائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات".

"إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات الاجتماعية وتدفع الدولة 80% منها في مساعدات نقدية، إن أضخم ميزانية هي ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية. ثم تليها ميزانية وزارة التربية".

ومع هذه الضمانات التي لم تدع ثغرة إلا سدتها - فقد ذكر الصحفي أن الناس يحيون حياة قلقة مضطربة، كلها ضيق وتوتر، وشكوى وسخط وتبرم وبأس. ونتيجة هذا أن يهجر الناس من هذه الحياة الشقية النكدية. عن طريق «الانتحار» الذي يلجأ إليه الألوف من الناس، تخلصاً مما يعاينونه من عذاب نفسي أليم.

وانتهى كاتب التحقيق إلى أن السر وراء هذا الشقاء يرجع إلى أمر واحد هو فقدان «الإيمان»، أي إيمان.

وأمرिका أغنى بلد في العالم، لم يحقق الغنى لأبنائه السعادة على الرغم من ناطحات السحاب، ومراكب الفضاء، وتدفق الذهب من فوق ومن تحت أرجلهم .. ورأينا من مفكرهم من يقول: "إن الحياة في نيويورك غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء".

وقد لاحظ هذه التعاسة وهذا الشقاء كل من له عين تبصر من أهل الشرق والغرب.

فمن أهل الشرق الشهيد العظيم "سيد قطب" الذي سجل ذلك في كتابه -الذي لم ينشر بعد- "أمريكا التي رأيت".

ومن أهل الغرب الأدبية الفرنسية فرانسواز ساجان التي زارت نيويورك مرتين ثم كتبت بعد ذلك كتاباً جاء فيه "إن نيويورك ثقيلة الوطأة على الإنسان" مدينة يبيض قلبها بسرعة أكبر من سرعة سكانها، والواقع أن الأزمة التي يعاينها سكان نيويورك أزمة عاطفية. إن الدم الفوار يجري في عضلات أولئك الأمريكيين المتعبين المنهوكي القوى العجولين. إنهم يريدون أن يقتصدوا في الوقت دون أن يعرفوا كيف ينفقون ذلك الوقت..".

وكذلك الأستاذ كولن ولسون الذي وصف عمران نيويورك وإزدهارها المادي، بأنه "غطاء جميل لحالة من التعاسة والشقاء". فكثر المال ليست هي السعادة، ولا العنصر الأول في تحقيقها، بل ربما كانت كثرة المال أحياناً وبالأعلى صاحبها في الدنيا قبل الآخرة، لذا قال الله في شأن قوم من المنافقين (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) (التوبة: 55) والعذاب هنا هو المشقة والنصب والألم والهلم والسقم، فهو عذاب دنيوي حاضر، على نحو ما ورد في الحديث "السفر قطعة من العذاب" وهذا ما نشاهده بأعيننا في كل من جعل المال والدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، ومنتهى أمله، فهو دائماً معذب النفس، متعب القلب، مثقل الروح، لا يقنيه قليل، ولا يشبعه كثير.

وفي الحديث الذي رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم، تصوير لهذه النفسية المعذبة قال: "من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأنته الدنيا وهي راحة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأتها من الدنيا إلا ما قدر له" (رواه الترمذي من حديث أنس، وروى ابن ماجه وغيره قريباً منه من حديث زيد بن ثابت).

ومن أبلغ العذاب في الدنيا كما قال ابن القيم- (في كتابه "إغاثة اللهفان") تشتيت الشمل وتفريق القلب، وكون الفقر نصب عينيه لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب .. على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه. ومن أنواع العذاب: عذاب القلب والبدن بتحمل أنكد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم، كما قال بعض السلف: "من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب" ومحب الدنيا لا ينفك عن ثلاث: هم لازم، وتعبد دائم، وحسرة لا تنقضي، وذلك أن محبها لا يتل منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه كما في الحديث: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالث". وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

هل السعادة في الأولاد؟

حقيقة إن الأولاد زهرة الحياة، وزينة الدنيا، ولكن كم من أولاد جروا على أبائهم الويل وجزوهم بالعقوق والكفران بدل البر والإحسان، بل كم من آباء ذاقوا حتفهم على يد أولادهم طمعاً في ثرواتهم، أو لوقوفهم في سبيل شهواتهم.

لقد وجدنا من الآباء من يقول لولده أسفاً أسياً:

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً	تعل بما أسدى إليك وتنهل
إذا ليلة تابتك بالشجو لم أبت	لبلوك إلا ساهراً أتململ
فلما بلغت السن والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أو مل
جعلت جزائي غلظة وفضافة	كأنك أنت المنعم المتفضل

وكم رأينا في الحياة صور غريبة، وسمعا أحاديث أغرب، عن عقوق الأبناء وتعاسة الآباء، وهذا ما جعل الآباء ما برحوا على مر العصور، يشدون شعرهم حقناً من جحود أبنائهم، حتى أن الملك "الير" صرخ -على لسان شكسبير- قائلاً: "ليس أشد إيلاماً من ناب حية رقطاع، غير ابن جحود".

وما جعل شاعراً في الشوق يصرخ ويقول:

أرى ولد الفتى ضرراً عليه	لقد سعد الذي أمسى عقيماً
فإمسا أن يرييه عدواً	وإمسا أن يخلفه يتيماً
وإمسا أن يوافيه حمام	فيترك حزنه أبداً مقيماً

ثم ما حيلة الذين حرّموا من الأولاد؟ أحكم عليهم بالشقاء المؤبد والتعاسة الدائمة.

هل السعادة في العلم التجريبي؟

نرى هل يستطيع العلم المادي التجريبي، الذي قرب للإنسان البعيد، وذلّل له الصعب، أن يحقق له السعادة؟

والحقيقة كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل (في كتابه "الإيمان والمعرفة والفلسفة") أن العلم قد كشف لنا عن كثير مما في الحياة، وأتاح لنا الاستمتاع بنعيمها إلى حد لم يكن يخطر بخيال أحد من قبل.

والحقيقة كذلك أن الظلم للمعرفة بعض طبائع الإنسان، فهو ما يكاد يقف على شيء ويكتنه بواطنه حتى تدفعه الطلعة لكي يقبل في هذه البواطن أو يبحث عن جديد لما يخضع لعلمه. لكن الحقيقة كذلك أن المعرفة لا تلقى سبباً للسعادة. بل إنها كثيراً ما تكون داعية قلق النفس، واضطراب خاطر. والسعادة هذا الحلم الجميل الطائر أمام أعيننا بأجنحة من نور، هذا الأثير المحس ننتسم في الجو ذراته، ونريد أن نستنشقها ملء صدورنا فلا نجد منها أبداً ما يكفيننا. السعادة هي ما يجري بنو الإنسان وراءه من عهد آدم إلى اليوم، يجرون وما يكاد أحدهم يحسب نفسه أدركها حتى يجذبه من خلفه شيطان الشقاء فيصده عنها، هذه السعادة ليست في العلم، لأن العلم شهوة، وليس من وراء شهوة سعادة، وكثيراً ما أكب علماء على العلم

فأفئوا فيه حياتهم حتى إذا كانوا عند خاتمة المطاف منها لذعتهم الحسرة، أن زادوا أنفسهم بعلمهم هما، فأوصوا أن ينشأ أبناؤهم في الإيمان وأن يرسلوا في الحياة على سجيبتهم، وآلا يطلبوا إلى العلم حل طلاسم الغيب.

فعلما وإن اتسع المدى ضيق إذا قيس إلى مدى الوجود الذي لا نهاية له، بذلك أوصى نيتشه وغير نيتشه من أكابر العلماء الذين أفئوا صدر شبابهم بأن العلم هاتك حجب الغيب لا محالة، حتى إذا رأوا حجب الغيب لا تنتهي ضعفوا، وخيل إليهم أنهم كانوا يسعون وراء سراب لا حقيقة له، وأن كانت غاية هذا السراب كل الحقيقة".

والفيلسوف البريطاني المعاصر "براتراند راسل" -رغم نظريته المادية- يقرر أن الإنسان في صراعه مع الطبيعة قد انتصر، بواسطة العلم. أما في صراعه مع نفسه، فلم يحرز نصراً، ولم يجده سلاح العلم، ويعترف بأن الدين لم يزل هو صاحب هذا الميدان.

ويقول الدكتور "هنري لثك" طبيب النفس الأمريكي الشهير، معارضاً للذين ينكرون الإيمان بالغيب، باسم العلم واحترام الفكر، مبيناً أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة:

"والواقع أنه يوجد الآن في كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يوجب شلعة ذلك الضلال، وأعني به تعظيم شأن الفكر، رفع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب، كفيل بهمد سعادة الإنسان، وإن لم يقوض دعائم نجاحه. ثم إن إمطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم إلا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس، واختباراتهم العلمية التي أجروها على الآلاف. وبقي أن أقول: إن الوصول إلى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين، والشخصية وفلسفة الحياة عموماً. فلن نهتدي إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة، ولن نهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها. فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراب التخبط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها، فلن تؤدي هذه العلوم إلى تحرير العقول التي ابتدعتها وابتكرتها، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعنفها. كما أن هذا التوحيد لابد أن يأتي عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعني به طريق الإيمان (العودة إلى الإيمان ص: 81، 82).

### السعادة في داخل الإنسان

السعادة إذن ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا في العلو المادي.

السعادة شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يشتري بالدينار، أو بالجنين أو الرويل أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه .. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانسراح صدر، وراحة ضمير.

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه.

حدثوا أن زوجاً غاضب زوجته فقال لها متوعداً: لأشقيتك. فقالت الزوجة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني، كما لا تملك أن تسعدني. فقال الزوج في حق: وكيف لا أستطيع؟

فكانت الزوجة في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينة من الحلي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون!

فقال الزوج في دهشة: وما هو؟

فكانت الزوجة في يقين: إنني أجد سعادة في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي! هذه هي السعادة الحققة، السعادة التي لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال: إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجادلونا عليها بالسيوف!

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التي تغمر جو انبه: إنه لتمر علي ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذن في عيش طيب!

والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وان برقت ورعدت، ويبتسمون للحياة وان هي كشرت عن نابها، ويفلسفون الألم، فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى. كأنما عندهم غدد روحية خاصة، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث الحياة إلى نعم.

#### القدر المادي اللازم لتحقيق السعادة

ولا نجد أن للجانب المادي مكاناً في تحقيق السعادة، كيف؟ وقد قال رسول الإسلام: "من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح" (رواه أحمد بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص).

بيد أنه ليس المكان الأول ولا الأفسح، والمدار فيه على الكيف لا على الكم، فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التي يضيق بها الصدر، من مثل: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء، وأن يمنح الأمن والعافية، ويتيسر له القوت في غير حرج ولا إغاثات. وما أصق وأروع الحديث النبوي "من أصبح آمناً في سربه، معافى في بنيه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها" (رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه).

وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، والقلب الإنساني، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها، وهواؤها وضيائها. لقد فجر الإيمان في قلب الإنسان ينباع للسعادة، لا يمكن أن تفيض، ولا أن تتحقق السعادة بغيرها. تلك هي ينباع السكينة، والأمن، والأمل، والرضا، والحب، وسنخص كلا منها بالحديث فيما يلي من الصفحات.

الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

الفصل الثالث - سكينة النفس

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم). (الفتح: 4)

- لا سعادة بلا سكينة
- لا سكينة بلا إيمان
- أسباب السكينة لدى المؤمن
- استجابة المؤمن لنداء الفطرة
- اهتداء المؤمن إلى سر وجوده
- نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك
- وضوح الغاية والطريق عند المؤمن
- أنس المؤمن بالوجود كله
- المؤمن يعيش في معية الله
- المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصديقين
- الصلاة والدعاء من بواعث السكينة
- المؤمن لا يعيش بين (لو) و (ليت)

#### لا سعادة بلا سكينة

منذ أعوام قرأت في مجلة «المختار» كلمة ناضرة لأحد الأطباء اللامعين في أمريكا، قال فيها:

"وضعت مرة وأنا شاب جدولاً لطيبات الحياة المعترف بها، فكتبت هذا البيان بالارغاب الدنيوية: الصحة، والحب، والموهبة، والقوة، والثراء، والشهرة، ثم تقدمت بها في زهو إلى شيخ حكيم.

فقال صديقي الشيخ: جدول بدیع، وهو موضوع على ترتيب لا بأس به، ولكن يبدو لي أنك أغفلت العنصر المهم الذي يعود جدولك بدونه عبثاً لا يطاق، وضرب بالقلم على الجدول كله، وكتب كلمتي: "سكينة للنفس" وقال: هذه هي الهبة التي يدخرها الله لأصفيائه، وإنه ليعطي الكثيرين الذكاء والصحة، والمال مبتذل، وليست الشهرة بنادرة، أما سكينة القلب، فإنه يمنحها بقدر.

وقال على سبيل الإيضاح: ليس هذا برأي خاص لي، فما أنا إلا ناقل من المزامير، ومن أوريليوس، ومن لادنس، هؤلاء الحكماء يقولون: خل يا رب نعم الحياة الدنيا تحت أقدام الحمقى، وأعطني قلباً غير مضطرب!

وقد وجدت يومئذ أن من الصعب أن أتقبل هذا، ولكن الآن بعد نصف قرن من التجربة الخاصة، والملاحظة الدقيقة، أصبحت أدرك أن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وأنا أعرف الآن أن جملة المزايا الأخرى ليس من الضروري أن تفيد المرء السكينة، وقد رأيت هذه السكينة تزهر بغير عون من المال، بل بغير مدد من الصحة، وفي طاقة السكينة أن تحول الكوخ إلى قصر رحب، أما الحرمان منها فإنه يحيل قصر الملك قفصاً وسجنًا" أ. هـ.

هذا كلام رجل يعيش في أمريكا بلد الرفاهية والغنى، بلد الذهب والعلم، بلد الحرية والانطلاق. قاله الرجل بعد ممارسة وتجربة وخبرة بالحياة، فلم يجد في الحياة نعمة أعلى ولا أفضل ولا أيمن من سكينة النفس، وطمأنينة القلب. وهو كلام حكيم نسجله وننتفع به. والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

## لا سكينه بلا إيمان

سكينه النفس -بلا ريب- هي الينبوع الأول للسعادة، ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شينا لا يثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة والقوة، ولا المال والغنى، ولا الشهرة والجاه، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية؟

إننا نجيب مطمئنين: أن للسكينه مصدراً واحداً لا شريك له، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق، الذي لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق.

هذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف، في نفسه وفيمن حوله.

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً وضيقاً واضطراباً، وشعوراً بالتفاهة والضياح هم المحرومون من نعمة الإيمان، ويرد اليقين. إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت بالللذائذ والمرقعات، لأنهم لا يدركون لها معنى، ولا يعرفون لها هدفاً، ولا يفقهون لها سراً، فكيف يظفرون مع هذا بسكينه نفس، أو انشراح صدر؟

إن هذه السكينه ثمره من ثمار دوحه الإيمان، وشجرة التوحيد الطيبه، التي تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

فهي نفحة من السماء ينزلها الله على قلوب المؤمنين من أهل الأرض، ليثبتوا إذا اضطرب الناس، ويرضوا إذا سخط الناس، ويوقنوا إذا شك الناس، ويصبروا إذا جزع الناس، ويحلموا إذا طاش الناس.

هذه السكينه هي التي عمرت قلب رسول الله يوم الهجرة، فلم يره هم ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق (فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين، إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا) (التوبة : 40). لقد غلبت على صاحبه الصديق مشاعر الحزن والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على الرسول، وعلى مصير الرسالة، حتى قال والأعداء محدقون بالغار: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا! فيقول الرسول مثبتاً قواده: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"؟! هذه السكينه روح من الله، ونور، يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، ويتسلى به الحزين، ويستروح به المتعب، ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران.

هذه السكينه نافذة على الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده: منها تهب عليهم نسمااتها، وتشرق عليهم أنوارها، ويفوح شذاها وعطرها، ليذيقهم بعض ما قدموا من خير، ويريههم نموذجاً صغيراً لما ينتظرهم من نعيم، فينعوا من هذه النسمات بالروح والريحان، والسلام والأمان.

## أسباب السكينه لدى المؤمن

قد يسأل سائل: لماذا كان المؤمن أولى الناس بسكينه النفس، وطمانينه القلب؟ ولماذا لا يجد الإنسان السكينه في العلم والثقافة والفلسفه، وفيما أنتجه التقدم العلمي من وسائل وأدوات يسر العيش وجملت الحياة؟

والجواب عن ذلك: يحوجنا إلى شيء من البسط والتفصيل، لبيان الأسباب والسنن النفسية التي جعلت المؤمن -دون غيره- أحق الناس بالسكينة والاطمئنان.

واليك البيان:

### استجابة المؤمن لنداء الفطرة

إن أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه قد هدى إلى فطرته التي فطره الله عليها، وهي فطرة متسقة كل الاتساق مع فطرة الوجود الكبير كله. فعاش المؤمن مع فطرته في سلام وونام، لا في حرب وخصام.

إن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ولا ثقافة ولا فلسفة، وإنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظما، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظما، وتأمين من خوف. هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه.

فألقت عصاها وأستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فإذا لم يجد الإنسان ربه -وهو أقرب إليه من حبل الوريد- فما أشقى حياته، وما أتعب حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة ... لن يجد نفسه ذاتها. (كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (الحشر: 19). فتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله -فوق ذلك- "دكتور" كبير في العلوم والآداب!

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حجب عنها بالغرور والكبر؟ أو شغل عنها باتباع الشهوات، والإخلاق إلى الأرض، والفرق في لاذن الحس، ومطالب الجسد والطين؟

إن الإنسان خلق عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسي نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبت الأرض. ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بفس الفطرة الإنسانية حقها، وجعل قدرها، وحرّمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم (في كتابه «مدارج السالكين») - رحمه الله:



"في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأتس بالله.

وفيه حزن لا يذهب إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً".

وهذا ليس كلام فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خيره وأحسن به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصلية التي لا تجد سكينتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه.

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) (العنكبوت: 61). وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور).

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدا الشبهات أو غبار الشهوات. وقد تتحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسلطة والكبراء. وقد يصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله!! بيد أن هذه الفطرة الأصلية تدبّل ولا تموت، وتكمن ولا تزول. فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعياً ربه، منيباً إليه، كما قال تعالى: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) (الإسراء: 67).

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بالله، حتى قال أحد كبار المؤرخين: "لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد". والاحتراف الكبير الذي أصاب البشرية في تاريخها الطويل، لم يكن بانكار وجود الله والعبودية له، إنما كان بتوجيه العبادة لغيره، أو إشراك آلهة أخرى معه من مخلوقات الأرض أو السماء.

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعمار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل: 36) (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب في سورة الأعراف الآيات: 59، 65، 73، 85، وقد تكرر معناه في عدة سور).

ومن هنا عنى كتاب الله الخالد - القرآن الكريم غي الدرجة الأولى- بالدعوة إلى توحيد الله، وإفراده بالعبادة، والاستعانة والتوكل والإنابة. لا بإثبات وجوده سبحانه، فإن هذا الوجود -على وجه عام- مسلم به ومفروق منه، ولا يجادل فيه إلا قلة مغمورة في كل عصر، لا يقام لها وزن. ولا تسمع لها دعوى.

ولقد قرأت لبعض الملاحدة الذين اشتهروا بالشك في الدين والتشكيك فيه، كلمات عجيبة، يطالب فيها قراءه ألا يصدقوه إذا كتب هو نفسه ويقلمه ما ينفي عنه الإيمان، أو يخلع عليه الإلحاد.

يقول: "لو أردت من نفسي وعقلي أن يشكا لما استطاع، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت. ولو أنني نفيت إيماني بالقول لما صدقت أقوالي، فشعوري أقوى من كل أقوالي! ماذا لو أن إنساناً قال: إنه لا يحب نفسه أو لا يحب الحياة، فهل تصدقه؛ أو هل يصدق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو إحساننا بها بالكلام؟ إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ. كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأنيان من الحقائق القوية التي لا يمكن أن تضعفها أو تشكك فيها الكلمات التي قد تجيء غامضة أو عاجزة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها.

إن إيماني يساوي: أنا موجود إذن أنا مؤمن -أنا أفكر إذن أنا مؤمن- أنا إنسان إذن أنا مؤمن!"

والذي قال هذه الكلمات سود بعدها صفحات كثيرة كلها كفر وشك وضلال بعيد. ولكن هذا الاعتراف الذي سجله بهذه الصراحة وبهذه القوة، يدل على أن الإيمان كما قلنا- فطرة أصيلة لا تقاوم ولا تهزم.

والذي يعيننا هنا أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش من غير إيمان، ولا أن يحيا من غير إله يعظمه ويقدسه، ويخافه ويرجوه، ويعبده ويتوكل عليه. وإن لم يسم معبوده لها، ولم يسم الخضوع له عبادة.

وإني آسى أشد الأسى لأولئك المساكين الذين صادروا فطرتهم وغلظ حجابهم، وأظلمت قلوبهم فلم تنفذ إليها أشعة الإيمان. أولئك الأشقياء المظموسين الذين يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إني آسى لهؤلاء مرتين:

آسى لهم لأنهم دخلوا الحياة ثم خرجوا منها، ولم ينعموا بأطيب ما فيها وأعظم ما فيها وهو الإيمان.

إنهم يؤساء محرومون حقاً. إن الناس يقولون عن الإنسان إذا فاته شيء مهم من مسرات الدنيا: ضاع نصف عمره. فكيف بمن فاته روح الحياة، وحياة الروح؟ كيف بمن حرم قلبه بشاشة الإيمان؟

لقد خسر المساكين أنفسهم، خسروا وجودهم، خسروا الحياة وما بعد الحياة، خسروا الخلود، خسروا كل شيء، لأنهم خسروا الإيمان، وما أصدق ما ورد في بعض الآثار الإلهية عن الله تعالى أنه يقول لعبده: "عدي اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتفك كل شيء". ورحم الله العبد الصالح الذي قال: "إلهي ماذا وجد من فقدك؟! وماذا فقد من وجدك؟! لقد خاب من رضي دنوك بدلاً، وخسر من بغى عنك حولا". ثم آسى لهؤلاء الملاحدة المحرومين مرة أخرى، حين أراهم خلعوا رداء العبودية لله، فوقعوا في العبودية لغير الله.

لقد ظن هؤلاء في أنفسهم، وزعموا لغيرهم، أنهم "تحرروا" من كل عبودية، وأنهم نبذوا الخضوع للإله نذب النواة، وأطرحوا الإيمان بالرب وراء الظهور.

وكنبوا. فالواقع أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، استبدلوا بالعبودية للخالق، العبودية للمخلوق، واستبدلوا بالإله الواحد آلهة شتى، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

فلا واحد منهم إلا وهو عبد لأكثر من سيد، وخاضع لأكثر من إله، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع.

أين هذا من المؤمن الذي رفض كل الآلهة الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام من قلبه، ورضي بالله وحده رباً، عليه يتوكل، وإليه ينيب، وبه يعتصم، وإليه يحتكم، فلا يبغي غير الله رباً، ولا يتخذ غير الله ولياً، ولا يبتغي غير الله حكماً؟

قلت شعري أي الفريقين خير مقاماً، وأهدى سبيلاً، من عرف الله فلم ينحن لأحد سواه، أم من جدد الله فصار عبداً لأكثر من إله؟ (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟) (يوسف: 39) (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون، ورجلاً مسلماً لرجل، هل يستويان مثلاً؟ الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون) (الزمر: 29).

تمثل الآلة المشرك بعدد يملكه أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون، كل يريد منه غير ما يريد الآخر، ويوجهه إلى غير وجهته، فهو حائر معذب بين إرضاء هذا وذاك.

أما المؤمن فتمثله مثل عبد خالص لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يرضيه، وكيف يرضيه. وإذا كانت الآلة في شأن المشرك والموحد، فقد أثبت الواقع أن كل ملحد مشرك، وإن كان الفرق أن المشركين يعبدون مع الله آلهة أخرى والملحدون يعبدون من دون الله آلهة شتى.

#### اهتداء المؤمن إلى سر وجوده

إن في أعماق كل إنسان أصواتاً خفية تناديه، وأسئلة تلح عليه منتظرة الجواب الذي يذهب به القلق، وتطمئن به النفس. ما العالم؟ ما الإنسان؟ من أين جاء؟ من صنعهما؟ من يديرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدأ؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ أي مستقبل ننتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟

هذه الأسئلة التي ألحت على الإنسان من يوم خلق، وستظل تلح عليه إلى أن تطوى صفحة الحياة، لم تجد -ولن تجد- لها أجوبة شافية إلا في الدين.

الدين وحده هو الذي يحل عقدة الوجود الكبرى، وهو المرجع الوحيد الذي يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضي الفطرة، ويشفي الصدور. والإسلام خاصة- خير دين أجاب عن هذه الأسئلة إجابة شافية، ترضي الفطرة النيرة، والعقل السليم، بل إجابة تنبع من أعماقهما، بل أعلن القرآن أن هذا الدين هو الفطرة الأصلية نفسها: (فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها) (الروم: 30) فلو تركت الفطرة الإنسانية ونفسها

بلا مؤثر خارجي، لانتهت إلى الإسلام نفسه. في هذا جاء الحديث الصحيح عن رسول الإسلام "كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه".

تقول الفطرة والعقل: إن الناس لم يخلقوا من غير شيء، ولم يخلقوا هم أنفسهم، ولم يخلقوا مما حولهم: ذرة في الأرض أو السماء، ويقول القرآن: (أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ \* أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ) (الطور: 35، 36).

وتقول الفطرة والعقل: لا بد -إذن- من خالق لهذا الإنسان العجيب ولهذا الكون العريض، ولا بد أن يكون هذا الخالق واسع العلم، بالغ الحكمة، نافذ المشيئة، عظيم القدرة. ويقول القرآن: (ذُكِرَ اللَّهُ بِكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ \* كَذَلِكَ يُؤْفَكُوا الَّذِينَ كَانُوا يَجْحَدُونَ \* اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ وَصَوَّرَكُمْ فَاحْصَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، ذُكِرَ اللَّهُ بِكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (غافر: 62 - 64).

وتقول الفطرة والعقل: إن هذا الخالق الحكيم لا بد أن يكون وراء تنظيمه لهذا الكون، ووضع الإنسان فيه غاية وحكمة، وتعالى حكمته أن يكون خلق هذا كله عبثاً. ويقول القرآن: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الدخان: 38، 39).

وهذا الحق الذي به خلقت السموات والأرض هو ما يستشفه العقل، وتحس به الفطرة -وإن يكن إحساساً غامضاً- أن لهذا الإنسان في الوجود رسالة، وأن وراء هذه الحياة حياة الابتلاء والفناء. حياة أخرى، هي الغاية وإليها المنتهى، يجزى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، حتى لا يستوي الخبيث والطيب، والبر والفاجر، وهذا ما تقتضيه الحكمة. ويقول القرآن: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُوقِلُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ \* أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟) (سورة ص: 27، 28). (أفحسبتم أنما خلقتكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) (المؤمنون: 115).

وتشعر الفطرة والعقل أن لهذا الخالق العظيم -بحكم خلقه لعباده، وإمدادهم بنعم لا تحصى- حقاً عليهم: أن يعرف فلا يجحد، ويشكر فلا يكفر، ويطاع فلا يعصى، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به. وينادي القرآن الناس جميعاً: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 21، 22).

ويبين القرآن الغاية من خلق السموات والأرض عامة، ومن خلق الجن والإنس خاصة، فيقول: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق: 12). (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون \* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) (الذاريات: 56، 57).

بهذه الأجوبة القرآنية اهتدى المؤمن إلى سر وجوده، ووجود العالم كله. لقد عرف الله فعرف به كل شيء، وحل به كل لغز، واهتدى به إلى كل خير. فالعالم مملكة الله، وكل ما فيه من آثار رحمة الله، والإنسان خليفة الله، خلق لعبادة الله، وتحمل أمانة الله، والحياة هبة من الله، والموت قدر من الله، والدنيا مزرعة لطاعة الله، والآخرة موعد الحصاد والجزاء من الله. والسعيد من اهتدى بهدى الله، والشقي من أعرض عن ذكر الله.

والإنسان مبتلى ومسئول في هذه الدار الفانية، ليصقل ويعد للخلود في تلك الدار الباقية، والموت هو القطرة التي تصل ما بين الدارين. إن الذي أفنى الفلاسفة فيه أعمارهم، وأذابوا فيه شموع حياتهم، دون إن يجنوا ثمرة تشبع جوعهم الفكري، قد حصله المؤمن في دعة وهذوء.

فعرّف: من أين جاء؟ ولم جاء؟ وإلى أين يذهب؟ ولم يحيا؟ ولم يموت؟ وماذا ينتظره هناك؟ عرف ذلك من مصدره الذي لا يضل ولا ينسى، من وحي الله عز وجل. ومن عرف حقيقة الوجود من رب الوجود، فقد هدي إلى صراط مستقيم.

حضرت الوفاة بعض الملاحدة من الفلاسفة المتشككين، فهالته الموت وما بعده. فأتشد يقول:

لعمرك ما أدري -وقد أذن البلى  
بمعاجل ترحالي- إلى أين ترحالي؟  
وأين محل الروح بعد خروجه  
عن الهيكل المنحل، والجسد البالي؟

وبلغ ذلك بعض الصالحين، فقال:

وما علينا من جهله؟ إذا كان لا يدري إلى أين ترحاله؟ فنحن ندري إلى أين ترحالنا وترحاله، قال تعالى: (إن الأبرار لفي نعيم \* وإن الفجار لفي جحيم) (الانفطار: 13، 14).

لقد جاء الدين بما يكمل الفطرة، ويأخذ بيد العقل، ولم يجيء بما يصادم الفطرة أو يناقض العقل.

ما أحسنت به الفطرة في غموض، جاء الدين فبينه أحسن بيان وأتمه، وما اهتدى إليه من العقل في إجمال واشتباه جاء الدين ففصله أحسن التفصيل، ومحا عنه الاشتباه، ونفى أوهام العقل، وأغاليط الحس، ووضح الغاية ورسم الطريق.

والفطرة ليست تفكيراً خالصاً، ولا شعوراً محضاً، إنها مزيج من التفكير والشعور، والدين قد جاء يخاطب الفطرة كلها. يخاطب التفكير والشعور معاً. يخاطب العقل والقلب جميعاً. والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كلية واضحة تفسر هذا الوجود، وتحل ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدوده واختصاصه، وأهملوا جانباً هاماً في الفطرة الإنسانية هو جانب الشعور والوجدان، جانب القلب كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً ما كان أحوجهم إليه، وما أضل سعيهم بغيره. هو باب الوحي.

إن العقل -مهما أوتي من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج- محدود بحدود الطاقة البشرية، مقيد بقيود المكان والزمان والوراثة والبيئة، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين، يسدده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضل، ويرده إلى الصواب إذا شرد، وهذا السند هو الوحي، الذي هو أساس الدين.

إن الوحي قد أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدد طاقته دون الظفر بما يشبع ويغني، وأعفاه من تجشم رحلات طويلة وشاقة، والسير في دروب معتمة وملتوية، لا يدري إلا متى تنتهي به؟ وقدم له ما ينبغي أن يعلمه -وما يستطيعه- عن مبدأ الوجود ومنتهاه، وعلته وأساره، قدمها إليه خالصة سائغة، سالمة من جدل المجادلين، وتعمقات المتفلسفين، وتخرصات المتكلمين.

وليت شعري ما الذي يستطيع أن يعلمه الإنسان عن وجوده هو، وعن وجود العالم الكبير من حوله، وعن صاحب هذا الملك الكبير -سبحاته- لو مشى في الطريق وحده، دون دليل من وحي الله؟

إنه سيضرب في بدياء لا يعرف فيها طريقاً، ولا يجد فيها غير السراب يحسبه ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ويسبح في بحار من الظلمات لا يهتدي فيها إلى بر ولا قرار، كالتّي حدثنا الله عنها في كتابه: (أو كظلمات في بحر لجي يشاءه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) (التور: 40). أجل حاول كثير من المفكرين في القديم والحديث أن يحلوا ألغاز الوجود، ويظفروا بظلمات النفس عن طريق الفلسفة البشرية بعيداً عن هدى الله، ووحى السماء، فأفلسوا وعجزوا.

قال الفخر الرازي (في كتابه "أقسام الذات") بعد أن حصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، وطاف بدائرة المعارف الفلسفية والكلامية لعصره: "لقد تأملت الكتب الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتهما تروي غليلاً. ولا تشفي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن .. ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي".

وعبر بعضهم عن صرعى الفلسفة والتفلسف فقال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها      وسرحت طرفي بين تلك المعالم  
فلم أر واضعاً كف حائسر      على ذقن أو قارعاً سن نادم

وتمنى أحدهم في آخر عمره: لو رزق إيماناً كابيمان العجائز! حتى إيمان العجائز لم يظفر به المتفلسفون.

وهكذا أفلست الفلسفات البشرية أن تمنح القلب الإنساني ظمائنته التي هي أول عنصر لسعادته، ومحال أن يسعد إنسان يؤرق الشك ليله، ويكدر القلب نهاره.

وعرف المنصفون أن أهدى السبل وأقربها وأمنها للظفر بالظمائية إنما هو سبل الوحي الإلهي المعصوم. إنه «المصل الواقعي» من الشك المحطم، والقلق المغزع (فاستمسك بالذي أوحى إليك، إنك على صراط مستقيم) (الزخرف: 43). (فتوكل على الله، إنك على الحق المبين) (النمل: 79).

والحق المبين هو الذي اتضحت أعلامه واستبان طريقه، وزال عنه الغموض واللبس والاختلاف والريب.

وشعور الإنسان واعتقاده أنه (على الحق المبين) وأنه (على صراط مستقيم) شعور لا يظفر به غير المؤمن بوحى الله وهده.

أما الذي شرد من هدى الله ورسالاته، فهو (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران، له أصحاب يدعونه إلى الهدى: انتنا، قل: إن هدى الله هو الهدى) (الأنعام: 71).

إن الوحي وحده هو السبيل الفذة للوصول إلى اليقين في قضايا الوجود الكبرى. وبغير الوحي لن يكون يقين، وبغير اليقين لن تكون سكينه، وبغير السكينه لن تكون سعادة.

بالوحي يبلغ المؤمن درجة علم اليقين، وقد يرتقى روحه ويشف ويرف حتى يشارف عين اليقين أو حق اليقين.

وفي هذا قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً! ذلك لأنه آمن بما أخبر به الوحي إيماناً تجلت به حقائق الوجود لعين قلبه، كأنه يراها بعيني رأسه، ويشهدها حاضرة ظاهرة، كالشمس في الضحى، ليس دونها سحب ولا ضباب.

قال بعض السلف: "رأيت الجنة والنار حقيقة".

قيل له: وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا؟

قال: "أراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيتهما بعينه، ورؤيتي لهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر عندي من رؤيتهما بعيني، فإن بصري قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى، أما بصر الرسول فما زاغ وما طغى".

### نجاة المؤمن من عذاب الحيرة والشك

وبهذا الإيمان البسيط العميق الذي جاء به الوحي، وأيده العقل، واقتضته الفطرة، وشهد له كل سطر، بل كل كلمة في كتاب الوجود المفتوح - سلم المؤمن من الشك والاضطراب، واستراح من البلبلة والحيرة، الذهنية والنفسية، التي يتجرع غصصها الجاحدون المرتابون. بهذا الإيمان الواضح المريح، حل المؤمن ألغاز الوجود الكبرى، حين عرف مبدأ ومصيره، وغايته ومهمته، بل عرف مبدأ الوجود كله ومنتهاه وغايته وهدفه. فاتحلت عقد الشك من نفسه، وزالت علامات الاستفهام الكبيرة من حياته.

لقد عرف أن له ربا - هو رب كل شيء - هو الذي خلقه فسواه، وكرمه وفضله، وجعله في الأرض خليفة، وكفل له رزقه، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فاطمان إلى ربه، ولاذ بجواره واعتصم بحبله، فأوى بهذا الإيمان إلى ركن شديد، ولاذ بقرار مكين، واستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وعرف أن هذه الحياة القصيرة التي يعيشها الناس ممزوجة الخير بالشر، والعلل بالظلم، والحق بالباطل، واللذة بالألم، ليست هي الغاية، ولا إليها المنتهى، إنما هي مزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى. تجزى فيها كل نفس بما كسبت، وتخلد فيما عملت، فاستراح المؤمن بذلك من التساؤل العريض عن الحياة والموت، وما سرهما؟ وماذا بعدهما؟ استراح المؤمن من ذلك، حين علم وأيقن أنه خلق للخلود الأبدي، وإنما ينقله الموت من طور إلى طور، أو من دار إلى دار.

وعرف المؤمن أنه لم يخلق في هذه الحياة عبثاً، ولم يترك سدى، فبعث الله إليه رسله بالبينات، هداة ومعلمين، مبشرين ومنذرين، ليهتدي الناس إلى الحق، ويستبينوا معالم الطريق، ويعرفوا ما يرضي الله فيتعبدوه، وما يسخطه فيتقوه، وليقيموا بين الناس موازين القسط، ويحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، وليكونوا أمثلة رقيقة تحسن وترى. يتخذا الناس أسوة حسنة لصالحي الأعمال، ومكارم الأخلاق. وعرف المؤمن أنه ليس غريباً على الكون الكبير من حوله، ولا معزولاً عنه، إنه بإيمانه لم يعد وحده. إن الكون كله معه، ففطرة هذا الكون هي الإيمان. هي التسبيح والسجود للرب الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً) (الإسراء : 44).

إن هذه المكاسب الهائلة التي غنمها المؤمن، واجتنت ثمارها، وقطوفها الدانية، لا يقدرها حق قدرها إلا من حرّمها، أو تأمل بعين بصيرته حال من حرّمها.

فالجاحدون بالله، أو المرتابون فيه، وفي لقائه يوم الحساب، يحيون حياة لا طعم لها ولا معنى. حياة كلها قلق وحيرة، كلها علامات استفهام. كلها أسئلة لا تجد لها عندهم جواباً.

إنهم لا يوقنون بشيء يطمنون إليه. ويستريحون له في قضية وجودهم أنفسهم، ووجود الكون كله من حولهم. من أين جاءوا؟ ومن جاء بهم؟ ولماذا جاء بهم؟ وإلى أين يذهبون بعد هذه المرحلة القصيرة، التي لم يفهموا لها سرّاً، ولم يعرفوا لها غاية؟ وما هذا الكون؟ وما مبدؤه؟ وما غايته؟ وما علاقتهم به؟

إن عقولهم المحدودة لا تستطيع أن تجيبهم إجابة تسفي الصدور، وتتقنع الغلة، وتمحو بنورها الشك والحيرة والاضطراب. ربما يهتدون في يوم إلى جواب عن هذه الأسئلة الحائرة المحيرة، ثم يعودون في اليوم الثاني فينقضون ما أبرموا، ويحلون ما عقدوا، ويتبرأون مما قالوا.

ولا يثبتون على قرار، ولا يستقرون على فكرة، ولا يدومون على وجو أو طريق:

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

نرى ذلك قديماً في مثل قول ابن الشيل البغدادي في قصيدته الرائية:

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار؟

إلى أن يقول متسانلاً عن علة هذا الوجود:

فماذا الامتتان على وجود لغير الموجدين به الخيار؟

وكانت أنعماً لو أن كوناً تخير قبله أو نستشار؟

وما دام وجوده قد تم بغير استشارة له، ولا اختيار منه، فليغن سخطه على هذا الوجود الذي ليس في نظره- إلا بلاء جرت عليه شهوة عارضة أمه وأبيه، وفي هذا يقول:

قيح الله لذة، لأذانا نالها الأمهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألف الفقد فأيجادنا علينا بلاء

وفي مثل ذلك يقول عمر الخيام:



ليست ثوب العمر لم أستشر  
وحرث فيه بين شتى الفكر  
وسوف أنضو الثوب عني ولم  
أدر لماذا جنت؟ أين المفر؟

فقد لبس ثوب الحياة دون أن يستشار، ويؤخذ رأيه، كأنه لو استشير لكان رأيه وتدبيره لنفسه أفضل من تدبير ربه له. ثم هو يخلع هذا الثوب بالموت، ولا يدري شيئاً عن سر وجوده، ولا ما بعد وجوده.

ويقول أبو العلاء المعري في فترات شكه وحيرته:

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة  
أي المعاني بأهل الأرض مقصود؟  
لم يعطنا العلم أخباراً يجيء بها  
نقل ولا كوكب في الأرض مرصود

ويقول:

أصبحت في يومي أسائل عن غدي  
متحيراً عن حاله متندساً  
أما اليقين فلا يقين وإنما  
أقصى اجتهادي أن أظن وأحدس

ويقول:

سألتُموني فأعيتني أجابتكم  
من ادعى أنه دار فقد كذبا

وهذا الشك الذي حرم معه اليقين والاستقرار على رأي، قد كدر عليه الحياة، وجعله ينظر إليها نظرة متشائمة سوداء. فتسمعه يقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة  
وحق لسكان البسيطة أن يبكوا  
تحطمنا الأيام حتى كأننا  
زجاج، ولكن لا يعاد له سبك

بل يمتنع عن الزواج حتى لا يجني على ذريته، كما جنى عليه أبوه وأمه:

وأرحت أولادي فهم في نعمة الد  
عدم التي فضلت نعيم العاجل

وتقلب عليه النظرة الجبرية للإنسان فيقول:

ما باختياري ميلادي ولا هرمي  
ولا حياتي، فهل لي بعد تخيير؟

ويقول:

جننا على كره ونرحل رغما  
ولعلنا ما بين ذلك نجبر

وحديثاً قال إيليا أبو ماضي في قصيدته التي سماها "الطلاسم" :

جنت لا أعلم من أين، ولكني أتيت  
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت  
وسابقي سائراً إن شئت هذا أم أبيت  
كيف جنت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري!

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟  
هل أنا حر طليق، أم أسير في قيود؟  
هل أنا قائد نفس في حياتي أم مقود؟  
أتمنى أنني أدري، ولكن .....

لست أدري؟

وطريقي ما طريقي، أطويل أم قصير؟  
هل أنا أصعد، أم أهبط فيه وأغور؟  
أأنا السائر في الدرب أم الدرب يسير؟  
أم كلانا واقف، والدهر يجري؟

لست أدري؟

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً  
كنت محواً ومحالاً أم تراني كنت شياً؟  
ألهذا اللغز حل، أم سيبقى أبدياً؟  
لست أدري ... ولماذا لست أدري؟؟

لست أدري؟

إن هذا الشك والاضطراب والقلق الذي يتقلب على جمره الحارون المرتابون في وجود الله وحكمته، وعدله ورحمته، وجزائه في الآخرة ووحده إلى رسله - هذا الشك ليس شيئاً هيناً، إنه عذاب أليم، وكوة من الجحيم فتحت على أهله، تلتفحهم بنارها، وتشوي قلوبهم بحميمها، وكلما خف لهيبها هبت عليهم عواصف الشك من جديد، فاشتعلت النار، ليذوقوا العذاب.

إن هذا القلق أمر لا مناص لهم منه، إنه سيجرهم سكون النفس، وهذوء الضمير. سيقتض عليهم مضاجعهم، وينغص عليهم حياتهم، ويورق عليهم ليلهم، ويكدر عليهم نهارهم، إنهم يعيشون كما قال الله (معيشة ضنكا) (طه: 124).

وضوح الغاية والطريق عند المؤمن

غير المؤمن يعيش في الدنيا تتوزعه هموم كثيرة، وتتنازعها غايات شتى، هذه تميل به إلى اليمين، وتلك تجذبه إلى الشمال، فهو في صراع دائم داخل نفسه، وهو في حيرة بين غرائزه الكثيرة، أيها يرضى. غريزة البقاء، أم غريزة النوع، أم المقابلة، أم ... أم ... الخ. وهو حائر مرة أخرى بين إرضاء غرائزه وبين إرضاء المجتمع الذي يحيا فيه، وهو حائر مرة ثالثة في إرضاء المجتمع، أي الأصناف يرضيهم، ويسارع في هواهم، فإن رضا الناس غاية لا تدرك.

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً علي لنامها

والعكس بالعكس طبعاً، إذا رضي اللنام غضب الكرام.

وهنا يذكرون الحكاية المشهورة، حكاية الشيخ وولده وحماره: ركب الشيخ ومشى الولد ورائه، فتعرض الشيخ للوم النساء، وركب الولد ومشى الشيخ، فتعرض الولد للوم الرجال، وركبا معاً فتعرضا للوم دعاة الرفق بالحيوان، ومشيا معاً والحمار أمامهما، فتعرضا لنكت أولاد البلد، واقترح الولد أن يحملوا الحمار ليستريحوا من لوم اللاتمين، فقال له الأب الشيخ: لو فعلنا لآتيننا أنفسنا، ولرماتنا الناس بالجنون حيث جعلنا المركوب راكباً. يا بني لا سبيل إلى إرضاء الناس.

ومن في الناس يرضي كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد؟

وقد استراح المؤمن من هذا كله، وحصر الغايات كلها في غاية واحدة عليها يحرص وإليها يسعى، وهي رضوان الله تعالى، لا يبالي معه برضى الناس أو سخطهم، شعاره ما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب  
وليت الذي بيني وبينك علمر وبينى والعالمين خراب وكل الذي فرق التراب تراب

كما جعل المؤمن همومه هماً واحداً، هو سلوك الطريق الموصل إلى مرضاته تعالى والذي يسأل الله في كل صلاة عدة مرات أن يهديه إليه، ويوفقه لسلوكه، (اهدنا الصراط المستقيم) (الفاتحة: 6)، وهو طريق واحد لا عوج فيه ولا التواء (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (الأنعام: 153).

وما أعظم الفرق بين رجلين، أحدهما عرف الغاية، وعرف الطريق إليها، فاطمان واستراح، وآخر ضال، يخطئ في عناية، ويمشي إلى غير غاية، لا يدرى لإلام الميسر؟ ولا أين المصير؟ (أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم) (الملك: 22). واستهان المؤمن في سبيل هذه الغاية بكل صعب، واستعذب كل عذاب، واسترخص كل تضحية، بل قدمها راضياً مستبشراً، ألا ترى إلى خبيب بن زيد وقد صلبه المشركون؟ وأحاطوا به يظهرون الشماتة فيه، يحسبون أنه ستنهار أعصابه، أو تضطرب نفسه، ولكنه نظر إليهم في يقين ساخر، وأنشد يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله، وإن يشأ      يبارك على أوصال شلو ممزع

ألا ترى إلى الرجل من الصحابة ومن تبعهم بإحسان كيف كان يخوض عباب المعركة، والموت يبرق ويرعد، وهو يقول: (وعجلت إليك رب لترضى) (طه: 84).

ألا تسمع لأحدهم وقد نفذ الرمح في صدره حتى وصل إلى ظهره، فما كان منه إلا أن قال: فزت ورب الكعبة.

وفي غزوة الأحزاب، وقد ابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً إذ جاءهم الأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم، وإذ زاغت الأبصار، وبليغ القلب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون، وكشف المنافقون النقاب، فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

في هذا الجو الرهيب كان موقف المؤمنين هو موقف السكينة والطمأنينة الذي عهد منهم، والذي سجله الله لهم في كتابه: (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) (الأحزاب: 22).

ما الذي وهب هؤلاء المجاهدين السكينة، والقتال مستعر الأوار؟ ومنحهم الطمأنينة والموت فاغر فاه؟ إنه الإيمان وحده، وصدق الله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، والله جنود السموات والأرض، وكان الله عليماً حكيماً) (الفتح: 4) (قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب \* الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، إلا بذكر الله تطمئن القلوب) (الرعد: 27، 28).

لقد عرف المؤمن الغاية فاستراح إليها، وعرف الطريق فاطمان به، إنه طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إنه (الصراط المستقيم) الذي يهدي إليه محمد، صلى الله عليه وسلم، (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم \* صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) (الشورى: 52، 53).

وبهذا الصراط المستقيم، كان المؤمن في أخلاقه وسلوكه مطمئناً غير قلق، ثابتاً غير متقلب، واضحاً غير متردد، مستقيماً غير متعوج، بسيطاً غير معقد، لا يحيره تنافض الاتجاهات، ولا يعذبه تنازع الرغبات، ولا يحطم شخصيته الصراع الداخلي في نفسه. أفعل أم يترك؟ أفعل هذا أم ذاك؟

إن له مبادئ واضحة، ومعايير ثابتة، يرجع إليها في كل عمل وكل تصرف، فتعطيه الإشارة، وتفتح له الطريق فيقدم، أو تضئ له النور الأحمر، فيعرف الخطر ويحجم، وحسبه كتاب ربه هادياً، ورسوله معلماً: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين \* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم) (المائدة: 15، 16).

وإن له مع ذلك - لضميراً يقظاً، وقلباً نيراً، يستقيته في المتشابهات فيفتيه، ويرجع إليه في الملمات فيهديه، فهو كالإبرة "الممغنطة" تعرف اتجاهها دانماً وتشير إليه: "واستغث قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك أنت".

المقياس الخلقي عند المؤمن واضح ثابت ينحصر في رضى ربه وطاعة أمره، واجتناب نهيه، معتقداً أن في ذلك سعادة أولاه وأخراه، وخيره وخير البشرية جميعاً. فهو عند حدود الله وقاف. وهو لأمر ربه مسارع مطواع، مهما يكن في ذلك من خسران منقعة عاجلة، أو قهر لشهوة طاغية، أو مقاومة لعاطفة قوية أو غريزة قاهرة أو عادة غالبة.

هذا هو شأن الإيمان القوي الصادق، وهذه بعض ثمراته.

وفي القصة التالية العجيبة -لأب وابن مؤمنين- مثل رائع لليقين الذي لا يعرف الشك، والمسارة التي لا تعرف التردد أو الحيرة أو التخاذل في أمر الله.

شيخ كبير، اشتاق إلى الولد، ودعا ربه، فاوتي به الكبر، وبشرته به السماء، **(بغلام حليم)** فتعلق به قلبه، وأفرغ فيه كل ما لديه من حنان وحب، وظل ينمو فينمو معه حب أبيه، ويشب فيشب معه الأمل والرجاء فيه، وإذا الحكمة الإلهية تأبى إلا أن تصهرهما في امتحان قاس عسير. أن يقرب :لأب إلى الله قريباً، فيذبح ولده، ويذبح معه حبه ورجاءه وأمله. فهل توقف الوالد عن الأمر؟ أو حتى تردد بين نداء العاطفة ونداء الإيمان؟ بين صوت الوحي من فوقه، وصوت الأبوة ينبثق من حناياه؟ وهل تمرد الابن على أمر يتعلق برقبته؟ أو حتى اضطرعت في نفسه العوامل المتضادة من حب الحياة، والامتنال لأمر الله؟.

كلا. لقد كان يقينهما أكبر من نوازع النفس، وعوامل التردد، فأسلم الوالد ولده. وأسلم الولد عقه.

تلك هي قصة إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل عليهما السلام.

وليس هناك أصدق ولا أروع من تصوير القرآن لهاتين النفسيتين المؤمنتين، ومدى طمأنينتهما في أحلك ساعات الشدة، ومبلغ الثبات الخلقي الراسخ الذي بدا في تضحية الأب العظيم، وصبر الابن الكريم.

قال تعالى في شأن إبراهيم وولده إسماعيل: **(فبشرناه بغلام حليم \* فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين \* فلما أسلما وتله للجبين \* وناديناه أن يا إبراهيم \* قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين \* إن هذا لهو البلاء المبين \* وفديناه بذبح عظيم \* وتركنا عليه في الآخرين \* سلام على إبراهيم \* كذلك نجزي المحسنين \* إنه من عبادنا المؤمنين) (الصافات: 101، 111).**

وفي هذا الختام سر القصة كلها، ومفتاح ما سجلته من بطولة وفدانية، **(إنه من عبادنا المؤمنين).**

العبودية لله وحده، والإيمان به وحده **(إنه من عبادنا المؤمنين) (الصافات: 111)** العبودية لله تعني: التحرر من التبعية لكل من سواه وما سواه، فلا خضوع لمخلوق في الأرض أو في السماء. حتى الشيطان الوسواس الخناس ليس له سبيل على عباد الله **(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) (الإسراء: 65).**

والعبودية لله تعني: الانقياد لحكمه سبحانه، مع رضا النفس، وتسليم القلب، دون أدنى حرج أو ارتياح، لنقته بأن تدبير الله له خير من تدبيره لنفسه وأنه تعالى أرحم به من أمه وأبيه، وأنه سبحانه أعلم بما يصلحه ويزكيه.

والمؤمن الصادق هو الذي عرف لهذه العبودية حقها، فوجهه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وحطم الأصنام كلها من قلبه، ورفض الطواغيت كلها من حياته، ولم يرض غير الله رباً، ولم يتخذ غير الله ولياً؛ ولم يبتغ غير الله حكماً؛ اتضحت لعين بصيرته الوجهة؛ واستقام أمامها

الطريق؛ لا لبس ولا غموض؛ ولا عوج ولا أمت: (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ \* قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (الأنعام: 161 - 164).

وبهذا الاتجاه الواضح انحلت العقد في نفس المؤمن وفي حياته. فقد عرف الطريق فسلكها على بصيرة، غير هباب ولا متردد، ولا قلق ولا مرتاب. طريق الرجوع إلى أمر الله، والاستسلام الكامل لحكم الله، واليقين بأن خبري الدنيا والآخرة في اتباعه والرضا به (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (الأحزاب: 36) (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون) (النور: 51).

أجل هم المفلحون: مفلحون في الآخرة بدخول الجنات ورضوان من الله أكبر. ومفلحون في الدنيا بما أنعم الله عليهم من سكينۃ الأنفس. وطمأنينة القلوب، وإنشراح الصدور.

#### أنس المؤمن بالوجود كله

والمؤمن يعيش موصولاً بالوجود كله، ويحيا في أنس به، وشعور عميق بالتناسق معه، والارتباط به، فليس هذا الكون عدواً له، ولا غريباً عنه، إنه مجال تفكره واعتباره، ومسرح نظره وتأملاته، ومظهر نعم الله وآثار رحمته.

هذا الكون الكبير كله يخضع لنواميس الله كما يخضع المؤمن، ويسبح بحمد الله كما يسبح المؤمن.

والمؤمن ينظر إليه نظرتة إلى دليل يهديه إلى ربه، وإلى صديق يؤنسه في وحشته..

وبهذه النظرة الودود الرحبة للوجود، تتسع نفس المؤمن، وتتسع حياته، وتتسع دائرة الوجود الذي يعيش فيه.

فليس هناك أوسع من صدر المؤمن وقلبه الذي وسع العالمين، المنظور وغير المنظور، عالم الشهادة وعالم الغيب، ووسع الحياتين: الدنيا والآخرة، حياة الفناء، وحياة الخلود، ووسع الوجودين: الوجود المحدث القاتل، والوجود الواجب الباقي، الوجود الأزلي الأبدى، وجود الله جل جلاله.

وليس هناك أضيق من صدر الملحد والشاك في الله والآخرة، إن حياته أضيق من سجن، بل من "زنازنة" في سجن، إنه يعيش معزولاً عن الأزل والأبد، عن الأمس والغد. لا يعرف إلا يومه، ولا يعرف من يومه إلا لذاته المحسنة، وهو يعيش معزولاً عن الوجود العريض، لا يرى منه إلا شخصه وشخصاً محدودة أخرى، ولا يرى من شخصه إلا جسمه المادي، ونوافعه الحيوانية.

هذه حقيقة ثابتة، وسنة ماضية، منذ أهبط الله آدم وزوجه إلى الأرض ثم قال لهما (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى \* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً) (طه: 123، 124).

فإذا رأيت بعض هؤلاء المعرضين عن هدى الله في بحبوحة من العيش المادي، والتعيم الحسي، فلا يصدقك ذلك عن حقيقة حالهم، فإن الضنك الحقيقي في أنفسهم. وإذا ضاقت النفس، وضاقت الصدر، ضاقت المعيشة وضاقت الحياة كلها. وإذا اتسعت النفس، اتسعت الحياة. وقديماً قال الشاعر:

ولكن أخلاق الرجال تضيق!

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

إن دائرة الوجود بالنسبة للحيوان دائرة ضيقة محدودة بحدود معدته وكرشه، وما يملؤها من كلاً ومرعى. ولا التفات إلى ما وراء ذلك. وقريب من ذلك الطفل، فوجوده ينحصر في أمه ويثديها، فإذا كبر قليلاً اتسع فُضُل أباه وأخوته ومسرح لعبه، فإذا نما شيئاً فشيئاً، بدأت تتسع دائرة حسه، ثم انتقل كلما قارب الرشد. من المحسوس إلى غير المحسوس. فيبدأ يدرِك المعاني الكلية والمعقولات المجردة. فالإيمان بالله وبالغيب هو الذي يرتفع بالإنسان من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الطفولة إلى الرشد، لأنه يرتفع بالإنسان من المحسوس إلى المعقول، ومن المنظور إلى غير المنظور، ومن عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

إن المؤمن يعيش في سعة من نفسه وقلبه، ولو لم يكن في سعة من عيشه، فطبيعة الإيمان توسع النفس والقلب والحياة لأنه يصل صاحبه بالوجود كله، ظاهره وباطنه، علوية وسفلية. وما يبصر منه وما لا يبصر. ماضيه وحاضره ومستقبله. يصله بالسموات والأرض ومن فيهن. يصله بالملائكة وحمة العرش والقوى الروحية من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو. يصله بحملة النور الإلهي، وأصحاب الرسالات السماوية من لدن آدم أبي البشر إلى محمد صلى الله عليه وسلم، يصله بالصدّيقين والشهداء والصالحين من كل أمة، ومن كل عصر، يصله بالآخرة والبعث والحساب والجنة والنار، وباختصار: يصله بالوجود ورب الوجود، الأول والآخر، والظاهر والباطن .

النفس المؤمنة نفس رحبة واسعة، وكيف لا وهي تعيش في وجود سعته السموات والأرض، والعرش والكرسي، والدنيا والآخرة، والأزل والأبد؟ والنفس المؤمنة رحبة واسعة، لأنها تعيش في نور يهديها سبيلها، ويكشف لها من حولها، ومن شأن النور أن يوسع الدائرة التي يحيا فيها الإنسان على عكس الظلام، فإن الذي تكتنفه الظلمة لا يرى ما حوله ولا من حوله. بل لا يرى الشيء وهو بجواره تكاد تلمسه يداه، بل لا يرى نفسه، ولا شيء أقرب إليه من نفسه، فإذا لاح له شعاع خافت بدأ يرى نفسه، أو شيئاً مما حوله. فإذا قوي هذا النور وانتشرت أشعته العريضة، أضاء له دائرة أوسع، وعلى قدر قوة هذا النور وقوة البصر عند الإنسان تكون سعة الدائرة التي يدرِكها البصير. سنل الرسول صلى الله عليه وسلم. عن قوله تعالى: (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) (الزمر: 22) فقال: "إن النور إذا دخل في القلب اتسع وانفسح".

فالقلب يتسع وينفسح وينشرح بنور الإيمان واليقين، كما يضيق وينكمش بظلمة الإلحاد والشك والنفاق: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً) (الأنعام: 125).

المؤمن يعيش في معية الله

والمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسي الوبيل، الذي يفتك بالمحرومين من الإيمان، ذلك هو مرض الشعور بالوحدة المقلقة، فيحس صاحبه أن الدنيا مقلقة عليه، وأنه يعيش فريداً منعزلاً؛ كأنه بقية غرقى سفينة ابتلعها اليم، ورمت به الأمواج في جزيرة صغيرة موحشة يسكنها وحده، لا يرى إلا زرقة البحر وزرقة السماء، ولا يسمع إلا صفير الرياح، وهدير الأمواج.

وأى عالم أشد على النفس من هذا العالم، وأى إحساس أمر من هذا الإحساس؟ إن أقص ما يصنعه السجناء بالسجين أن يحبسه في سجن انفرادي (زنازاة) ليحرمه من لذة الاجتماع، وأنس المشاركة والاختلاط، فما بالنا بمن وضع نفسه دائماً في تلك الزنازاة، وعاش فيها بمشاعره وتصوره وحده، وإن كانت الدنيا تضج من حوله بخلق الله من بني الإنسان؟! .

والمختصون متفقون على أن هذا المرض من أخطر أمراض النفس، لما يجلبه على صاحبه من عزلة وفقدان للثقة بمن يتعاملون معه، إذ يعتقد أن كل من حوله دونه، وأنهم يخالفونه في كل مقومات الحياة، وأينما التفت لا يجد غير نفسه، وقد مثل بعضهم حالة هذا المريض بإنسان قد سجن في غرفة جميع جدرانها مراء (مرايا) فأينما ينظر لا يجد إلا نفسه، وأن هذه الغرفة التي سجن فيها لا أبواب لها، ولا منافذ بها، فأين السبيل إلى الهرب منها؟.

فهل يستطيع مثل هذا الإنسان أن يعمل أو ينتج، أو أن يظل محتفظاً بوعيه وقدرته على الفهم والتركيز؟ وهل يمكن لمثله أن يظفر بالسكينة والاطمئنان؟ الجواب طبعاً: لا.

بل قال المختصون في علاج هذه الأمراض: إن لهذا المرض النفسي آثاراً عضوية تظهر على جسم صاحبه، كما تظهر في حركاته وتصرفاته. فقد يصيبه الدوار ويتصبب عرقه، وتسرع نبضات قلبه، كانه خائف من عدو قاهر، أو مقدم على موقف عصيب وقد يتخبط في حركاته ومشيه كانه يريد الهرب.

ويقول الدكتور «موريس جويتهيل» مدير إدارة الصحة العقلية بنيويورك: "إن مرض إحساس الإنسان بوحدته لمن أهم العوامل الأساسية للاضطرابات العقلية".

ولم يدخر الأطباء وعلماء النفس وسعاً في البحث عن علاج ناجح لهذا المرض، ويثبوا في ذلك جهوداً جمة، وأجروا تجارب كثيرة، وحاولوا محاولات مخلصاً حتى انتهى رأي المنصفين منهم أخيراً إلى أن العلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى، وإشعار المريض بمعية الله والآنس به.

فهذا الإيمان القوي هو خير دواء لعلاج هذا المرض الخطير، كما أنه خير وقاية من شره.

قال الدكتور «فرانك لويباخ» العالم النفسي الألماني: مهما بلغ شعورك بوحدة نفسك فاعلم أنك لست بمفردك أبداً. فإذا كنت على جانب من الطريق فسر وأنت على يقين من أن الله يسير على الجانب الآخر (من مقال للأستاذ عبد الرزاق نوفل).

واعتقاد المسلم أكبر من هذا وأعمق. إنه يؤمن أن الله معه حيثما كان، وليس على الجانب الآخر من الطريق، إن الله سبحانه يقول في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني" ويقول في كتابه العزيز: (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعداء والله معكم وإن يتركم أعدائكم) (محمد: 35).

ويقول أديب غربي من كلمة يستقبل بها عاماً جديداً: قلت للرجل الواقف على باب العام: أعطني نوراً أستضيء به في ظلمات الطريق، قال: ضع يدك في يد الله فإنه يهديك سواء السبيل.



إن شعور المؤمن بأن يد الله في يده، وأن عنايته تسير بجانيه، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام، وأنه معه حيث كان، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف، ويرزح عن نفسه كابوسها المزعج.

كيف يشعر بالوحدة من يقرأ في كتاب ربه (والله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم) **(البقرة: 115)** (وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير) **(الحديد: 4)**؟ إنه لا يشعر إلا بما شعر به موسى حين قال لبني إسرائيل (إن معي ربي سيدين) **(الشعراء: 62)** وما شعر به محمد في الغار حين قال لصاحبه: **(لا تحزن إن الله معنا) (التوبة: 40)**.

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته دائماً يجعله في أنس دائم بربه، ونعيم موصل بقربه، يحس أبداً بالنور يغمر قلبه، ولو أنه في ظلمة الليل البهيم. ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين، ينشد ما قاله العبد الصالح ينجي ربه:

غير محتاج إلى السرج	إن قلبا أنت ساكنه
يوم يأتي الناس بالحجج	وجهك المأمول حجتنا

#### المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصديقين

والمؤمن لا يشعر أنه في عزلة عن إخوانه المؤمنين. إنهم، إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو داره - يعيشون دائماً في ضميره، ويحيون في فكره ووجدانه، فهو إذا صلى -ولو منفرداً- تحدث باسمهم **(إياك نعبد وإياك نستعين) (الفاتحة: 5)** وإذا دعا دعا باسمهم **(اهدنا الصراط المستقيم) (الفاتحة: 6)** وإذا ذكر نفسه ذكرهم **"السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين"** **(هذا في التشهد الذي يتكرر في الصلوات المفروضة وحدها تسع مرات يومياً عدا السنة والنوافل)** وإنه لأوسع مدى من أن يعيش مع مؤمن عاصره وحدهم، بل إنه ليتخطى الأجيال، ويخترق العصور والمسافات، ويحيا مع المؤمنين وإن باعدت بينه وبينهم السنوات والأعوام، ويقول ما قال الصالحون: **(ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) (الحشر: 10)**.

المؤمن يشعر أنه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ورسله المقربين. ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة وفي كل عصر: **(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً) (النساء: 69)**. وأي إنسان أسعد ممن يرافق هؤلاء ويرافقونه؟ إنها ليست مرافقة جسد وصورة، ولكنها مرافقة روح ووجدان، وفكر وقلب، وكفى أنه «معهم» وليس خلفهم، ولا قريبا منهم .. ولا يحسن امرؤ من الناس أن مرافقة هؤلاء للمؤمن شيء هين ضليل، أو أمر خيالي موهوم، فإنه لفرق كبير دين إنسان تاريخه هو تاريخ شخصه أو أسرته، أو حزبه مثلاً، فهو قريب القاع، سطحي الجذور، وإنسان تاريخه هو تاريخ الإيمان والهدى من عهد آدم، تاريخه هو تاريخ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد من أولي العزم من الرسل، ومن غيرهم من أصحاب النبوات والرسالات منذ بعث الله رسولا، وأنزل كتاباً، فهو يستلهم هذا التاريخ المؤمن الحافل في كل ما ينزل به من أحداث، وما يعرض له من مشكلات، وما يقف في سبيله من عوائق، ويجد فيه الأسوة والهداية كما يجد فيه السلوى والعزاء، كما يجد فيه الأتس والود، ومن كل ذلك يأخذ الزاد لفكره، والنور لقلبه، والممدد لإرادته.

#### الصلوة والدعاء من بواعث السكينة

ومن أسباب السكينة النفسية التي حرّمها الماديون، ونعم بها المؤمنون، ما ينجي به المؤمن ربه كل يوم من صلاة ودعاء. فالصلاة لحظات ارتقاء روحي يفرغ المرء فيها من شواغله في دنياه، ليقف بين يدي ربه ومولاه ويثني عليه بما هو أهله، ويقضي إليه بذات نفسه: داعياً راعياً ضارعاً.

وفي الاتصال بالله العلي الكبير قوة للنفس، ومدد للهزيمة، وطمأنينة للروح.

لهذا جعل الله الصلاة سلاحاً للمؤمن يستعين بها في معركة الحياة، ويواجه بها كوارثها وآلامها، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين) (البقرة: 153) وكان محمد رسول الله إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولم تكن صلاته مجرد شكل أو رسم يؤدي، وإنما كانت استغراقاً في مناجاة الله، حتى أنه كان إذا حان وقتها قال لمؤننه بلال في لهفة المتشوق واشتياق الملهوف: "أرحنا بها يا بلال" ... وكان يقول "جعلت قرّة عيني في الصلاة".

وقد أعجبني ما كتبه «دبل كارنيجي» (في كتاب: "دع القلق وابدأ الحياة" ص 301 و 302) عن الأثر المبارك للصلاة في النفس البشرية، وهو يريد الصلاة بمعناها العام المشترك بين الأديان جميعاً، وهو الدعاء، والتضرع والابتهال إلى الله، قال: "ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة والابتهال أنك لست متديناً بطبعك، أو بحكم نشأتك، وثق أن الصلاة سوف تسدي إليك عوناً أكبر مما تقدر، لأنها شيء عملي فعال، تسألني: ماذا أعني بشيء عملي فعال، أعني بذلك أن الصلاة يسعها أن تحقق لك أموراً ثلاثة لا يستغي عنها إنسان سرّواً أكان مؤمناً أو ملحدًا:

1. فالصلاة تعينك على التعبير بأمانة وبقّة عما يشغل نفسك، ويثقل عليها، وقد بينا فيما سلف أن من المحال مواجهة مشكلة مادامت غامضة غير واضحة المعالم، والصلاة أشبه بالكتابة التي يعبر بها الأديب عن همومه، فإذا كنا نريد حلاً لمشكلتنا وجب أن نجريها على أسننتنا واضحة المعالم، وهذا ما نفعله حيث نثب شكوانا إلى الله.
2. والصلاة تشعر بك أنك لست منفرداً بحل مشكلتك وهمومك. فما أقل من يسعهم احتمال أثقل الأحمال وأعسر المشكلات منفردين، وكثيراً ما تكون مشكلتنا ماسة أشد المساس بذواتنا فنلبي أن نذكرها لأقرب الناس إلينا، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل في الصلاة.

والأطباء النفسيون يجمعون على أن علاج التوتر العصبي، والتأزم الروحي يتوقف -إلى حد كبير- على الإفضاء بمبعث التوتر ومنشأ الأزمة إلى صديق قريب، أو ولي حميم. فإذا لم نجد من نفضي إليه كفاتنا بالله ولياً.

3. والصلاة بعد هذا تحفزنا إلى العمل والإقدام، بل الصلاة هي الخطوة الأولى نحو العمل، وأشك في أن يوالي امرؤ الصلاة يوماً بعد يوم، دون أن يلمس فائدة أو جدوى، أو بمعنى آخر، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حالته، وتفريج أزمته، وقد قال «الكسيس كاريل» (مؤلف كتاب "الإنسان .. ذلك المجهول" والحاظر على جائزة نوبل) "الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى الآن، فلماذا لا نتنفع بها؟" أ. هـ.

وإذا كان هذا شأن الصلاة بعامّة، فإن الصلاة الإسلامية أزكى وأعمق أثراً، بما فيها من طهارة بدنية منشطة، وما فيها من قرآن يتلى، وهو كتاب الخلود، وما فيها من إحياء الجماعة التي رغب الإسلام فيها، وحث عليها.

أي سكينة يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة، فيدعوه بما دعا به محمد من قبل: "اللهم رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول،

فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر" (رواه مسلم).

وأي طمأنينة ألقيت في قلب محمد رسول الإسلام يوم عاد من الطائف دامي القدمين، مجروح الفؤاد من سوء ما لقي من القوم - فما كان منه إلا أن رفع يديه إلى السماء يقرع أبوابها بهذه الكلمات الحية النابضة التي دعا بها محمد ربه، فكانت على قلبه برداً وسلاماً: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ...".

### المؤمن لا يعيش بين (لو) و (ليت)

وان من أهم عوامل القلق الذي يفقد الإنسان سكينته النفس وأمنها ورضاها هو تحسره على الماضي وسخطه على الحاضر، وخوفه من المستقبل. إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظل فيها شهوراً وأعواماً، يجتر ألامها ويستعيد ذكرياتها القاتمة، متحسراً تارة، متمنياً أخرى. شعاره: ليتني فعلت، وليتني تركت، لو أني فعلت كذا لكان كذا، وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري، وأين مني "ليت"؟ إن "ليتاً" وإن "لوا" .. عناء

ولذا ينصح الأطباء النفسيون، والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل، أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود.

ما مضى فات، والمؤمل غيب      ولك الساعة التي أنت فيها

وقد صور هذا أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا تصويراً بديعاً لظليته حين سألهم: كم منكم مارس نشر الخشب؟ فرجع كثير من الطلبة أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم مارس نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعذدنا قال المحاضر: بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً .. وكذلك الحال مع الماضي: فعندما يتناكب القلق لأمر حدث في الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!!.

وقد نقل هذا التصوير «دبل كارينجي» كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي لا يجدي شيئاً تماماً كما لا يجدي أن تلحن الطحين، ولا أن تشر النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو أن يرسم التجاعيد على وجهك، أو تصيبك بقرحة في المعدة (دع القلق ص: 173). ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون المطحون ويبكون على أمس الذاهب، ويعضون على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلبون أكفهم حسرة على ما مضى.

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه بربه، وآمن بقضائه وقدره، فلا يسلم نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاه الله كان لابد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضى والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر:

سبقت مقادير الإله وحكمه

فأرح فؤادك من "لعل" ومن "لو"

وقول الآخر:

ولست براجع ما فات مني

بلهف ولا بليت ولا لو أني

إنه لا يقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، فإن "لو" تفتح عمل الشيطان (رواه مسلم) كما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم.

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة، فلم السخط؟ ولم الضيق والتبرم؟ والله تعالى يقول: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير \* لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور) (الحديد: 22، 23).

وفي غزوة أحد التي قتل فيها سبعون من المسلمين، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان، عاشوا بين "لو" المتقدمة و"ليت" المتحسرة، فيقول: (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟ قل إن الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) (آل عمران: 154).

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: (لو أطعونا ما قتلوا، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (آل عمران: 168). المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبه بهم في تحسراتهم الأسيفة، وتمنياتهم الحزينة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصير \* ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة، خير مما يجمعون \* ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) (آل عمران: 156 - 158).

إن شعار المؤمن دائماً: "قدر الله وما شاء فعل .. الحمد لله على كل حال" وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا في خضم أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلوا قوله تعالى: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم) (التغابن: 11) وهذا يسبغ عليه أيضاً نعمة الرضا الذي سنتحدث عنه فيما يلي.

الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

الفصل الرابع - الرضا

- الفرح والروح في الرضا واليقين
- المؤمن راض عن نفسه وعن ربه
- المؤمن راض عن الكون والحياة
- المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه
- المؤمن راض بما قدر الله عليه
- المؤمن راض بما قسم الله له من رزق
- قصة وعبرة
- الرضا مصدر قوة لصاحبه
- الرضا لا يقتضي السكوت على الباطل

### الفرح والروح في الرضا واليقين

"إن الله عز وجل يقسطه جعل الفرح والروح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك" (حديث شريف).

في هذا الحديث الشريف كشف عن حقيقة نفسية باهرة، فكما أن سنة الله قد ربطت الشبع والري بالطعام والشراب في عالم المادة، فإن سنته تعالى في عالم النفس والروح قد ربطت الفرح والروح -وبعبارة أخرى السرور وراحة النفس- بالرضا واليقين، فبرضا الإنسان عن نفسه وربه يطمئن إلى يومه وحاضره، ويبقينه بالله والأخرة والجزاء، يطمئن إلى غده ومستقبله. ومن غير المؤمن في رضاه عن يومه، ويقينه بغده؟ كما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسخط والشك.

فالسخطون والشاكون لا يذوقون السرور طعماً. إن حياتهم كلها سواد ممتد، وظلام متصل، وليل حالكة لا يعقبه نهار ولا يرتقب له فجر صادق. وقد ربط الحديث النبوي الكريم بين السخط والشك وهما متلازمان، فلا سخط من غير شك، ولا شك من غير سخط. قال ابن القيم: قل إن يسلم السخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفثيش، لوجد يقينه معلوماً مدخولاً. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان.

السخط إنسان دائم الحزن، دائم الكآبة. ضيق الصدر، ضيق الحياة، ضيق بالناس، ضيق بنفسه، ضيق بكل شيء، كأن الدنيا -على سعتها- في عينيه سم الخياط.

إن المؤمن قد تصيبه الكآبة، وقد يعتريه الحزن، ولهذا قال الله لرسوله (ولا تحزن عليهم) (النمل: 70) (ولا يحزنك قولهم) (يونس: 65) ولكن حزن المؤمن لغيره أكثر من حزنه لنفسه، وإذا حزن لنفسه فلاخرته قبل دنياه. وإذا حزن لدنياه فهو حزن عارض موقوت كغمام الصيف، سرعان ما ينقشع إذا هبت عليه ريح الإيمان. حتى النفوس المنقبضة والطباع المتشائمة، ينشر الإيمان عليها من ضيائه وإشراقه، فيبدد كثيراً من ظلامها ويخفف كثيراً من انقباضها ويطارد أسباب السخط والتشاوم من وجودها.

أما المرتاب في الله والأخرة، فهو يعيش في مآتم مستمر، ومناحة دائمة. لأنه يعيش في سخط دائم، وغضب مستمر. ساخط على الناس، ساخط على نفسه، ساخط على الدنيا، ساخط على كل شيء. وقديما قالوا: من غضب على الدهر طال غضبه. ولهذا هو في مآتم مستمر، يبكي دائماً حظه وينعي نفسه، وينوح على دنياه، ويولول على وجوده. كما وصف بعض المرتابين نفسه فقال: أنه حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه .. حزين بأعصابه وأعصاب الكون والآلهة والناس والأشياء! .. لا يعرف لماذا هو، لهذا هو حزين، لا يعرف لماذا هو حزين، كما لا يعرف لماذا هو!!.

إن شعور الإنسان بالرضا من أول أسباب السكينة النفسية التي هي سر السعادة.

وفي الحديث: "من سعادة المرء استخارته ربه، ورضاه بما قضى، ومن شقاء المرء تركه الاستخارة وعدم رضاه بعد القضاء" (رواه البزار ومعهنا عند أحمد والترمذي).

فكل أمر مقدور يكتفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، والسعيد من جمع بينهما، وذلك هو المؤمن، والشقي من حرمهما. المؤمن يسأل الله قبل إقدامه على أمر من الأمور أن يهديه إلى أرشد الأعمال وأهدى السبل، ومن الأدعية التي علمها لنا الرسول: "اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فيسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني، وأقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به" (رواه البخاري وغيره).

والمؤمن وحده هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله.

المؤمن هو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد، منشرح الصدر، غير متبرم ولا ضجر، ولا ساخط على نفسه، وعلى الكون والحياة والأحياء. ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه، وعن الوجود العام من حوله، ومبعث هذا وذاك رضاه عن مصدر الوجود كله، وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين.

الرضا نعمة روحية جزيلة، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله، أو شاك فيه، أو مرتاب في جزاء الآخرة، إنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله وحسن اتصاله به. وقد خاطب الله رسوله عليه السلام بقوله: (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح أطراف النهار لعلك ترضى) (طه: 130) وامتن عليه بقوله: (ونسوف يعطيك ربك فترضى) (الضحى: 5). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً" (رواه أحمد ومسلم والترمذي). وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (البينة: 8)

المؤمن راض عن نفسه وعن ربه

المؤمن راض عن نفسه، أعني عن وجوده ومكانه ذي الكون، لأنه يعلم أنه ليس ذرة ضائعة، ولا كما مهملاً، ولا شيئاً تافهاً، بل هو قيس من نور الله، ونفخة من روح الله، وخليفة في أرض الله.

وهو راض عن ربه، لأنه آمن بكماله وجماله، وأيقن بعلمه وحكمته، أحاط سبحانه بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة، لم يخلق شيئاً لهواً، ولم يترك شيئاً سدى، له الملك، وله الحمد، نعمة عليه لا تعد، وفضله عليه لا يحد، فما به من نعمة فمن الله، وما أصابه من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، يردد دائماً هذا الثناء الذي رده من قبل أبونا إبراهيم خليل الرحمن: (الذي خلقتني فهو يهدين \* والذي هو يطعمني ويسقين \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذي يميّتي ثم يحيين \* والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) (الشعراء: 78 - 82).

المؤمن موقن تمام اليقين أن تدبير الله له أفضل من تدبيره لنفسه، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبيه به، ينظر في الأنفس والأفاق فيرى آثار بره تعالى ورحمته، فيناجي ربه: (بيدك الخير، أنك على كل شيء قدير) (آل عمران: 26) فالخير بيديه، والشر ليس إليه، وما يظنه الناس شراً في الوجود، ليس هو شراً في الحقيقة. وإذا كان لابد من تسميته شراً، فإتاما هو شر جزئي مغفور في جانب الخير الكلي العام، وهذا الشر الجزئي، أو الشر الموهوم اقتضاه التكافل بين أجزاء الوجود هذا التكافل الذي يقول فيه الأستاذ العقاد: "إن المعتقدين به -أي بهذا التكافل- يرون أن الشر لا يناقض الخير في جوهره، ولكنه جزء متمم له، أو شرط لازم لتحقيقه، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر، ولا معنى للكرم بغير الحاجة، ولا معنى للصبر بغير الشدة، ولا معنى لفصيلة من الفضائل بغير نقیصة تقابلها وترجع عليها، وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة كما يطرد في فضائلنا النفسية، ومطالبنا العقلية: إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع، ولا نستمتع بالري ما لم نشعر قبله بلهفة الظما، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوعنا المنظر القبيح" (حقائق الإسلام ص: 8).

### المؤمن راض عن الكون والحياة

والمؤمن نتيجة لهذا- راض عن الحياة والكون من حوله، لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كل شيء: (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (طه: 50)، وكل ذرة في الأرض أو السماء تدل على حكمة حكيم، وتقدير عزيز عليم، وتدبير ملك عظيم، ورعاية رب كريم رحيم.

المؤمن كما قال الإمام الغزالي- ( "الأحياء" ربع المنجيات - كتاب التوكل ص : 222 ط الحلبي) يصدق تصديقاً يقينياً لا ضعف فيه ولا ريب؟ أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم، وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور. وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات، حتى اطلعوا به على الخير والشر، والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت، بما أعطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون والتظاهر عليه، أن يزداد فيما دبر الله سبحانه، ولا أن ينفق مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرر، এমন بلى به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع، এমন أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض -إن رجعوا فيها البصر، وطولوا فيها النظر- ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي والقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتم، ولا أكمل، ولو كان ادخره مع القدرة. ولم يتفضل به لكان بخلاً يناقض الجود، وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية" أ. هـ.

فما عرفه المؤمن من حكمة الله في خلقه، وأسراره في كونه، فيها ونعمت. وما خفي عليه وكله إلى عالمه، وقال في تواضع أولى الألباب: (ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه) (آل عمران: 191).

لهذا نرى المؤمن راضياً عما قدر الله له. وما قضى الله فيه، ينشد دائماً:

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلاً رأيت جمع الكائنات ملاحاً

### المؤمن عميق الإحساس بنعم الله عليه

إن مما يسخط الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قليلو الإحساس بما يمتنعون به من نعم غامرة، ربما فقدت قيمتها بالفعل، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دانماً: ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا. ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عظيم، وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبياً، بل منذ كان في بطن أمه جنيناً، كان صبيّاً وليداً لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أمه يجران لبناً خالصاً، كامل الغذاء، دافئاً في الشتاء، بارداً في الصيف، وألقى الله محبته في قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنا لهما نوم ولا عيش، حتى يكفياها ما أهمه ويدفعا عنه كل سوء.

وكان في بطن أمه جنيناً، فجعل الله له قراراً مكيناً، هياً له فيه أسباب الغذاء والدفع والتففس، وجعل له متكأ عن يمينه، متكأ عن شماله: (ألم نخلقكم من ماء مهين \* فجعلناه في قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* فقدرنا نفعم القادرون) (المرسلات: 20 - 23).

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله، ويرى في كل ذرة في الأرض أو في السماء منحة من الله له، تيسر له معيشته، وتعينه على القيام برسالته في الحياة. إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتلجج الأنهار، ويزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

ولنقرأ في مثل هذا قول الله تعالى: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (لقمان: 20) الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولتعلموا تشكرون \* وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (الجاثية: 13، 12) (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون \* وجعلنا فيها جنتان من نخيل وأعاب وفجرنا فيها من العيون \* ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم، أفلا يشكرون \* سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) (يس: 33 - 36) (أو لم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون \* وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون \* ولهم فيها منافع ومشارب، أفلا يشكرون) (يس: 71 - 73) (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً \* وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماء طهوراً \* لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) (الفرقان: 47 - 49) (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون \* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكون فيه، أفلا تبصرون \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولتعلموا تشكرون) (القصاص: 71 - 73)، (والأنعام خلقها، لكم فيها نفع ومنافع ومنها تأكلون \* ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون \* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرووف رحيم \* والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون \* وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين \* هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون \* ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون \* وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون \* وما نراك في الأرض مختلفاً ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون \* وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولتعلموا تشكرون \* وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم وأنهاراً وسبلاً



لعلكم تهتدون \* وعلامات، وبالنجم هم يهتدون \* أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون \* وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم (النحل: 5 - 18).

وهكذا يرى المؤمن -بتوجيه كتاب الله له- آثار رحمة الله ونعمته في كل شيء حوله، أما نعمة الله عليه في شخصه هو فما أعظمها وما أغررها! فأولها: نعمة الخلق، ولولا مشيئته وفضله لبقى في ظلمة العدم، ولم يكن شيئاً مذكوراً: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً \* إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) (الإنسان: 1، 2).

وثانيها: نعمة الإنسانية: فقد شاء الله أن يخلقه بشراً سوياً، ويستخلفه في الأرض، ويفضله على كثير من خلقه: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) (الإسراء: 70) ويتبع ذلك حسن الصورة الحسية المعنوية: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) (التين: 4) (وصوركم فأحسن صوركم) (التغابن: 3).

وثالثها: نعمة الإدراك والعلم. (اقرأ وربك الأكرم \* الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق: 3 - 5). (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) (النحل: 78). وهذه الثلاثة هي أنوار العلم ومداركه. ورابعها: نعمة اللسان المنطقي والخطي: (الرحمن \* علم القرآن \* خلق الإنسان \* علمه البيان) (الرحمن: 1 - 4) (الذي علم بالقلم) (العلق: 4) (ن، والقلم وما يسطرون) (القلم: 1).

وخامسها: نعمة الرزق: (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) (فاطر: 3) (قل من يرزقكم السموات والأرض، قل الله) (سبا: 24).

وسادسها: -وهذا خاص بالمؤمن- هو نعمة الإيمان والهداية إلى صراط الله المستقيم. ( ... ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون \* فضلاً من الله ونعمة) (الحجرات: 7، 8) (يؤمنون عليكم إن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) (الحجرات: 17).

وسابعها: نعمة الأخوة والمحبة: (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) (آل عمران: 103)، (وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم) (الأنفال: 63). ولقد كان محمد رسول الله أشد الناس إحساساً بنعمة الله وفضله في كل شئونه، ولذا تراه إذا تناول طعامه -وإن كان من خشن الخبز وجاف الشعير- يتناوله تناول الراضي الشاكر، ويقول في ختام الطعام: "الحمد لله الذي أطعنا وسقانا وجعلنا مسلمين" وإذا شرب الماء القراح قال: "الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا".

وإذا اكتسى ثوباً أو عمامة أو نحو ذلك قال: "الحمد لله الذي كساني هذا ورزقني من غير حول مني ولا قوة، اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له".

وإذا ركب دابة قال ما علمه الله إياه: (سيحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون) (الزخرف: 13، 14). وإذا استيقظ من نومه قال "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور".

وإذا قضى ضرورته البشرية وخرج من الخلاء قال: "الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني".

وإذا رأى مبتلى في جسمه أو حواسه قال: "الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه".

وإذا تم له أمر على ما كان يبغى ويريد قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات".

وإذا خاب له رجاء أو حدث له ما يكره بطبيعته البشرية قال: "الحمد لله على كل حال".

وإذا استقبل وجه الصباح قال: "اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وسر، فأتم على نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة، اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك .. فلك الحمد ولك الشكر".

وإذا أظله المساء قال مثل ما قال في الصباح.

فهذا هو شعور المؤمن دائماً، شعور الذاكر للنعمة الله، الشاكر لفضل الله (وما يكمن من نعمة فمن الله) (النحل: 53) (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (إبراهيم: 34).

ولا عجب أن كانت أول آية في كتاب الله الخالد بعد البسملة آية تشعر المؤمنين أبداً بنعمة الله وإحسانه وتوجههم إلى حمده وشكره، تلك هي آية فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين) (الفاتحة: 1)، ولا غرو أن جعل الإسلام تلاوتها فريضة يومية يكررها المسلم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة في صلواته الخمس.

#### المؤمن راض بما قدر الله عليه

والمؤمن كما يغمره الشعور بنعمة الله عليه في كل حين وفي كل حال، لا يفقد هذا الشعور وإن أصابته البأساء والضراء، وهزته زلازل الحياة. إنه راض بما قضى الله له، وما قدر عليه، إيماناً بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا يقضي أمراً يريد به عسراً لعباده، وأنه سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها، وأن الخير المطوي في جوف ما نظنه كارثة وشرأ، وما نكرهه بطبيعتنا البشرية (فصلى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (النساء: 19).

ولقد لمس كثير ممن خالط المسلمين من الغربيين أثر هذا الجانب الاعتقادي -جانب الرضا بالقضاء- في نفس المسلم، واستقباله لكوارث الحياة والآمها، بنفس لا تتضعض، وقلب لا يتحطم.

من ذلك ما كتبه «ف. س. بودلي» تحت عنوان "عشت في جنة الله" قال: "في عام 1918 أوليت ظهري للعالم الذي عرفته طفلة حياتي، ويمت شطر إفريقية الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتك أغناماً، وأنا كما ينأمون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام حتى أنني، ألفت

كتاباً عن محمد صلى الله عليه وسلم عنوانه "الرسول" وقد كانت تلك الأعوام التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي وأحفظها بالسلام والاطمئنان والرضى بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء التغلب على القلق، فهم -بوصفهم مسلمين- يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدتهم هذه الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً.

فهم لا يلقون أنفسهم بين برائن الهم والقلق على أمر، إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون، وأنه لا يصيب الفرد منهم إلا ما كتب الله له، وليس معنى ذلك أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا، ودعني أضرب مثلاً لما أعنيه:

هبة ذات يوم عاصفة عاتية، حملت رمال الصحراء، وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي الرون في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأس ينتزع من منابته، لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيقظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكن العرب لم يشكوا إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم الماثورة: (قضاء مكتوب). ولكنهم ما إن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيقظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فطوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى ... قال رئيس القبيلة: "لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنا خلقاء بأن نفقد كلشيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد".

#### المؤمن راض بما قسم الله له من رزق

والمؤمن راض بما قسم الله له من رزق، وما قدر له من مواهب، وما وهب له من حظ، لأنه مؤمن بعقل الله فيما قسم من أرزاق، وبحكمته فيما وزع من مواهب، ويفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى "القناعة" الذي حث عليه الدين، وأشاد به الحكماء والصالحون. ولقد ظلم الناس غيماً ظلموا.. كلمة "القناعة" فحسبوا الرضا بالدون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالي الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرقي المادي والمعنوي، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان.

وهذا كله، كما بينت في كتابي "مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام" - خطأ واضح، وضلال بعيد. فالحق أن القناعة لا تعني شيئاً من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعني أول ما تعني أمرين:

**أولهما:** أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوي، وقد صور ذلك الحديث النبوي "لو كان لابن آدم وادبان من ذهب، لايتغنى ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب" (رواه البخاري).

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال في السعي للثني، والإجمال في طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن في نفسه وفي حياته، ويمنحه السكينة التي هي سر السعادة، ويجنيه الإفراط والغلو الذي يرهق النفس والبدن معاً، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم "يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم" (رواه ابن ماجه).

ولو ترك الإنسان يستسلم للنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطراً على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع، ومعان أخلد، ورزق أبقي، وذلك هو وظيفة الدين معه: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى) (طه: 131) (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب \* قل أوتيتكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) (آل عمران: 14، 15).

وظيفة الإيمان هنا إن يحد من سورة الحرص والطمع، وطمغان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا في قلق دائم، لا تكفي بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يطفى غلة ظمنها ما عندها فتتمدع عنها إلى ما عند غيرها، ولا يشبعها الحلال فيسيل لعبائها إلى الحرام، مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح، إنها كجهنم -أعاذنا الله منها- تلتهم الملايين في جوفها ثم يقال لها: (هل امتلأت؟! (سورة ق: 30) (وتقول هل من مزيد؟! (سورة ق: 30).

وظيفة الإيمان أن يوجه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحي الذي لا يموت، ويعلم المؤمن إن الغنى -إن كان يندش الغنى- ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو في داخل النفس أولاً، وبذلك ورد الحديث: "ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس" (متفق عليه).

معنى الرضا بما قسم الله

وثاني ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنياً ما لا يتيسر له، متطلعاً إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمني الشيخ إن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميعة إلى الحسنة في غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض قفر، بأطيبعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء إن يكن لهن ما للرجال، فأنزل الله (ولا تمنموا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله) (النساء: 32). وفي حال العسر وضيق الرزق التي تحل بالأفراد، ولا تخلو منها حياة الناس، وفي الأزمات الطارئة التي تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها.

وفي البلاد والدول التي تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها، ولا يهتدي كثير منهم سبيلاً لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده - تكون القناعة بما رزق الله هي الدواء الناجع، والبلسم الشافي، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحاً، ولا علو همة، إنه طمع في غير طمع، وتمن لما لا يكون، وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن.

وهؤلاء في حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السعادة ليست في وفرة أعراض الحياة، ولكنها في داخل النفس، وأولى ما يقال لهم (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس) (قد أفلح من هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً وقنع به) (ما قل وكفى خير مما كثر وألهى).

إن الغنى هو الغنى بنفسه  
ولو أنه عاري المناكب حاف  
ما كل ما فوق البسيطة كافياً  
وإذا قنعت فبعض شيء كاف

إذن ... من القناعة ألا تكون جشعاً شراً، ولا متطعاً إلى ما ليس لك، ولا في طاقة مثلك، وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة التي جعلها الله جزاء للمؤمنين العاملين في الدنيا (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) (التحلى: 97) وقد فسر علي بن أبي طالب الحياة الطيبة بالقناعة.

### قصة وعبرة

ولنقرأ هذه القصة من السيرة (نكرها ابن القيم في "زاد المعاد" عند ذكر الوفود) نجدها ناطقة بما يصنعه الإيمان بقلوب المؤمنين، وكيف حول طموحهم من الدنيا ومتعها ومادتها إلى الله والدار الآخرة.

قدم وقد نجيب -وهم من السكون باليمن- ثلاثة عشر رجلاً مسلماً، فسر بهم النبي صلى الله عليه وسلم وأكرم منزلتهم، وأمر بلالاً إن يحسن ضيافتهم، وجعلوا يسألون النبي ويتعلمون منه، وأقاموا أياماً ولم يطيلوا المكث. رغبة في رجوعهم إلى قومهم، ليعلموهم مما علوهم رسول الله، ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعون: فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود، ثم قال: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم - غلام خلفناه على رحلتنا هو أحدثنا سنأ ... قال: أرسلوه إلينا ... فلما رجعوا إلى رحالهم ... قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض حاجتك منه، فإننا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه.

فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله .. إني امرؤ من بني أبيذ -يقول- من الرهط الذين أتوك أنفاً ففضيت حوائجهم فاقض حاجتي يا رسول الله.

قال: وما حاجتك؟

قال: إن حاجتي ليست كمحاجة أصحابي -وإن كانوا قد قدموا راغبين في الإسلام- وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم. وإني -والله- ما أقدمني من بلادي إلا إن تسأل الله عز وجل إن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غنائي في قلبي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم -وأقبل الغلام- "اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه". ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه. فاتطلقوا راجعين إلى أهلبيهم.

ثم وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى سنة عشر من الهجرة فقالوا: نحن بنو أبيذ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟

قالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثله قط، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها، ولا التفت إليها! فقال الرسول: الحمد لله، أني لأرجو إن يموت جميعاً.

فقال رجل منهم: أو ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟

فقال الرسول -مبيناً لهم إن من الناس من يموت شتتاً موزعاً- تشتعب أهواؤه وسمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك!

قالوا: فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال، وأزدهد في الدنيا، وأقنعه بما رزق الله، فلما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم، ورجع من رجع من أهل اليم من الإسلام، قام في قومه، فذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهو أحد. وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه، حتى بلغت حاله، وما قام به فكتب إلى زياد بن ليبيد يوصيه به خيراً.

هذه قصة شاب عمر الإيمان قليه، فلم يجعل همه ما يشغل كثيراً من الناس من زهرة الحياة الدنيا، بل تعلقته همته بما عند الله، مما هو خير وأبقى. حين طلب حاجته من رسول الله كانت حاجته غير حوائج رفاقه -بل غير حوائج أكثر الناس... كانت حاجة دينه قبل دنياه، حاجة روحه قبل جسده، حاجة معنى الإنسان، لا صورة الإنسان فيه.

حاجته من الرسول: أن يسأل الله له المغفرة والرحمة وأن يجعل غناه في قلبه!

حاجة -ولا ريب- قرت بها عين رسول الله. وقد ودعه وعاد إلى أهله ووطنه، ولكن الرسول الخبير بنفوس الرجال، لم ينس هذا الشاب، على بعد المكان، ومرور الزمان.

وفي موسم الحج سأل عنه قومه سؤال العربي العارف عن التلميذ النجيب، وأجابوه بما سر قلبه وحمد الله عليه، وقال فيه كلمته الناصعة الفريدة "إني لأرجو أن يموت جميعاً".

والناس يموتون على ما عاشوا عليه فممن عاش جميعاً مات جميعاً، ومن عاش أوزاعاً شتى وأجزاء متناثرة مات كما عاش. وقليل من الناس، بل أقل من القليل؛ ذلك الذي يعيش لغاية واحدة، ويجمع همومه في هم واحد. يحيا له، ويموت عليه، ذلك هو المؤمن البصير الذي جعل غايته القرار إلى الله، وسبيله اتباع ما رسم الله، وكل شيء فيه لله، وبالله، ونشيد: (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين \* قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء؟) (الأنعام: 162، 163) هذا -ولا نجد غيره- هو الذي يعيش جميعاً ويموت جميعاً! .

#### الرضا مصدر قوة لصاحبه

وقيل أن ندع الحديث عن الرضا والقناعة لآبد إن نقول كلمتين:

**الأولى:** أن القناعة بالقليل من الرزق ليست مصدر ضعف. كما يتوهم قصار النظر من الناس، كلا إنها مصدر قوة لأصحاب المبادئ، وحملة الرسالات المكافحين، الذين يتعرضون للاضطهاد والمصادرة والحرمان، فترى أحدهم يخوض المعركة ضد الباطل والظلم، صلب العود، متين البنيان، ثابت القدم، لأنه يعلم من نفسه أن القليل يكفيه مما جنب من الطعام، وما خشن من اللباس. وشظف من العيش.

إنه ينظر إلى قصور الأمراء، وخرائن الملوك، ورياش المترفين، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة في أعالي الفضاء إلى القرى والمدن والناس، إنه يرى القصور الشاهقة كالعطب الصغيرة، ويرى البشر كالنمل في جحوره.

وقد قال حكيم شرقي لأحد تلاميذه: عش على أرز وماء، متخذاً من ذراعك المطوية وسادة تكن نشوة النفس نصيبك، وأما الثراء الذي ساءت ولسانه، والأمجاد التي جاءتك عن طرائق السوء فكالسحاب العائرة، لا خصب فيها ولا نماء.

ومما حكى عن المسيح عليه السلام أنه كان يقول: لباسي الصوف، وطعامي الشعير، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، ووسادتي نراعي... أبييت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على وجه الأرض أغنى مني!!

وصاحب المبدأ والرسالة إذا تمكنت هذه القناعة من نفسه لم يعد يبالي أو يخاف، إنه يتغنى بما تغنى به الإمام الشافعي:

أنا إن عشت لمست أعدم قوتنا	وإذا مت لمست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي	نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري	فلماذا أخاف زيدا وعمرًا؟

ويحكي الإمام الغزالي في كتاب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" من أحيائه أن شيخاً كان يمشي في الطريق يلتقط النوى من الأرض فكسر «عوداً» مع خادم يحمله إلى جارية من جواري هارون الرشيد، تغنى عليه، وبلغ الخبر الرشيد، فاستشاط غضباً واحمرت عيناه، وأرسل لياتوا إليه بالشيخ، فجاء الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال الشيخ: نعم. قال: اركب فقال: لا.

فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر، فغير الرشيد مجلسه، ثم أمر بالشيخ فأدخل. وفي كفه الكيس الذي فيه النوى. فقال له الخادم: أخرج هذا من كحك وأدخل على أمير المؤمنين، فقال: من هذا عشائي الليلة.

قال: نحن نعشيك.

قال: لا حاجة لي في عشائك.

فقال الرشيد للخادم: أي شيء تريد منه؟

قال: في كفه نوى قلت له اطرحه وأدخل على أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: دعه لا يطرحه.

فدخل وسلم وجلس، فقال له هارون: يا شيخ ما حملك على ما صنعت؟

قال: وأي شيء صنعت؟

وجعل هارون يستحي أن يقول: كسرت عودي!

فلما أكثر عليه قال: إني سمعت آباءك وأجدادك يقرأون هذه الآية على المنبر: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) (النحل: 90) وأنا رأيت منكراً فغيرته. فقال له هارون: فغيره.

قال راوي القصة: فو الله ما قال إلا هذا. فلما خرج أعطى الخليفة رجلاً بدره (عشرة آلاف درهم).

وقال: اتبع الشيخ، فإن رأيته يقول: قلت لأمير المؤمنين وقال لي، فلا تعطه شيئاً، وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البدره. فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً. فقال له: يقول لك أمير المؤمنين: خذ هذه البدره. فقال: قل لأمير المؤمنين يردّها من حيث أخذها.

ويروى أنه أقبل، بعد فراغه من كلامه - على النواة التي يعالج قلعتها من الأرض وهو يقول:

أرى الدنيا لمن هي في يديه	هوماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها يصغر	وتكرم كل من هانت عليه
إذا استقنيت عن شيء فدعه	وخذ ما أنت محتاج إليه

يمثل هذه النفس التي تتفتح بالتقاط النوى من الأرض وترفض قبول الآلاف من الخلفاء والملوك، تعلو كلمة الحق، وتتصغر المبادئ، والرسالات.

#### الرضا لا يقتضي السكوت على الباطل

**والكلمة الثانية:** أن رضا الإنسان عن الله، وعن السير العام للكون والحياة. لا يستلزم الرضا عن كل ما يراه على مسرح الحياة من شذوذ وانحراف جزئي مصدره هذا الإنسان المكلف المختار.

إن رضا الإنسان عن السيارات وركوبها، ليس معناه الرضا عما تسببه من حوادث، وما يرتكبه سائقوها من مخالفات لقواعد المرور وآداب الطريق. لقد رضي المؤمن عن نظام الله في الكون. ومن هذا النظام ما منح الله من عقل واختيار للإنسان على أساسها يتحمل المسؤولية، ويكون أهلاً للزجر والثورة عليه، وتأديبه وتقويمه.

فالمؤمن راض عن نظام الوجود، ساخط على انحراف الإنسان الذي لم يقم بشكر الله على نعمة العقل والإرادة التي منحها. بل سخر نعمة الله في غير ما خلقت له.



وهذا السخط على الشذوذ والانحراف البشري سخط يرضاه الله، بل يأمر به، ويتوعد المهدرين له، والساكنتين عنه، بالعذاب الشديد (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم) (هود: 116) (لئن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون \* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون) (المائدة: 78، 79).

### الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

#### الفصل الخامس - الأمن النفسي

- أهمية الأمن النفسي لتحقيق السعادة والسكينة
- مخاوف الملحدِين والشاكِين
- نموذج للخوف والاضطراب
- المؤمن آمن على رزقه
- نموذج للأمن والاستقرار
- المؤمن آمن على أجله
- الإيمان مصدر الأمان
- المؤمن لا يخاف الموت

#### أهمية الأمن النفسي لتحقيق السعادة والسكينة

(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (الأنعام : 82).

كما لا يتحسر المؤمن على الماضي باكياً حزيناً، ولا يلقي الحاضر جزوعاً ساخطاً، لا يواجه المستقبل خائفاً وجللاً، ولا يعيش في فزع منه، ورهبة من غموضه، وتوجس من جبروته، كانه عدو شرير متربص، بل يعيش آمن النفس كانه في الجنة ... إن إيمانه كان مصدر أمنه، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة بل هو نوع منها، إنه طمأنينة تتطابق بالمستقبل، بكل ما يتوقعه الإنسان ويخاف منه، أو يخاف عليه، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسي ... وقد قيل لحكيم: ما السرور؟ فقال: الأمن ... فإني وجدت الخائف لا عيش له.

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين، فأهلها في الغرفات آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى (ادخلوها بسلام آمنين) (الحجر: 46).

ولكي تعلم مدى ما يضيفه الإيمان من أمن وسلام على نفس صاحبه، ولكي تكون الموازنة بينة ظاهرة بين المؤمن وغيره، أحب أن نقرأ بتأمل هذه السطور التالية (مقتبسة بتصرف من يوميات للأستاذ محمد زكي عبد القادر على لسان صديق أودعه مذكراته):

#### نموذج للخوف والاضطراب

"إنني أعيش في خوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطاها ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المرأة، ولا الحب، ولا السهرات الحمراء ... ضقت بكل شيء، بعد أن جريت كل شيء.

إنني أكره نفسي، أخاف من نفس، ألا ترى الأشباح من حولي؟ ألا تحس بالخوف يفتح فمه لكي يلتهمني؟

مم هذا؟ الهموم؟ ليست لي هموم. إن همي الأكبر هو هذه الدنيا، المال عندي، المركز والجاه، والصحة، والمرأة والجمال، و... كل شيء بين يدي، كل شيء ملكي، لماذا أنا خائف إذن؟ مم أخاف؟

من الله؟ كلا، إن الله لا وجود له في حياتي، مم إذن أخاف؟ من المجتمع؟ إنني أكرهه وأحتقره وأهزأ به، من أين يأتيني الخوف إذن، من الموت؟ ربما، ولكني لا أبالي به، لا أشعر أنني أخافه، إنه عندي مجرد ظاهرة، من أين يأتي الخوف إذن؟

ربما كنت خائفاً لأنه لا يوجد شيء أخاف منه، ربما كنت خائفاً لأن كل شيء بين يدي، محضر لدي، إن الامتلاء كالجوع كلاهما يخيف! لو كان المال ليس حاضراً لدي لثميتته وسعيت من أجله، وأنفقت يومي وليلي أسعى من أجله... لو كان المركز المحترم بعيداً عني لبذلت جهدي لكي أبلغه، ولكن كل شيء موجود: المال، المرأة، الأصدقاء، الاحترام. كل ما يسعى الناس إليه ويفكرون فيه ميسر لي، ليس لي ما يشغلني أو يتعيني الحصول عليه... حياتي فضاء... همومي؟ لا هموم لي... إذن لابد أن أخاف، لأنني لا أجد ما أخاف منه، لابد أن أخاف من المجهول الذي لا أعرفه...

إنني تائه في الحياة لأنني بلغت قمة الحياة... إن الحياة الآن هي عدوي... ليس ما في الحياة، فكله ملكته... إنني أشعر أنها تسخر مني، وتقف في وجهي كالغول... عرفت الآن مم أخاف... إنني أخاف من الحياة ذاتها".

### نموذج للأمن والاستقرار

هذا نموذج واضح الظلال لنفسية أولئك المحرومين من حلوة الإيمان، ويرد اليقين، وهو يصور لنا ما يعانیه هؤلاء من رعب وخوف وقلق وتعب نفس لم يخفف وطأته عليهم وفرة المال والجاه وتعيم الدنيا كله.

وتقرأ في مقابل هذا نموذجاً رسمه القرآن لأم مؤمنة أوحى الله إليها أن تلقى بولدها وفلذة كبدها في عرض البحر، ووعدها برده إليها، فاستجابت لإيمانها، وصدقت بكلمات ربها ووعد، وقفت في التابوت، ثم في اليم، ليلقيه اليم بالساحل، ليأخذه عدوه المتربص، كل هذا وقلبي مطمئن بالإيمان. تقرأ في هذا قول الله سبحانه وتعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين \* فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) (القصص: 7، 8) واستجابت الأم وصدقها الله وعد: (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) (القصص: 12).

### الإيمان مصدر الأمان

إن الناس يخافون من أشياء كثيرة، وأمور شتى، ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها. فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون فرط في حقه، أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم، لأنهم لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. دعا أبو الأنبياء إبراهيم إلى توحيد الله، وتحطيم الأصنام، فخوفه قومه من آلهتهم التي دعا إلى نبذها، فقال إبراهيم متعجباً: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأى الفريقين أحق بالأمن، إن كنتم تعلمون؟) (الأنعام: 81) وقد عقب الله على ذلك حكماً بين الفريقين فقال: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) (الأنعام: 82).

وفسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم في هذه الآية بالشرك: (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان: 13).

فيبين لنا أن الإيمان والتوحيد هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة، وبالتالي يكون الجحود بالله أو الشك فيه، أو الشرك به، أعظم أسباب الخوف والاضطراب والرب. وصلى الله إذ قال: (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوأ بالله ما لم ينزل به سلطاناً) (آل عمران: 151).

### مخاوف الملحدون والشاكنين

والملحدون الجاحدون أكثر الناس مخاوف -وإن كنتموها عن الناس- إنهم يخافون الزمن والكوارث، والفقر والمرض والناس، وأشد ما يخيفهم الموت، فهم ينظرون إليه نظرتهم إلى سبع فاتك، وعدو متربص، ونهاية مجهولة، ومصير مخوف.

قال الفيلسوف الأخلاقي ابن مسكويه: "إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري الموت على الحقيقة، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه. أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه، فقد انحلت ذاته، وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور. وإن العالم سيبقى موجوداً. وليس هو بموجود فيه كما يظنه من جهل بقاء النفس وكيفية المعاد. أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً، غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه. وكانت سبب حلوله. أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت، أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت. أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات. وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها".

ظنون باطلة. ولكن المنكرين والشاكنين يعيشون في هذه الظنون. ويموتون على هذه الأباطيل. وهم بين الموت والحياة في قلق وخوف واضطراب. على حين تجد المؤمن أقل الناس خوفاً وأشدهم أمناً.

### المؤمن آمن على رزقه

هو آمن على رزقه أن يفوت فإن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده. ولا يضيع عبده. وقد خلق الأرض مهاداً وفراشاً وبساطاً. وبارك فيها وقدر فيها أوقاتها. وجعل فيها معاش. ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق وعداً كرره وأكده وأقسم عليه. وعد كريم لا يبخل. قدير لا يعجز. حكيم لا يعبث: (وكان وعد ربي حقاً) (الكهف: 98)، (وعد الله، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم: 6)، (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (الذاريات: 58)، (وفي السماء رزقكم وما توعدون \* فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) (الذاريات: 22، 23)، (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) (هود: 6)، (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم) (العنكبوت: 60).

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمناً على رزقه. مطمئناً إلى أن الله لن يهلكه جوعاً. وهو الذي يطعم الطير في الوكنات - والسباع في القنات - والأسماك في البحار. والديان في الصخور.

ولقد كان المؤمن يذهب إلى ميدان الجهاد حاملاً رأسه على كفه متمنياً الموت في سبيل عقيدته، ومن خلفه ذرية ضعاف، وأفراخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر، ولكنه كان يوقن أنه يتركهم في رعاية رب كريم، هو أبر بهم وأحنى عليهم منه.

وتقول الزوجة عن زوجها وهو ذاهب في سبيل الله: إنني عرفته أغلاً وما عرفته رزاقاً، ولئن ذهب أكلالاً لقد بقي الرزاق!

### المؤمن آمن على أجله

وهو آمن على أجله، فإن الله قدر له ميقاتاً مسمى، أياماً معدودة وأنفاساً محدودة. لا تملك قوه أن تنقص من هذا الميقات أو تزيد فيه (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة، ولا يستقدمون) (الأعراف: 34)، (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) (المنافقون: 11)، (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون) (نوح: 4)، (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) (فاطر: 11).

أيقن المؤمن أن الله قد فرغ من الأجل والأعمار، وكتب على كل نفس متى تموت وأين تموت.

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وبهذا ألقى عن كاهله هم التفكير في الموت والخوف على الحياة.

هذا الأمن على الرزق والأجل منح المؤمن السكينة والطمأنينة، كما منحه القوة في مواجهة الحياة وما فيها من طغيان وجبروت. هدد الحجاج سعيد بن جببر بالقتل فقال له: لو علمت أن الموت والحياة في يدك ما عبدت إلها غيرك!

المؤمن لا يخاف الموت

وهو كذلك لا يعيش في خوف من الموت، وجزع من مرارة كاسه، إنه زائر لابد من لقائه، وقادم لا ريب فيه، والخوف لا يردده، والجزع لا يشيه، (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) (الجمعة: 8)، (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (النساء: 78)، (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) (آل عمران: 154).

ويهون الموت على المؤمن أنه سبيل الناس قبله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فلا عليه إذا افتقأ أثرهم، وسار في دربهم ... إن الموت خطب قد عظم حتى هان وخشن حتى لان، إنه بلية عمت، والبلايا إذا عمت طابت، (أنك ميت وإنهم ميتون) (الزمر: 30). ومتاع الدنيا أهون عند المؤمن من أن يأسى على فراقه بالموت، كيف والموت قططرته إلى المتاع الباقي، والتعيم السرمدي؟ (كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجروكم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا ألا متاع الغرور) (آل عمران: 185) (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى ولا تظلمون فتيلاً) (النساء: 77).

فالموت ليس عدماً محضاً، ولا فناءً صرفاً، إنه انتقال من حياة إلى حياة، ومن طور إلى طور، وفي الآخر "إنكم خلقتُم للأبد. وإنما تتقلون من دار إلى دار".

وما الموت إلا رحمة غير أنها من المنزل الغالي إلى المنزل الباقي

الموت انطلاق من قفص الجسد وغلافه في الحياة البرزخية- ثم عودة إليه في نشأة أخرى يوم البعث والنشور، ولقد روي أن أحد الصالحين حين أحس بدنو أجله قام فاغتسل وتطيب وصلى ركعتين، وما هي إلا برهة حتى دخلوا عليه فوجدوه قد مات مستقبلاً القبلة، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات:

قل لآخوان رأوني ميتاً	فيكوني ورثوني حزناً
أتظنون بأني ميتكم؟	ليس هذا الميت والله، أنا
أنا في الصور وهذا جسدي	كان ثوبي وقميصي زمناً
أنا عصفور وهذا قفصي	طرت عنه وبقي مرتهنا
أحمد الله الذي خلصني	وبنى لي في المعالي مسكناً
لا تظنوا الموت موتاً، إنه	ليس إلا نقلة من هاهنا!

وقال جلال الدين الرومي في بيان سر الموت، وحكمة فناء الأجساد قبل حياة الخلود والبقاء: "إن العمران لا يكون إلا بعد الخراب، وإن الكنز الثمين لا يعثر عليه إلا بعد حفر الأرض وإثارتها، فإذا رأيت بيتاً يهدم ويخرب فاعلم أن هناك تصميمًا جديدًا وبناءً جديدًا، إنما خرب البيت ليستخرج منه الكنز الدفين، وتعمره عمارة جديدة" "إن الشجرة لا تعطي الأثمار حتى تتفتح وتسقط الأزهار، كذلك الروح لا تقوى ولا تجد، ولا تلبس كسوة جديدة قشبية حتى يتهدم الجسم الفاني، ويخلع العمر البالي" (من كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" ص 279 نقلاً عن المثنوي). "إن الله -هو الجواد المطلق- لا يسلب نعمة أنعم بها إلا وهو يعطي نعمة أكبر منها، فلا يسلب هذه الحياة الضعيفة القيمة التي لا تستحق أن تسمى الحياة الباقية إلا ويعطي حياة أوسع وأبقى وأجمل وأفضل".

وقال يحيى بن معاذ "لا يكره لقاء الموت إلا مريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب".

ولم تكن هذه نظرة الخاصة أو المتفلسفة أو المتصوفة فقط للموت، ولكنها كانت نظرة جمهور المؤمنين.

قيل لأعرابي اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بي بعد الموت؟ قالوا: إلى الله، فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

وصدق الله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون \* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون \* نزلاً من غفور رحيم) (فصلت: 30 - 32).

#### الباب الثاني: أثر الإيمان في حياة الفرد

##### الفصل السادس - الأمل

- أهمية الأمل في تحقيق السكينة والسعادة
- الإيمان بلد الأمل
- تلازم اليأس والكفر
- ضرورة الأمل في الحياة

أهمية الأمل في تحقيق السكينة والسعادة

ومن مصادر الأمن والسكينة لدى المؤمن: ما يغمر جوانحه من أمل ذلك الشعاع الذي يلوح للإنسان في دياجير الحياة فيضيء له الظلمات، وينير له المعالم ويهديه السبيل، ذلك هو الأمل، الذي به تنمو شجرة الحياة، ويرتفع صرح العمران، ويذوق المرء طعم السعادة، ويحس ببهجة الحياة.

الأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل، وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب، وتبعث النشاط في الروح والبدن، وتدفع الكسول إلى الجد، والمجد إلى المداومة على جده، والزيادة فيه تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه. إن الذي يدفع الزارع إلى الكدح والعرق أمله في الحصاد، والذي يغري التاجر، بالأسفار والمخاطر، أمله في الربح، والذي يبعث الطالب إلى الجد والمثابرة أمله في النجاح، والذي يحفز الجندي إلى الاستبسال أمله في النصر، والذي يهون على الشعب المستبعد تكاليف الجهاد أمله في التحرر، والذي يحجب إلى المريض الدواء المر أمله في العافية، والذي يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه أمله في رضوانه وجنته. الأمل إذن هو إكسير الحياة، ودافع نشاطها، ومخفف ويلاتها، وباعث البهجة والسرور فيها.

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

والأمل قبل ذلك كله- شيء حلو المذاق، جميل المحيا في ذاته، تحقق أو لم يتحقق. واستمع إلى الشاعر العاشق يقول:

أمانتي من ليلى عذاب كاتما      سقتني بها ليلى على ظمأ بردا  
مني إن تكن حقاً تكن أحسن المني      وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وضد الأمل اليأس .. وهو انطفاء جذوة الأمل في الصدر، وانقطاع خيط الرجاء في القلب، فهو العقبة الكنود والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل. ويوهي في الجسد دواعي القوة، ورحم الله من قال:

واليأس يحدث في أعضاء صاحبه      ضعفاً ويورث أهل العزم توهينا

وقال ابن مسعود: "الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب" ... والقنوط هو اليأس، والعجب هو الإعجاب بالنفس والغرور بما قدمته. قال الإمام الغزالي: (إنما جمع بينهما: لأن السعادة لا تتال إلا بالسعي والطلب، والجد والتشمر، والقنوط لا يسعى ولا يطلب، "لأن ما يطلبه مستحيل في نظره". والمعجب يعتقد أنه قد سعى وأنه قد ظفر بمراحه، فلا يسعى، فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة، ومستحيلة في اعتقاد القنوط ... فمن ههنا جمع بينهما).

ومصدق هذا الكلام في الحياة جلي واضح: إذا بنس التلميذ من النجاح .. نفر من الكتاب والقلم، وضاق بالمدرسة والبيت، ولم يعد ينفعه درس خاص يتلقاه، أو نصيح يسدى إليه، أو تهينة المكان والجو المناسب لاستذكاره، أو ... أو ... إلا أن يعود الأمل إليه. وإذا بنس المريض من الشفاء كره الدواء والطبيب، والعبادة والصيدلية، وضاق بالحياة والأحياء. ولم يعد يجديه علاج، إلا أن يعود الأمل إليه. وهكذا إذا تغلب اليأس على إنسان -أي إنسان- اسودت الدنيا في وجهه وأظلمت في عينيه، وأغلقت أمامه الأبواب، وتقطعت دونه الأسباب، وضافت عليه الأرض بما رحبت:

وأصبح لا يدرى وإن كان دارياً      أقدامه خير له أم وراءه؟

ذلك هو اليأس: سم بطيء لروح الإنسان، وإعصار مدمر لنشاط الإنسان، وتلك حال اليائسين أبدا الدهر: لا إنتاج للحياة، ولا إحساس بمعنى الحياة.

### تلازم اليأس والكفر

وليس عجيب أن تجد هذا الصنف من الناس بوفرة وغزارة بين الجاحدين بالله أو ضعاف الإيمان به: لأنهم عاشوا بأنفسهم فحسب -زعموا- وقطعوا الصلة بالكون ورب الكون، فلا غرو أن تجد هؤلاء الكافرين أيأس الناس. كما نجد اليائسين أكفر الناس، فهناك ارتباط بين اليأس والكفر، كلاهما سبب للآخر وثمرة له: اليأس يلد الكفر والكفر يلد اليأس: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف: 87) (ومن يقطع من رحمة ربه إلا الضالون) (الحجر: 56).

وأظهر ما يتجلى هذا اليأس في الشدة ونزول الشر، وقد كرر القرآن ذمه لهذا النوع من الناس فقال: (ولين أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤسف كفور) (هود: 9)، ثم استثنى من ذلك بعد: (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) (هود: 11)، وقال: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض وإنه لجانيه، وإذا مسه الشر كان يؤسفاً) (الإسراء: 83)، (وإن مسه الشر فيؤنس قنوطاً) (فصلت: 49).

وليس اليأس من لوازم الكفر فحسب، بل من لوازم الشك أيضاً. فكل من فقد اليقين الجازم بالله ولقائه، وحكمته وعدله، فقد حرم الأمل والنظرة المتفائلة للناس والكون والحياة، وعاش ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم، ويرى الأرض غابة والناس وحشاً والعيش عبثاً لا يطاق ... على نحو ما قال أبو العلاء:

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وقال:

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود قالميت للودود والمولود للودود!

### الإيمان يلد الأمل

وفي الجانب الآخر نجد الإيمان والأمل متلازمين، فالمؤمن أوسع الناس أملاً، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشاراً، وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضجر، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بقوة عليا تدبر هذا الكون لا يخفى عليها شيء، ولا تعجز عن شيء، الاعتقاد بقوة غير محصورة، ورحمة غير متناهية، وكرم غير محدود، الاعتقاد بأنه قدير رحيم، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، يمنح الجزيل، ويغفر الذنوب، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، إله هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأبر بخلقه من أنفسهم.

إله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

إله يفرح بتوبة عبده أشد من فرحة الضال إذا وجد، والغائب إذا وفد، والظمان إذا ورد.

إله يجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف أو يزيد، ويجزي السيئة بمثلها أو يعفو.

إله يدعو المعرض عنه من قريب، ويتلقى المقبل عليه من بعيد، ويقول: "أنا عند ظن عبي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وأن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم، وأن تقرب إلى شبرا تقرب إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقرب إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (حديث قدسي رواه البخاري وغيره).

إله يداول الأيام بين الناس. فيبذل من بعد الخوف أمناً، ومن بعد الضعف قوة، ويجعل من كل ضيق فرجاً، ومن كل هم مخرجاً، ومع كل عسر يسراً. المؤمن الذي يعتصم بهذا الإله البر الرحيم، العزيز الكريم، الغفور الودود، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد - يعيش على أمل لا حد له، ورجاء لا تنقضم عراه. إنه دائماً متفائل، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك، ويستقبل أحداثها بثغر باسم، لا بوجه عبوس قمطير. فهو إذا حارب كان واثقاً بالنصر، لأنه مع الله فانه معه، ولأنه لله فانه له (إنهم لهم المنصورون \* وإن جندنا لهم الغالبون) (الصفات: 172، 173).

وإذا مرض لم ينقطع أمله في العافية (الذي خلقتي فهو يهدين \* والذي هو يطعمني ويسقين \* وإذا مرضت فهو يشفين) (الشعراء: 78 - 80). وإذا افتقر ذنباً لم يياس من المغفرة، ومهما يكن ذنبه عظيماً فإن عفو الله أعظم (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر: 53).

وهو إذا أعسر لم يزل يؤمل في اليسر (فإن مع العسر يسراً \* إن مع العسر يسراً) (الشرح: 5، 6). ولن يقلب عسر يسرين أبداً. قال ابن مسعود: لو دخل العسر جحراً لتبعه اليسر.

وهو إذا انتابته كارثة من كوارث الزمن كان على رجاء من الله أن يأجره في مصيبتيه ويخلفه خيراً منها (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون \* أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) (البقرة: 156، 157).

وهو إذا عادى أو كره، كان قريباً إلى الصلة والسلام، راجياً في الصفاء والنام، مؤمناً بأن الله يحول القلوب (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير، والله غفور رحيم) (الممتحنة: 7).

وهو إذا رأى الباطل يقوم في غفلة الحق أيقن أن الباطل إلى زوال، وأن الحق إلى ظهور وانتصار (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (الأنبياء: 18)، (فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) (الرعد: 17).

وهو إذا أدركته الشيخوخة، واشتعل رأسه شيباً. لم ينفك يرجو حياة أخرى فيها شباب بلا هرم، وحياة بلا موت، وسعادة بلا شقاء (جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب، إنه كان وعده مأتياً \* لا يسمعون فيها لنقاً إلا سلاماً، ولهم رزقهم فيها بكرة عشياً) (مریم: 61، 62). إن الماديين يققون عند السنن المعتادة، والأسباب الظاهرة، لا يطعمون في شيء ورأه، أما المؤمنون فيعملون على ظواهر الأسباب، وينفقون إلى سر الوجود، إلى الله خالق الأسباب والمسببات، الذي عنده من الأسباب الباطنة ما يخفى على إدراك عباده، فلماذا لا تتجه قلوبهم إليه حين تدلهم الأزمات، وتستحكم الحلقات، ويضيق على أعناقهم الخناق؟.

إنهم يجدون فيه الملاذ في الشدة. والآنيس في الوحدة، والنصير في القلة. يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء، ويدعوه آمل الشفاء.



ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فانت، والوعوض من كل مفقود.

ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظالمه، فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب.

ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة.

وكل واحد من هؤلاء أمل في أن يجاب إلى ما طلب، ويحقق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة الله ببعد، وما ذلك على الله بعزير. طلب إبراهيم الولد وهو شيخ كبير (رب هب لي من الصالحين) (الصفات: 100) فاستجاب الله له وبعث إليه الملائكة، في صورة ضيوف من البشر فقالوا له (إنا نبشرك بغلام عليم \* قال أبشركموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون \* قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القاطنين \* قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) (الحجر: 53 - 56).

وقد أتى على ربه فقال: (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء) (إبراهيم: 39). ويعقوب بعد أن طلعت غيبة ولده يوسف عنه، وبعدت مسافة الزمن بينه وبينه، وكان جديراً أن يفقد الأمل في لقائه، ثم فجع بحجز شقيقه من بعده في حادثة صواع الملك، لكنه مع هذا لم يتسرب إلى فؤاده اليأس، بل قال: (فصبر جميل، عسى الله أن ياتيني بهم جميعاً، إنه هو العليم الحكيم) (يوسف: 83).

وحين أبدى أسفه على ابنه يوسف قال له أبناؤه: (تالله تفتخرا تذكر يوسف حتى تكون حرجاً أو تكون من الهالكين \* قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) (يوسف: 85، 86). ثم ألقى إلى أبناؤه بحقيقة ما في نفسه من أمل حلو تعزذه الثقة بالله أن يجمع شمله بأبنائه فقال: (يا بني أذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تياسوا من روح الله، إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف: 87).

(ذكر رحمة ربك عبده زكريا \* إذ نادى ربه نداءً خفياً \* قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً \* واني خفت الموالى من وراني وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً \* يرثني ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضياً) (مريم: 2 - 6) فاستجابت له السماء: (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً) (مريم: 7).

(وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين \* فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) (الأنبياء: 83، 84).

ويونس قد ابتلعه الحوت (فتدأى في الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين \* فاستجبنا له ونجيناها من الغم، وكذلك نجني المؤمنين) (الأنبياء: 87، 88).

وموسى حين يسري بقومه لينجو بهم من فرعون وجنوده، فيعلمون بسراه ويحشدون الحشود ليدركوه (فاتبعوهم مشرقيين \* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون) (الشعراء: 60، 61) وأي إدراك أكثر من هذا؟ البحر من أمامهم والعدو من ورائهم!! بيد أن موسى لم يفرع ولم يياس، بل قال (كلا، إن معي ربي سيهدين) (الشعراء: 62) ولم يضع أمله سدى ... (فأوحينا إلى موسى أن أضرب بصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين \* إن في ذلك لآية) (الشعراء: 63 - 67).

ومحمد بلجاً إلى غار ثور في هجرته مع صاحبه الصديق، ويقتفي المشركون آثار قدميه، ويقول قائلهم: لم يعد محمد هذا الموضع .. فإما صعد إلى السماء من هنا، وإما هبط إلى الأرض من هنا ... ويشد خوف الصديق على صاحب الدعوة وخاتم النبيين ويبيى ويقول: لو نظر أحدكم تحت قدميه لرأنا، فيقول له النبي: "ما ظنك يا ثنين الله ثالثهما"، وكانت العاقبة ما ذكره القرآن ((لا تتصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم) (التوبة: 40).

وهذه وقائع عرفها التاريخ الذي لا شك فيه، وربما أنكر الماديون بعضها أو كلها، لأنها تخرج على الأسباب المعتادة للناس، غير أن المؤمنين يوقنون أن الأسباب المعتادة لا تحد قدرة الله المطلقة، وليس ثباتها واجباً عقلياً لا يقبل الانكسار، ولو جمد العلماء والمخترعون على ما اعتاده الناس، وما تعارفوا عليه في عصرهم، ما تقدم العلم شبراً ولا فتراً، وما وصلنا إلى عصر الذرة والفضاء

### ضرورة الأمل في الحياة

الأمل لابد منه لتقدم العلوم، فلو وقف عباقرة العلم والاختراع عند مقررات زمنهم ولم ينظروا إلا إلى مواضع أقدامهم، ولم يمدهم الأمل بروحه في كشف المجهول، واكتساب الجديد من الحقائق والمعارف، ما خطا العلم خطواته الرائعة إلى الأمام ووصل للإنسان إلى القمر. والأمل لابد منه لنجاح الرسالات والنهضات، وإذا فقد المصلح أمله فقد دخل المعركة بلا سلاح يقاتل به، بل بلا يد تمسك بالسلاح، فأني يرتقب له انتصار وفلاح؟

وإذا استصحب الأمل فإن الصعب سيهون، والبعيد سيدنو، والأيام تقرب البعيد، والزمن جزء من العلاج.

والمثل الأعلى للمصلحين سيدنا رسول الله صلوات الله عليه:

ظل في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو قومه إلى الإسلام، فيلقون دعوته بالاستهزاء، وقرأته باللغو فيه، وحججه بالأكاذيب، وآياته بالتعنت والعناد، وأصحابه بالآذى والعذاب، فما لانت له قناة، ولا انطفأ في صدره أمل.

اشتد أذى المشركين لأصحابه، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم في ثقة ويقين: "تفرقوا في الأرض وإن الله سيجمعكم". وجاءه أحد أصحابه "خباب بن الأرت" وكانت مولاته تكوي ظهره بالحديد المحمي فضاق بهذا العذاب المتكرر ذرعاً، وقال للرسول في ألم: ألا تدعو لنا؟ كأنه يستبطن سير الزمن ويستحث خطاه ويريد حسم الموقف بين الإيمان والشرك بدعوة محمدية تهتزل لها قوائم العرش، فينزل الله بأسه بالقوم المجرمين كما أنزله بعدا وثمود والذين من بعدهم.

وغضب النبي صلى الله عليه وسلم لهذه العجلة من صاحبه. وألقى عليه درساً في الصبر على أساء اليوم، والأمل في نصر الغد، فقال: "إن الرجل قبلكم كان يمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، وينشر بالمنتشار فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه. والذي نفسي بيده ليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذنب على غممه ... ولكم تستعجلون!!". وفي الهجرة من مكة، والنبي خارج من بلده خروج المطارد المضطهد الذي يغير الطريق، ويأوي إلى الغار، ويسير بالليل، ويختفي بالنهار ... وفي الطريق يلحقه الفارس المغامر سراقفة بن مالك وفي رأسه أحلام سعيدة بمائة ناقة من حمر النعم جائزة فريش لمن يأتي برأس محمد حياً أو ميتاً.

ولكن قوائم جواده تسوخ في الأرض ويدركه الوهن، وينظر إليه الرسول، ويكشف الله له عن الغيب المستور لدينه فيقول له: "يا سراقه كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرى؟" فيعجب الرجل ويبهت ويقول: كسرى بن هرمز؟ فيقول: "نعم". ويذهب الرسول إلى المدينة، ويبدأ في كفاح دام مرير مع طواغيت الشرك، وأعوان الضلال، وتسير الحرب كما هي سنة الله- سجالاً. حتى تأتي غزوة الأحزاب فيتألبب الشرك الوثني بكل عناصره، والغدر اليهودي بكل تاريخه، ويشد الأمر على النبي وأصحابه: قريش وغطفان ومن يحطب في جبلهما من خارج المدينة، واليهود والمنافقون من الداخل. موقف عصيب صوره القرآن بقوله: (إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا \* هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) (الأحزاب: 10، 11) في هذه الساعات الرهيبة التي يذوي فيها عود الأمل، ويخيو شعاع الرجاء، ولا يفكر المرء إلا في الخلاص والنجاة ... في هذه اللحظات والنبي يسهم مع أصحابه في حفر الخندق حول المدينة يصدون بحفره الغزاة، ويعوقون الطامعين العتاة - يحدث النبي أصحابه عن الغد المأمول، والمستقبل المرجو حين يفتح الله عليهم بلاد كسرى بفارس، وبلاد قيصر بالشام، وبلاد اليمن بالجزيرة، حديث الواثق المطمئن الذي أثار أرباب النفاق فقالوا في ضيق وحق: إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الخلاء وحده! أو كما قال القرآن: (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) (الأحزاب: 12).

ماذا تسمي هذا الشعاع الذي يزرغ في دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة، فينير الطريق ويبدد الظلام؟ إنه الأمل، وإن شئت فهو الإيمان بنصر الله: (ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم \* وعد الله، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم: 5، 6).

### الباب الثاني : أثر الإيمان في حياة الفرد

#### الفصل السابع - الإيمان والحب

- قيمة الحب وأهميته في تحقيق السعادة
- حب الناس
- حب الله
- حب الطبيعة
- حب الحياة
- حب الموت
- المؤمن سليم الصدر لا يحسد ولا يحقد
- الإيثار من خصائص المؤمنين
- عاطفة الكره وإلى أين وجهها الإسلام؟
- التسامح جزء من العقيدة

#### قيمة الحب وأهميته في تحقيق السعادة

"والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا" (حديث شريف رواه مسلم).

الحب معنى أخص من الرضا، وأعمق أثراً، فقد يرضى الإنسان بالشيء أو يرضى عن الشخص، ولا يفضي ذلك إلى حبه وتعلق القلب به. فإن ذلك شأن الحب لا شأن الرضا.

الحب هو روح الوجود، وإكسير القلوب، وصمام الأمان لبني الإنسان.

إذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذي يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق، وتستحيل إلى دماء.

هذا هو الحب الذي عرف الناس قيمته في القديم والحديث. وقالوا: لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

وقديماً قال صوفي شاعر كبير (هو الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، وهذه الفقرات من شعره الصوفي الوجداني، وقد نقل هذه الفقرات السيد أبو الحسن الندوي في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، ص 288 وما بعدها):

"إن الحب يحول المر حلواً، والتراب تبرا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة..."

"إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا ...".  
"بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم!! لا ننازعهم في شيء. أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول ..!".  
"حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء تخوفي وكبري! يا طبيبى النطاسي! يا مداوي الآسي!.  
وحديثاً كتب صحفي أديب يعني بالجوانب النفسية (هو الأستاذ محمد زكي عبد القادر في إحدى يومياته بجريدة «الأخبار» القاهرية) يقول:  
"ولمحت عن بعد أضواء تلمع وسط البحر كالنجم الهادي، وتمنيت لو كان لي في المستقبل مثل هذا النجم .. ومن منا لا يتمنى أن يكون له في مستقبله نجم هاد؟ .. نجم هاد فيما بقي من أيام .. ماذا يكون؟

الحكمة .. وماذا تعطينا غير المنطق الجاف؟

الحذر ... وماذا يعطينا غير الخوف الدائم؟

العمل ... وماذا يعطينا غير العرق المتصبب والحقد المتأجج؟

المال ... وماذا يعطينا غير الخوف والحذر والعرق والعقد؟

الحب ... إنه الجوهر الوحيد الذي يعطينا الأمان والاستقرار والسلام.

نحب كل شيء ... كل إنسان ... نحب حتى الكارثة كما نحب النعمة ... الأولى لتوقظ القوة على المقاومة فتتوهج النفس كأنها تتحفز ...

الثانية نسيم يلفظ حر المعركة، نحب الوجود كله بدايته ونهايته، الموت فيه والحياة!

هل يستطيع أحد أن يحب هذا الحب؟ لو فعل لكان ملاكاً ... " .

ونحن نجيب على هذا السؤال فنقول: إن الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الكبير صنف واحد من بني الإنسان، إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان.

الإيمان وحده هو ينبوع الحب المصفى الخالد، والمؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يحب كل شيء حتى الكارثة، يحب الوجود كله بدايته ونهايته، الموت فيه والحياة (وقد أشاع المبشرون والمستشرقون أن المسيحية وحدها دين المحبة ولا مجال فيها لبغض أو عنف، وأن الإسلام دين الجهاد والسيف. ولا مجال فيه لتسامح أو حب. وهذا جهل مركب. أو تضليل مفضوح، ففي نصوص المسيحية نجد المسيح يقول في الإنجيل "ما جنت لألقي على الأرض سلاماً، بل سيفاً، فإني جئت لأفريق الإنسان ضد أبيه، والأبنة ضد أمها، والكنة (زوجة الابن) ضد حماتها، وأعداء الإنسانية أهل بنيه" (متى: 34 - 36).

وفي تاريخ المسيحية في العصور الوسطى نجدها أكثر الديانات شناً للحروب وإراقة للدماء، وإحداثاً للمجازر البشرية الرهيبة. ليس بينها وبين مخالفيها فحسب بل بين طوائفها بعضها وبعض.

والمسيح عليه السلام بريء من هذه المذابح الوحشية، والمسئول عنها إنما هي الكنيسة التي حرقت كلمات الله عن مواضعها، وأخلت الوثنية في دين المسيح وأعطت نفسها حق التحليل والتحریم. والتشريع في الدين بما لم يأذن به الله. وبيع صكوك الغفران وأرض الجنة بالدرهم والدينار. إن خرافات الكنيسة ومصلحتها وأهواء رجالها الذين ساندوا الظلم والاستغلال والفساد هي المسئولة عن هذه الحروب والدماء. ومهما يكن الأمر فإن الإسلام المظلوم هو أعظم العقائد دعوة إلى الحب، وتوكيداً لمعانيه. وتقجيلاً لنيابيعه. وأقواها حرباً للعداوة والبغضاء والصد والحقد وتضييقاً لمساكنها. وإغلاقاً للتواقد التي تهب منها رياحها السموم.

ولقد قال أحد وجهاء النصارى المنصفين في طرابلس الشام للسيد رشيد رضا رحمه الله: إن في الإسلام فضائل كالجبال أو أشمخ وأرسخ ولكنكم دفتنموها. حتى لا تكاد تعرف أو ترى، ونحن عندنا شيء قليل ضئيل، ككلمة "حب الله والقريب" فما زلنا نمطه ونمده، ونقول: "الفضائل المسيحية" حتى ملأ الدنيا كلها؟

وهي شهادة من مسيحي معتدل لا تحتاج إلى تعليق)

### حب الله

المؤمن بعقيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله واهب الحياة، ومصدر الخلق والأمر، والإيجاد والإمداد.

أحب حب الإنسان للجمال، فقد رأى في كونه أثر الإبداع والإحكام (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) (الملك: 3)، (صنع الله الذي أتقن كل شيء) (النمل: 88)، (الذي أحسن كل شيء خلقه) (السجدة: 7).

وأحبه حب الإنسان للكمال، وهل هناك في الحقيقة - إلا كماله سبحانه؟ وكل ما نرى من مظاهر الكمال النسبي إن هي إلا نرات مستمدة منه، ومفتقرة إليه.

وأحبه حب الإنسان للإحسان، فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان كإحسان من خلقه من عدم، وجعله بشراً سوياً، واستخلفه في الأرض، وسخر له الكون جميعاً منه: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (البقرة: 29)، (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) (لقمان: 20).

أحبه لهذا كله ولأكثر منه، حباً يفوق حب الإنسان لأبويه، بل لولده بل لنفسه، وأحب كل ما يجيء من قبله وكل ما يحبه سبحانه، أحب الكتاب الذي أنزله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وأحب النبي الذي أرسله رحمة للعالمين، وأحب كل إنسان من أهل الخير والصلاح الذين يحبهم ويحبونه، وجعل دعاءه ما كان يدعو به محمد رسول الله: "اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد".

### حب الطبيعة

والمؤمن في ظل الإسلام كما أحب الله أحب الطبيعة والوجود كله، إنها أثر من آثار ربه (الذي خلق فسوى \* والذي قدر فهدى) (الأعلى: 2، 3)، كل شيء فيها بحساب ولغاية وحكمة: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (القدر: 49)، (الشمس والقمر بحسبان) (الرحمن: 5)، (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (الحجر: 21).

الطبيعة ليست عدواً للإنسان ولكنها مخلوق سخر لخدمته، ليساعده على القيام بمهمة الخلافة في الأرض، وكل ما في الكون أسنة صدق تمجد الله وتسبحه بلغة قد لا تفهمها العقول البشرية المحدودة: (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (الإسراء: 44).

فالعالم ليس شراً يجب التعجيل بفنائه كما صورته الفلسفة الماثوية وشبهها، وإنما هو كتاب الله المفتوح للقارئ والأمين جميعاً، تتلى فيه آيات قدرته ورحمته، وعظمته ونعمته.

هذا العالم علويه وسفليه ليس ألا صنع الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، الذي أفرغ على هذا الكون وحدة جعلته في أرضه وسمانه وحيوانه ونباته كأجزاء الجسد الواحد تعاوناً واتساقاً وانتلاقاً: (لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون) (يس: 40).

ليس في الكون شيء خلق جزأاً أو عبثاً. كل شيء فيه قد هين ليؤدي دوره فيما أراد الله من عمارة الأرض، واستمرار الحياة إلى أجلها، وخدمة هذا النوع المكرم من الخليقة (الإنسان).

كان بعض البشر ينظرون إلى الظلام نظرة الخوف والكراهية، ويمثل الظلام مظهراً لإله الشر الذي يحارب إله النور والخير، فماذا يكون شعور هؤلاء إذا لفهم الليل بردانه الأسود، ونصف الزمن ليل كما نعلم؟

لقد أزاحت عقيدة الإسلام هذا الكابوس العقلي والنفسي وقررت أن توزع الزمن بين ليل ونهار، وظلمة ونور، آية من آيات الله في تنظيمه لملكه، ونعمة من نعم الله على خلقه، يجب أن يشكروه عليها لا أن يخافوا منها، (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء، أفلا تسمعون \* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه، أفلا تبصرون \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (القصص: 71 - 73). حب الطبيعة الحق يتمثل في المؤمنين الذين يرون وجه الله في هذه الطبيعة، ويرون فيها قرآنه الصامت الدال على ألوهيته: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب \* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه) (آل عمران: 190 - 191).

ويتمثل هذا الحب بأجلى صورته في رسول الإسلام الذي أعلن هذا الحب حتى للجبال، بل لجبل كان يمكن أن يتطير به، ويتشام من رؤيته، لما أصابه من هزيمة بجواره، ذلك هو «جبل أحد».

روى البخاري عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر أخذمه، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً وبدا له أحد قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه"

#### حب الحياة

وكما أحب المسلم الطبيعة أحب الحياة، ولم يعتبرها ذنباً جنى به عليه أبواه، ولا عبناً يجب أن يلقى، ولا سجنًا يجب أن يهرب منه، إنما هي رسالة تؤدى ونعمة تشكر.

وفي الحديث النبوي "خير الناس من طال عمره وحسن عمله" (رواه أحمد والترمذي وحسنه)، "لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعو به من قبل أن يأتية، وأنه إذا مات انقطع عمله، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً" (رواه مسلم) "لا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا قلعله يزداد، وإما مسيئًا قلعله يستعقب" (رواه أحمد والبخاري).

فالحياة خير على كل حال، فإن قعدت به العزيمة فليقل: "اللهم أحييني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي" (رواه النسائي والحاكم).

#### حب الموت

والمؤمن لا يحب الحياة حب الحريص على متاعها الأدنى، المتهافت على لذاتها، حباً يخيفه من الموت، ويلصقه بتراب الأرض، بل أحب المؤمن الحياة لأنه يقوم فيها بحق الله في الأرض، وأحب الموت لأنه يعجل به إلى لقاء ربه. وفي الحديث: "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه" (متفق عليه).

حينما خير الرسول بين لقاء ربه والبقاء نبي الدنيا قال: "أختار الرفيق الأعلى"! وحينما أصاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ضربة عبد الرحمن ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة! وحينما حضرت بلالاً الوفاة صرخت امرأته: واكرباه! فقال لها: بل واطرباه!! غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه!

وحيثما أخذ المشركون في مكة خبيب بن زيد ليصلبوه كان نشيده الذي يترنم به على خشبة الصليب:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً  
على أي جنب كان في الله مصرعي  
وذلك في ذات الإله وإن يشأ  
ببارك على أوصال شلو ممزع

وكان سيف الله خالد بن الوليد حينما يرسل إلى قائد من قواد الفرس أو الروم يختم رسالته بعد الدعوة إلى السلام والإسلام بقوله: **ولا ... رميتكم بقوم يحيون الموت كما تحبون الحياة...!!!**

#### حب الناس

وأحب المؤمن الناس جميعاً، لأنهم اخوته في الآدمية، وشركاؤه في العبودية لله، جمع بينه وبينهم رحم ونسب، كما جمع بينهم هدف مشترك وعدو مشترك ...

أما الرحم العامة الواشجة فقد قال فيها الله: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تسمعون به والأرحام) **(النساء: 1)** وما أحق كلمة «الأرحام» هنا أن يراد بها الأرحام الإنسانية التي تصل بين الناس جميعاً، بدليل فاتحة الآية.

وأما الهدف المشترك والعدو المشترك ... فقال فيهما: (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغررنكم بالله الغرور \* إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) **(فاطر: 5، 6)** فالحياة الآخرة الباقية والخلود في نعيمها هو الهدف الإنساني المشترك، والشيطان المعوق عنها هو العدو المشترك.

وعقيدة المسلم لا تسمح بنزعات عنصرية، ونعرات جنسية، فالمسلم يعتقد أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب، وأن اختلاف اللغات والألوان ليس إلا دليلاً على قدرة الله، وعلى عظمة الصانع وآية من آياته في خلقه: (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين) **(الروم: 22)**.

فشعور المسلم بأخوته لبني الإنسان جميعاً ليس أمراً ثانوياً عنده، ولا نافذة في دينه، إنما هو عقيدة يدين الله بها ويلقاه يوم القيامة ويرطب بها لسانه ذكر الله يرجو به عند الله القربة. روى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد ابن أرقم قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر كل صلاة: اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكنا أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة".

أرأيت كيف تسمو الأخوة البشرية في ضمير المسلم؟ إنها في المرتبة التالية لتوحيد الله، والإقرار برسالة محمد عليه السلام. وكيف يتصور أن يحتقر المسلم جنساً من أجناس البشرية. إن صح أن في البشر أجناساً .. وقرآته الكريم يعلمه أن يحترم أجناس المخلوقات كلها ويعرف لها كياتها من الدواب والحشرات والطيور: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون) **(الأنعام: 38)**.



ويقول النبي: "لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها".

هذا هو شعور المؤمن بالإسلام نحو الناس، ليس شعور الاستعلاء العنصري ولا التعصب الإقليمي، ولا الحقد الطبقي، ولا الحسد الشخصي، وإنما هو شعور الحب والإخاء للناس كافة.

المؤمن سليم الصدر لا يحسد ولا يحقد

وأن أدنى ثمرات المحبة التي يفرسها الإيمان في قلب المؤمن هي سلامته من الغل والحسد، فإن أنوار الإيمان كقيلة أن تبدد دياجير الحسد من قلبه، وبذلك يمسى ويصبح سليم الصدر، نقي الفؤاد، يدعو بما دعا به الصالحون (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) (الحشر: 10).

والمؤمن لا يحسد، لأن الحسد كما سماه رسول الله- "داء" من أدواء الأمم، داء نفسي يصنع بالروح ما تصنع الأوبئة بالأجسام، فهو غم على صاحبه، وتكد دائم له، وغيط لقلبه لا ينتهي أمده، بل هو داء جسدي أيضاً: ينهك القوى، ويؤذى البدن، ويغير الوجه، وقد قال حكيم:

لله در الحسد ما أعله بدأ بصاحبه فقتله!!

وقال شاعر:

اصبر على كيد الحسو      د فإن صبرك قاتله  
النار تأكل نفسها      إن لم تجد ما تأكله

والمؤمن لا يحسد، لأنه يحب الخير لعباد الله جميعاً، وهو لا يعارض ربه في رعاية خلقه أو تقسيم رزقه (إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان عباداً خبيراً بصيراً) (الإسراء: 30).

إنه مؤمن بعقل ربه فيما قسم من حظوظ، وما وزع من مواهب، ويعتقد أن قضاءه تعالى في خلقه صادر عن حكمة بالغة يعرف منها ويجهل، وقد قيل: "الحاسد جاحد؛ لأنه لم يرض بقضاء الواحد". (أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله) (النساء: 54). ومن هنا نرى المؤمن لا يفرح بالمصيبة تنزل بغيره، ولا يحزن للنعمة يسوقها الله إلى عبد من عباد، بل يقول ما علمه النبي الكريم "اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر".

والمؤمن لا يحسد، لأن همته منوطة بما هو أرفع وأبقى من الدنيا التي يتنافس عليها الناس، ويتحاسدون، وإنما يوجه همته إلى معالي الأمور، إلى المعاني الباقية: إلى الآخرة والجنة.

روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها". (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (المطففين: 26) (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) (الحديد: 21). قال الحسن البصري: يا ابن آدم: لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلماذا تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من

مسيره إلى النار؟، وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ... إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في جنب الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على الدنيا وهو يصير إلى النار؟".

والمؤمن لا يحقد، لأنه عفو كريم، يكظم غيظه وهو يستطيع أن يمضيه، ويعفو وهو قادر على الانتقام، ويتسامح وهو صاحب الحق، لا يشغل نفسه بالخصام والعداوات، فالعمر لا يتسع لمثل هذا العداء، والدنيا لا تستحق عنده هذا العداء. فكيف يسلم قلبه لله للعداوة والأحقاد فتتهشها أفاعيها السامة؟ وكيف يبيت وفي قلبه أخيه شحنة العداء فيبيت بعيداً عن رحمة الله؟ في الحديث: "تعرض الأعمال كل يوم اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا" رواه مسلم.

والمؤمن لا يحسد ولا يبغض، لأن الحسد والبغضاء من بذور الشيطان، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء) (المائدة: 91) (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) (المتحنة: 7) (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) (مريم: 96).

هذا -سلامة القلب من الضغن والحسد أول ما يتصف به المؤمن، بل أدنى ما يتصف به. ولا يكمل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

فأين من هذه المعاني الرفيعة ما تنادي به اليوم دعوات هدامة. كل همها زرع الأحقاد وبث البغضاء والكراهية والعداوة بين الطوائف والطبقات، حتى يعيش الناس في تنازع وصراع دائم، يتسللون من ورائه إلى الحكم والسلطان!!

#### الإيثار من خصائص المؤمنين

وأعلى درجات الحب أن يؤثر الإنسان أخاه على نفسه فيجود له بالشيء وهو محتاج إليه، يجوع ليشبع أخوه، ويكد ليرتاح، ويسهر لينام. وهذا المعنى مقطوع من جذوره في بينات الملحدين والماديين، فإن المؤمنين يؤثرون ابتغاء وجه الله ومرضاته ومثوبته، وأما أولئك فلوجه من يؤثرون؟ وعلام يؤثرون؟

ولم تر الدنيا حباً كريماً أصيلاً يعلو على الشهوة والمنفعة كالحب الذي أرسى الإسلام ركانه بين المسلمين في مجتمع المدينة. ما هم المهاجرون يخرجون من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، فيستقبلهم إخوانهم الأنصار من أهل المدينة بصدر رحبة ويتهافون عليهم تهافت الظمآن على الشراب البارد العذب، ويتنافسون عليهم، كل منهم يريد أن يحظى بواحد منهم في داره، فلا يرزئهم إلا القرعة، ثم يواخي الرسول بينهم مؤاخاة قامت مقام أخوة النسب والدم، وذابت الفروق الإقليمية والنسبية، فلا فحطانيون وعدنانيون، ولا شماليون وجنوبيون، ولا يمنيون وحجازيون، ولا أوسيون وخزرجيون، كما انمحت الفوارق الطبقيّة والمهنية، فلا أغنياء وفقراء، ولا تجار وزراة، إنما هي الأخوة الصادقة، إنما هو الحب والإخلاص والإيثار (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال: 63).

قال عبد الرحمن بن عوف المهاجري القرشي: لما قدمنا المدينة أذى رسول الله بيني وبين سعد بن الربيع -الأنصاري الخزرجي- فقال سعد لي: "إني من أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أوي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها"، وقابل عبد الرحمن هذا الإيثار الكريم من سعد بعفاف كريم منه فقال: "بارك الله لك في أهلك ومالك ... دلوني على السوق".

وقد سجل الله في كتابه الثناء الخالد لموقف الأنصار فقال: (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (الحشر: 9).

يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه "الدين": "إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند تهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد فحسب، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة. ذلك أنها تربط بين قلوب معتقيها برابط من المحبة والترحم، لا يعنله رابط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة. بل إن هذه العلاقات مجتمعة مهما يكن أثرها الظاهري من كف الأذى، وبذل المعروف المتبادل، تظل روابط سطحية تضم الأفراد، كما تضم الأعواد في ضفت، ولا تزال تتخللها الفجوات والشغرات والحواجز النفسية، حتى تشدها رابطة الأخوة في العقيدة والمشاركة في المثل العليا، فهناك تعود الكثرة وحدة، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة، تنعكس صور بعضها في بعض، بل كثيراً ما تستغني هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى، فتتعقد بها أقوى الوشائج وأنومها، بين أفراد اختلفت أجناسهم، وتباينت لهجاتهم، وتباعدت ديارهم وتفاوتت مصالحهم، وكثيراً ما نرى في الدول التي تقوم على قاعدة المصالح المشتركة في الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستجداء بما في هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير والتناصر على دفع عدوان المغيرين - ولذلك قيل بحق: "إن الوطنية التي لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هي حصن متداع يوشك أن ينهار. وقد ثبت بهذا كله أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد" أ. هـ.

### عاطفة الكره وإلى أين وجهها الإسلام؟

ولكن مما لا ريب فيه أن في كل إنسان عاطفة أخرى غير الحب. عاطفة البغض والخوف والمقت، وهي التي تفيض بالحقد والشر والخرب والدم! فكيف ردم للدين هذا المستنقع الكريه أو إلى أي مصب وجهه؟

قال الأستاذ "جود" الإنجليزي رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس في إحدى كليات لندن: "إن العواطف التي هي مشتركة والتي يمكن إثارتها بسهولة هي عواطف المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهماء، بدل الرحمة والوجد والكرم والحب، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه، ويوجدوا له ما يخافه، وإذا أردت أن أوحد الشعوب ينبغي لي أن أخترع لهم عدواً على كوكب آخر - على القمر مثلاً- تخافه هذه الشعوب، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر في معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف المقت والخوف فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها، وعلى تلك العواطف يقوى الإمام القومي".

وقد عقب الداعية الإسلامي الكبير السيد أبو الحسن الندوي على ذلك فقال (صفحة 167 من كتاب "ماذا خسر العالم بالحطاط المسلمين"): "إن هذا الحل الذي قدمه الأستاذ جود لمشكلة الأمم، ومعضلة الحروب، والمنافسات الشعبية، حل عادل، وتوجيه معقول، فلا تتصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك في عداوته وكرهه، والمخافة منه، وتتعاون في الحرب ضده، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنساني ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها وعلى كل إنسان أن يعادية ويحترس منه، ويتعاون مع بني نوعه في معاداته ومحاربتة. يقول القرآن: (إن

الشیطان لكم عدو فاتخذوه عدواً، إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) **(فاطر: 6)** ويقول: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين) **(البقرة: 208)**.

وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط، أولياء الله وأولياء الشيطان، أنصار الحق وأنصار الباطل، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء الشيطان أينما كانوا فقال: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) **(النساء: 76)** أ هـ .

وهكذا ضاقت دائرة البغض، وانكششت عاطفة الكره عند المؤمن، فلم يعد يبغض لمنفعة شخصية، ولم يعد يبغض لعصبية قبلية أو قومية أو إقليمية أو طبقية، ولم يعد يبغض لحد أو حسد، وإنما أنحصر بغضه في مجال واحد هو البغض في الله، أي من أجل الحق وحده، وفي ذلك يقول الحديث النبوي: "من أحب الله، وبغض الله، وأعطى الله، ومنع الله فقد استكمل الإيمان".

#### التسامح جزء من العقيدة

ومع انحسار دائرة الكره في أهل الباطل والإثم والعنوان، فإن كراهية المؤمن لهم ممزوجة بالألم من أجلهم، والاشفاق عليهم، وتمني الخير لهم، والدعاء لهم بالتوفيق والهداية "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (لعلك باخع نفسك (أي قاتلها) ألا يكونوا مؤمنين) **(الشعراء: 3)**. وهناك أمران في عقيدة المسلم يجعلانه مع استمساكه بدينه، وثباته على إيمانه أشد الناس تسامحاً مع المخالفين له، والكافرين بدعوته: **أولهما: أن المسلم يعتقد جزأماً أن من مقتضيات الإرادة الإلهية التي لا تخلو من الحكمة اختلاف الناس في الدين والإيمان (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين) (هود: 118) (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟) (يونس: 99).**

وإذا كانت مشيئة الله نافذة -ومشيئته تعالى مرتبطة بحكمته- فكيف يقاوم المؤمن مشيئة الله، أو ينكر حكمة الله؟

**وثانيهما: أن الله قد أمر نبيه المصطفى أن يتجنب اللجاجة في الجدل مع المخالفين، وأن يكل أمرهم إلى الله، ويعتبرهم أن يوم الفصل بين المختلفين إنما هو يوم القيامة، فلا داعي للجدال الذي يثير الفتنة، والمراء الذي يوغر الصدور. قال تعالى لرسوله: (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون \* الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) (الحج: 68، 69) ويقول: (فإنك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا، وإليه المصير) (الشورى: 15) (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون) (الزمر: 46).**

ذلك هو المؤمن بعقيدة الإسلام: أحب الوجود كله، أحب الله والطبيعة، أحب الحياة والموت، أحب القدر حلوه ومره، أحب الناس جميعاً وإذا كره ولا بد فإنما يكره الشيطان، ويكره حزب الشيطان، كرهماً مقروناً بالرحمة والاشفاق وحب الخير، للناس جميعاً.

إن هذا الحب هو دليل إيمانه بربه، وقائده إلى جنته، وصديق رسول الله "والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا".

الباب الثاني: أثر الإيمان في حياة الفرد

### الفصل الثامن- الثبات في الشدائد

- الحياة لا تخلو من الشدائد
- الملمدون أشد الناس جزءاً
- ثبات المؤمن ومصدره
- الإيمان بالقدر يهون على المؤمنين البلاء
- شعور المؤمن بنعمة الله في السراء والضراء
- مصائب الدنيا تهون
- بعض الشر أهون من بعض
- حلوة الثواب ومرارة الألم
- الملمدون يعترفون بأثر الإيمان في الأزمات

### الحياة لا تخلو من الشدائد

"عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير -وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن- إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له" (حديث شريف رواه مسلم).

الأمل والأمن، والرضا والحب، والسكينة النفسية، ثمار شهية لغراس العقيدة في نفس المؤمن، ونخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة، وأنها لمعركة طويلة الأمد، كثيرة التكاليف، محققة بالأخطار والمشقات.

ذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل أو يخيب له أمل. أو يموت له حبيب. أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو .. أو .. إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة ... حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جبلت على كدر وأنت تريدها  
صفوا من الآلام والأكدار!  
ومكلف الأيام ضد طبايعها  
متطلب في الماء جذوة نار

وإذا كان هذا سنة الله في الحياة عامة، وفي الناس كافة، فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضاً لنكبات الدنيا وويلاتها، إنهم يدعون إلى الله فيحاربهم دعاة الطاغوت، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل ويهدون إلى الخير فيعاديهم أنصار الشر، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر ... وبهذا يحيون في دوامة من المحن، وسلسلة من المؤامرات والفتن، سنة الله الذي خلق آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمداً وأبا جهل (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) (الأنعام: 112) (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) (الفرقان: 31).

هذا شأن الأنبياء. وشأن ورثتهم. والسايرين على دربهم. والداعين بدعوتهم. مع الطغاة الصادين عن سبيل الله (وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) (البروج: 8).

سئل الرسول صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة" (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح).

#### الملحدون أشد الناس جزءاً

وقد أثبت الاستقراء والملاحظة أن أشد الناس جزءاً، وأسرعهم انهياراً أمام شدائد الحياة هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان، وقد وصف القرآن هذا النموذج من الناس فقال: (ولئن أنقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور) (هود: 9)، (وإن مسه الشر فيؤس قنوط) (فصلت: 49)، (وإذا مسه الشر كان يؤساً) (الإسراء: 83)، (ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين) (الحج: 11).

إنهم لا يؤمنون بقدر فيرضوا به، ولا ياله فيطمئنوا إلى حكمته في خلقه، ولا بأنبياء فيجدوا في حياتهم القاسية قوة وعبرة، ولا بحياة أخرى فتهب عليهم نسوماتها منمضة للنفس، وطاردة للكآبة، باعثة للأمل.

إنهم كسفينة فقدت الدفة والشرع وكل عوامل الثبات أمام الأمواج والعواصف، فهي لأدنى حركة من الريح يشند اهتزازها وتمايلها، ويحيط بها الموح من كل مكان، وسرعان ما تغوص إلى الأعماق!

ولا غرو أن نجد الانتحار أكثر ما يكون في البيئات التي ضعف دينها أو فقدته، فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل، والجزع الهالع، والكآبة الحزينة، والحزن الكئيب، والحياة التي خلت من معنى الحياة.

ليس من مات فاستراح بميت	إنما الميت ميت الأحياء!
إنما الميت من يعيش كئيباً	كاسفاً بآله قليل الرجاء!

#### ثبات المؤمن ومصدره

أما المؤمنون فهم أصبر الناس على البلاء، وأثبتهم في الشدائد، وأرضاهم نفساً في الملمات.

عرفوا قصر عمر الدنيا بالنسبة لعمر الخلود فلم يطمعوا أن تكون دنياهم جنة قبل الجنة (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) (النساء: 77)، (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (آل عمران: 185).

عرفوا سنة الله في هذا النوع من الخليقة (الإنسان) الذي ابتلي بنعمة حرية الإرادة، والاستخلاف في الأرض، فلم يطمعوا أن يكونوا ملائكة أولي أجنحة (إننا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نيتليه) (الإنسان: 2)، (لقد خلقنا الإنسان في كبد) (البلد: 4).

وعرفوا من سنن أنبيائهم ورسلمهم أنهم أشد الناس بلاء في الحياة الدنيا، وأقل الناس استمتاعاً بزخرفها، فلم يطمعوا أن يكونوا خيراً منهم، ولهم فيهم أسوة حسنة (أم حسبت أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن في نصر الله قريب) (البقرة: 214).

قال ابن القيم: يا مخنث العزم ... الطريق تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، وألقي في النار إبراهيم، وتعرض للذبح إسماعيل، ونشر بالمنتشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى ...

### الإيمان بالقدر يهون على المؤمنين البلاء

وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء، ولا خيط عشاء، ولكنه وفق قدر معلوم، وقضاء مرسوم، وحكمة أزلية، وكتابة إلهية، فأمنوا بأنه ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ... (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير) (الحديد: 22).

وعرفوا أن من صفته تعالى إن يقدر ويلطف، ويبتلي ويخفف، ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره (إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم) (يوسف: 100).

وعرفوا من لطف ربهم أن هذه الشدائد دروس قيمة لهم، وتجارب نافعة لدينهم ودنياهم، تتضح نفوسهم، وتصلق إيمانهم، وتذهب صدأ قلوبهم "مثل المؤمن تصيبه الومعة من البلاء كمثل الحديد تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها" وما أبلغ ما قال الرافي: "ما أشبه النكبة بالبيضة، تحسب سجنًا لما فيها وهي تحوطه، وتربيته وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضى إلى غاية، ثم تتقف البيضة، فيخرج خلق آخر.

وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته: عمله أن يتكون فيها، وتمامه أن ينيق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل".

### شعور المؤمن بنعمة الله في السراء والضراء

وعرفوا من مظاهر هذا اللطف والرحمة الإلهية ما عرفه أحد السلف حين قال: "وما أصبت في دنياي بمصيبة إلا رأيت الله فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن في ديني، وأنها لم تكن أكبر منها، وأنتي أرجو ثواب الله عليها".

وتلك نعم تلابس كل مصيبة في دنيا الناس، جديرة أن تشعر المؤمن بشعور الشكر لله فضلاً عن الرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

### مصائب الدنيا تهون

فكل مصيبة في دنيا الإنسان قد تعوض بخير منها، أما مصيبة الدين فخسارة لا تعوض، ولذلك حين خير يوسف عليه السلام بين أن يصاب في دنياه فيسجن ويكون من الصاغرين، وأن يصاب في دينه فيصوب إلى النسوة ويكون من الجاهلين، كما قالت امرأة العزيز للنسوة: (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما أمره ليجتنن وليكونن من الصاغرين) (يوسف: 32).

حين خير يوسف بين الأمرين كان لابد أن يختار مصيبة الدنيا، فقال (رب السجن احب إليّ مما يدعونني إليه) (يوسف: 33). وكان معلمه نبي الإسلام لأمته أن يقولوا: "اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا" (رواه الترمذي والحاكم).

### بعض الشر أهون من بعض

وإن كل مصيبة لا شك أن هناك أكبر منها، وقديماً قال الناس: "بعض الشر أهون من بعض" "وبلاء أخف من بلاء" "ومن نظر لبلى غير هانت عليه بلواه".

والمؤمن ينظر بعين بصيرته فيحمد الله على أمرين: أولهما: دفع ما كان يمكن أن يحدث من بلاء أكبر، وثانيهما: بقاء ما كان يمكن أن يزول من نعمة غامرة وفضل جزيل. فهو ينظر إلى النعمة الموجودة قبل أن ينظر إلى النعمة المفقودة، وينظر إلى البلاء المتوقع بجانب نظره إلى البلاء الواقع.

وهذا بلا شك يحدث كثيراً من الارتياح والرضا، فالبلاء المتوقع كثير وقد دفع عنه، والنعمة الموجودة كثيرة وقد بقيت له.

وهذا عروة بن الزبير أحد فقهاء التابعين في الإسلام مثل صالح للمؤمن الصابر الراضي، المقدر لنعم الله، فقد روى أن رجله وقعت فيها الأكلة فقرر الأطباء قطعها حتى لا تسري إلى ساقه كلها ثم إلى فخذه، وربما ترقت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بنشرها. فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها فقال: ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل، ولكن هلموا فاقطعوها، ففقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم، ولا يعرف أنه أن (اشتكى)!!.

وشاء القدر أن يبلى الرجل على قدر إيمانه، ففي هذه الليلة التي قطعت فيها رجله سقط ابن له -كان أحب أولاده إليه- من سطح فمات، فدخلوا عليه فعزوه فيه، فقال: اللهم لك الحمد، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة، فإن كنت أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليت لقد عافيت!!

### حلاوة الثواب ومرارة الألم

ورجاء مثوبة الله تعالى على ما يبلى به الإنسان في دنياه نعمة روحية أخرى تهون على الإنسان البلاء، وهذه المثوبة تتمثل في تكفير السيئات، وما أكثرها!! وزيادة الحسنات، وما أحوج الإنسان إليها!! وفي الحديث الصحيح: "ما يصيب المسلم من هم ولا غم ولا نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطيئاه".

أصاب أحد الصالحين شيء في قدمه فلم يتوجع ولم يتأوه، بل ابتسم واسترجع، فقيل له: يصيبك هذا ولا تتوجع؟ قال: إن حلاوة ثوابه أنستني مرارة وجعه! .

### الملحدون يعترفون بأثر الإيمان في الأزمات

بقي أن نقول: أن الملحدين أنفسهم شعروا بأن أنظمتهم وفلسفتهم المادية الجامدة لا تستطيع أن تهيب للناس الروح المعنوية التي تهون عليهم الشدائد، وتمدهم بالصبر والثبات في الأزمات، ولم يملك الشيوعيون -على تعصبهم- في الحرب العالمية الثانية إلا أن يطلقوا سراح الدين وقتاً ما



ليؤدي دوره في تثبيت النفوس وإمسакها أن تتخلع وتتهار، وأرغمتهم الظروف أن يتركوا الشعوب ترجع إلى فطرتها فتملاً فراغها بما لا يمكن أن تملاً إلا به، بالإيمان.

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### تمهيد

الحدود بين الفرد والمجتمع متداخلة متشابكة، وليس من المستطاع بسهولة أن يقال: هذا أمر يؤثر في الفرد، وهذا أمر يؤثر في المجتمع، فما المجتمع في واقع أمره إلا أفراد ربطت بينهم روابط مشتركة ... وكل جهد يبذل لتكوين الفرد الصالح، هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح. ومثل المجتمع البشري كمثل اللينان المرصوص، ومثل الأفراد فيه كمثل اللبنة للينان، فإذا كانت اللبنة قوية متينة، وكانت المادة التي تربط بينهما قوية الربط وإحكام الالتحام والتماسك بينها. قام منها بناء قوي مكين. فالعمل الأول في البناء يجب أن يتجه إلى اللبنة وإعدادها. وإذا نظرنا إلى ما تقدم من أثر الإيمان في حياة الفرد- نجد أن الفرد الذي يتمتع بسكينة النفس، وأمن الروح، ويتذوق نعمة الرضا ويستروح نسمات الأمل، ويحيا في ظلال الحب الفسيح، ويحس بالقوة، ويشعر بالكرامة، إنما هو إنسان اجتماعي راق، ولبنة صالحة لأن يقوم عليها بناء اجتماعي سليم.

والمجتمع الذي تشيع بين أفراد السكينة والأمن، والرضا والأمل، والحب والشعور بالكرامة، مجتمع يشق طريقه إلى السعادة والرفق والاستقرار. ألا وأن أخص ما يميز المجتمع الراقى، المجتمع الفاضل، المجتمع السعيد هو التماسك والترابط. المجتمع الفاضل هو الذي يتعارف أبناءه فلا يتناكرون. ويتحابون فلا يتباغضون، ويتعاونون فلا يتخاذلون. ويتعاملون فيما بينهم بالعدل والرحمة، فلا يبغى بعضهم على بعض، ولا يقسو بعضهم على بعض، فلا ينسى الواجد المحروم، ولا يهمل القادر العاجز، ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك، ولا يعدو القوي على الضعيف كسكان الغابة.

وشر ما يعيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بقلبة الأنانية على أنفسهم، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه، ويقول كل واحد: نفسي نفسي، ولا يبالي أن يجعل من الناس قرايين تقدم لإله أطماعه وشهوته.

شر ما يصيب المجتمع: أن يقول كل فرد فيه: لي، ولا يقول: على ... أن تتضخم "أنا"، في نفسه على حساب غيره. فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، وإلى الناس نظرة الإزدراء والاحتقار.

ومثل ذلك في الشر أن يفقد الإنسان إحساسه بذاته، وشعوره بكرامته، وبما وهبه الله من قوة، وما آتاه من نعمة، وحينئذ تموت في نفسه الحوافز الكريمة، والبواعث الطيبة، ولا ينمو في جوانحه إلا الشعور بالضعف والهوان والضياع والفراغ، وهي مشاعر قتالة للفرد، وبالتالي هدامة لصرح المجتمع.

وإن فلان من حد وسط يقف عنده الفرد، يحس بذاته بكرامته إحساساً لا ينال من ذات غيره وكرامته وحقه باعتباره إنساناً ... وبذلك يعمل أبناء المجتمع معاً، ويسيروا إلى الهدف المشترك جنباً إلى جنب، متعاونين على البر والتقوى، متواصين بالحق والصبر.

والمجتمع في حاجة إلى ضوابط تحكم علاقاته ومعاملاته بعضه لبعض، فلا تطفئ الغريزة على العقل، ولا القوة على الحق، ولا الهوى على الواجب، ولا المنفعة الخاصة على المصلحة العامة، وهذه الضوابط لا تؤدي مهمتها، إن لم تكن ضوابط أخلاقية، مبعثها النفس، ومصدرها الضمير. ولهذا كان كل بناء أو إصلاح أو تغيير اجتماعي لا يقوم على إصلاح الأنفس وإيقاظ الضمائر، وتربية الأخلاق، أشبه ببناء على كثبان من الرمال (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد: 11).

وسنرى فيما يلي أثر الإيمان الحي في المجتمع المؤمن، وكيف يسمو به إلى مستوى من الرقي الإنساني، تتدفق منه أعناق الماديين.

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### الفصل الأول - الإيمان والأخلاق

"أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً" (حديث شريف رواه الترمذي).

- الحيوان تكفيه غريزته
- غرائز الإنسان متضاربة
- القاتلون وحده لا يكفي لضبط السلوك الإنساني
- الفلسفة الأخلاقية لا تغني
- الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية
- لا أخلاق من غير دين
- الإيمان والمثل الأعلى
- متاع الحياة وخطره على الأخلاق
- سلطان الغريزة وسلطان الإيمان
- الإيمان ينتصر على الأنانية
- سلطان العادة وسلطان الإيمان
- سلطان العادة وقوتها
- سلطان الإيمان أقوى
- تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب
- فشلت الأساطيل ونجح الإيمان
- الضمير ومكانة الأخلاق
- أثر الإيمان في تكوين الضمير
- أثر الضمير الديني في مجالات الحياة
- في أداء الحقوق المالية
- في الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة
- في رعاية القوانين والأمانات
- في السياسة والحكم
- في التجارة والمعاملة
- في المواساة والإيثار
- اعتراضات وشبهات
- الخوف من الله واليوم الآخر وأثره في التربية
- الدكتور (هنري لثك) يرد على خصوم التربية الدينية
- خرافة "الضمير بلا إيمان"

### الحيوان تكفيه غريزته

إذا تأملنا في عالم الحيوان وجدنا غريزته تكفيه في هدايته إلى تنظيم حياته وتدبير أمره، منفرداً ومجتمعاً، كما نشاهد ذلك في جماعة النمل، وكيف تعمل في تعاون واتساق لجمع أقواتها، وإدخالها في جحورها إلى فصل الشتاء، حيث لا تستطيع الغدو في طلب الرزق، وأوضح من ذلك ما نراه في مملكة النحل التي تقوم دولتها على ملكة وعاملات ونكور - يقوم كل منها بدوره في الجماعة في دقة وتعاون واتساق. وذلك آية من آيات الله للمفكرين في هذا النظام الدقيق الذي هداها الله إليه أو أوحى إليها به -وفق تعبير القرآن- (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون \* ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) (النحل: 68، 69).

ذلك شأن الغريزة في الحيوان.

### غرائز الإنسان متضاربة

أما الإنسان فغرائزه متعددة متنوعة، معقدة غير سهلة، مركبة غير بسيطة، فمنها الفردي الذي يدفع إلى الأنانية والأثرة، ومنها الاجتماعي الذي يغري بالتعاون والإيثار، ومنها ما يهبط به إلى حضيض المادة، ومنها ما يسمو به إلى أفق الروح، ذلك أن الإنسان نفسه مخلوق مركب، في كيانه جزء أرضي وجزء سماوي، هو جسد وروح، شهوة وعقل، وإنسان وحيوان، وملاك وشيطان، ولذا عرفه بعض الفلاسفة -نظراً لاتصاله بعالم الروح وعالم المادة- فقال: "الإنسان مواطن في عالمين".

ويقول الفيلسوف البريطاني المعاصر برتراند رسل: "الإنسان أكثر تعقيداً في نزعاته ورغباته من أي حيوان آخر، وتنشأ الصعوبات التي يواجهها من هذا التعقيد، فهو ليس اجتماعياً تماماً مثل النمل والنحل، ولا هو انفرادي تماماً مثل الأسود والنمور، إنه حيوان شبه اجتماعي، وبعض نزعاته ورغباته اجتماعي، وبعضها انفرادي ويبدو الجانب الاجتماعي في طبيعته من أن الحبس الانفرادي يعتبر عقوبة بالغة الشدة، ويبدو الجانب الآخر في حبه للاستقلال بأموره الخاصة، وعدم استعداده للتحدث فيها إلى الغرباء. ولأننا لسنا اجتماعيين تماماً فنحن في حاجة إلى أخلاق، لتوحي لنا بالأهداف، وإلى قواعد أخلاقية لتفرض علينا قواعد التصرفات، والنحل كما يبدو- ليس في حاجة إلى شيء من هذا، فهو يتصرف بما تمليه عليه مصلحة الجماعة" (من كتاب "المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة" لبرتراند رسل ص 10).

نرى ما الذي يضع للإنسان القواعد الأخلاقية السليمة الصحيحة؟

وما الذي يحدد للإنسان سلوكه المستقيم؟ ويرسم له طريقاً موصلاً إلى غاية لا عوج فيه؟ ويدفعه إلى السير في هذا الطريق القويم؟ هل هو القانون؟

أم هي الفلسفة الأخلاقية؟

أم هو الدين؟

سنحاول أن نلقي بعض الأشعة الكاشفة على كل من هذه الثلاثة:

### القانون وحده لا يكفي لضبط السلوك الإنساني

أما القانون فهو أمر لابد منه لتنظيم شؤون الجماعة وتحديد علاقاتها، ولكنه لا يصلح وحده ضابطاً لسلوك البشر، لأن سلطاته على الظاهر لا على الباطن، ودانته في العلاقات العامة لا في الشئون الخاصة. ومهمته أن يعاقب المسيء دون أن يستطيع مكافأة المحسن، على أن التحليل على القوانين ميسور، وتطويع نصوصها للأهواء مستطاع، والهرب من عقوبتها ليس بالشيء الصير، وإذا كان القانون عاجزاً عن أن يكون زاجراً عن الشر ورادعاً عن الجريمة والفساد، فإنه لأعجز وأعجز عن أن يكون دافعاً إلى خير أو باعثاً على حق أو حافزاً على عمل صالح.

ومهما افترضنا في القانون الإنساني من مطابقة العدل والحق، فإنه على كل حال ليس له قوة ذاتية وإنما قوته في "الحكومة" القائمة على رعايته وتنفيذه.

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في هذه الحكومة، وأنها لا تكفي في إلزام النفس حدود العدل (رسالة الرد على الدهريين، ص 72): "ليس بخاف أن قوة الحكومة إنما تأتي على كف العدوان الظاهر، ورفع الظلم البين، أما الاختلاس والزور المموه والباطل المزين والفساد الملون بصيغ من الصلاح، ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه؟ وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل، وكامنات الداساس ومطويات الخيانة ومستورات القدر حتى تقوم بدفع ضرره؟

على أن الحاكم وأعوانه قد يكونون، بل كثيراً ما كانوا ويكونون ممن تملكهم الشهوات، فأى وزع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم؟ وأي غوث ينفذ ضعفاء الرعايا وذوي المسكنة منهم من شره أولئك المتسلطين وحرصهم؟". ويقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «الدين»: "لا قيام للحياة في الجماعة إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته. وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع، يكفل مهابته في النفوس، ويمنع انتهاك حرماته. ونقرر أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين، أو تدانيها في كفاءة احترام القانون وضمنان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتنام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

"والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه. ولا يجري في دمه ولا في عضلاته ولا في أعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها. ( يقصد الماركسيين ).

"أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية. لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

"ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء وعوضاً عن التربية والتأديب الديني والخلقي، ذلك لأن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير، ولابد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى الشر والفساد لتلك الرقيب هو (العقيدة والإيمان) (من كتاب «الدين» للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز).

### الفلسفة الأخلاقية لا تغني

وأما الفلسفة الأخلاقية فلا يمكنها توجيه الجماهير الغفيرة من الناس، إنها لا تستطيع إلا توجيه أفراد معدودين، ويتأثير محدود لا ينفذ إلى الأعماق كما ينفذ الدين.

ثم أي فلسفة أخلاقية تلك التي يتبعها الناس، وكل فيلسوف له مذهب، وكل مذهب له مقياس؟ أي فلسفة المنفعة التي نادى بها «وليم جيمس» وغيره؟ أم فلسفة اللذة التي نادى بها «أريستيب» و «أبيقور»؟ أم فلسفة القوة التي نادى بها «نيتشة» أم فلسفة الواجب التي دعا إليها «كانت»؟

وما الجزاء الذي يناله المرء على استمساكه بفضائل أخلاقية معينة؟ أهو جزاء يقطع العقل ويرضي النفس، أم هو سراب بقية يحسبه الظلماء ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؟

ما جزاء الجندي المجهول الذي يعمل لخدمة المجموع دون أن يراه أحد أو يشعر به أو يكافئه؟

ما هو جزاء المضحي في سبيل أمته وأسرته، يقاتل دفاعاً فيقتل ظمأً فيموت؟ إن راحة الضمير هنا -التي يتقنى بها الأخلاقيون- ليس لها وجود. ومن جانب آخر، ما جزاء من عاش طول عمره يظلم ويظف، ويعيب من الشهوات الحرام دون أن يشعر بتأنيب الضمير، لأن ضميره قد مات؟ إنه لا يحل هذه العقدة إلا الإيمان، إلا الدين ... الذي يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: 7، 8) (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم \* سيهديهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم الجنة عرفها لهم) (محمد: 4 - 6) (يوم يتذكر الإنسان ما سعى \* وبرزت الجحيم لمن يرى \* فأما من طغى \* وآثر الحياة الدنيا \* فإن الجحيم هي المأوى \* وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى \* فإن الجنة هي المأوى) (النازعات: 35 - 41)

### الأخلاق لا الفلسفة الأخلاقية

ورفضنا للفلسفة الأخلاقية ليس رفضاً للأخلاق نفسها، فالأخلاق ملاك الفرد الفاضل، وقوام المجتمع الراقي، يبقى ويستقر ما بقيت، ويذهب ويتلاشى إن ذهب، بل لا حياة له بغيرها:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فاقم عليهم ماتماً وعويلاً

وللأخلاق في نظر الدين عامة، والإسلام خاصة محل رفيع، ومكان فسيح، والقرآن لم يثن على خير الرسل محمد عليه السلام بأكثر من أن قال: (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم: 4) والنبي يخلص رسالته فلا يزيد أن يقول "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة، ورمز له السيوطي بعلامة الصحة).

ولا عجب أن رأينا من محققي علماء الإسلام رجلاً مثل ابن القيم يقول: "الدين هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين" (مدارج السالكين، ج 2 ص 307 ط السنة المحمدية).

وهذا مصداق ما جاء في الحديث النبوي "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً" (رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح - من حديث أبي هريرة). وقال صلى الله عليه وسلم: "البر حسن الخلق" (رواه مسلم من حديث النواس بن سميان)، "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن" (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح - من حديث أبي الدرداء).

ذلك هو شأن الأخلاق في الدين وفي المجتمع ... هي في الدين ركن ركين، وهي في المجتمع أساس مكين.

### لا أخلاق من غير دين

غير أن الدين لا يقف عند حد الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتمجيدها. إنه هو الذي يرسى قواعدها، ويحدد معالمها، ويضبط مقاييسها الكلية، ويضع الأمثلة للكثير من جزئيات السلوك، ثم يغري بالاستقامة، ويحذر من الانحراف، ويضع الجزية مثوبة وعقوبة على كلي السلوكين نصب العين.

وقد قال الفيلسوف الألماني «فيخته»: "الأخلاق من غير دين عبث" وقال الزعيم الهندي غاندي: "إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال، ولا يفترقان بعضهما عن بعض، فهما وحدة لا تتجزأ، إن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجسد للروح، وبعبارة أخرى إن الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها، كما أن الماء يغذي الزرع وينميها".

ومنذ سنوات اطلع العالم كله على تقرير القاضي البريطاني «ديننج» عن فضائح الوزير السابق البريطاني جون بروفيمو وعشيقته كريستين كلير، وقد عكف ديننج على دواصة هذه القضية في شفته المتواضعة بلندن ثلاثة شهور لم يكن يتمتع أثناءها إلا بعطلته الأسبوعية، يقضيها في منزله بالريف البريطاني حيث تقيم زوجته. وقد قابل خلال التحقيق 180 رجلاً وامرأة واجتمع بالصحفيين، وأعضاء البرلمان وغيرهم، وقد كتب تقريره في 850 ألف كلمة، وأخيراً تكلم هذا القاضي بنزاهة، وصراحة، معقياً على هذه القضية الخطيرة فقال: بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق، وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون!

الدين هو المصدر الغد المعصوم الذي يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها، والدين هو الذي يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه، ويعمل له، والدين هو الذي يحد من أتانية الفرد، ويكفّف من طغيان غرائزه، وسيطرة عاداته، ويخضعها لأهدافه ومثله، ويربي فيه الضمير الحي الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق.

### الإيمان والمثل الأعلى

ما هم الإنسان الذي لا دين له ولا عقيدة؟ وما غايته من وجوده؟ وما رسالته في الحياة؟

أغايته رضوان الله؟ إنه لا يؤمن به ولا يرجو له وقاراً.

أغايته الخلود والنعيم في الحياة الأبدية؟ إنه لا يؤمن بها، ولا يفكر فيها.

إنه لا هم له ولا غاية ولا رسالة إلا أن يدور في فلك نفسه، يتبع هواها ويحقق رغائبها العاجلة، ويسير خلف دوافعها أياً كانت، وفقاً لمزاجه وتكوينه الخاص.

فإن كان مزاجه من النوع الهادئ، المسالم عاش في الدنيا غافلاً عن نفسه وعما حوله، حياً كميت، وموجوداً كمفقود، لا يحس أحد بحياته ولا يترك فراغاً بعد موته.

فذاك الذي إن عاش لم يُنتفع به وإن مات لا تَبكي عليه أقاربه

وإن كان يغلب على نفسه الجانب "البهيمي" جرى وراء الشهوات والذات، يقتحم إلى بلوغها كل حرمة، ويسلك من أجلها كل طريق، لا حياء يردعه، ولا ضمير يقمعه، ولا عقل يمنعه، يقول ما قاله أبو نواس:

إنما الدنيا طعام  
فإذا فاتك، هذا  
وشراب وندام  
فعلى الدنيا السلام

(الندام: المنادمة والمجالسة على شرب الخمر)

وإن كان مزاجه من النوع "العصبي" جعل همه العلو في الأرض، والاستكبار على الناس، وإظهار السلطة والتحكم في الرقاب، والفخر بلسانه، والاختيال بفعاله، ولم يهمه في سبيل ذلك أن يبني قصراً من جماجم البشر، وأن يزخره بدماء الأبرياء، شعره ما قاله الشاعر الجاهلي:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها  
بقاة ظالمين وما ظلمنا  
ونبتش حين نبتش قادرينا  
ولكننا سنبدأ ظالمينا  
إذا بلغ الرضيع لنا قطعاً  
تخر له الجبابر ساجديننا

وإن كان يغلب عليه الجانب "الشيطاني" دبر المكائد، وفرق بين الأحبة، ووضع الألغام ليدمر، وسمم الآبار ليقتل، وعكر المياه ليصطاد، وزين الإثم، وأغرى بالفاحشة، وأوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وقال مع الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما  
يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وكان من حق عليهم قول الله: (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) (الرعد: 25).

وهكذا يدور كل واحد من هؤلاء حيث تدور نفسه، وينقاد لأمر هواه، والهوى يعمى ويصم، والهوى إله معبود: (ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله) (القصص: 50).

أما المؤمن فإنه يعيش لرسالة كبيرة، ويعمل لهدف رفيع، ويحيا في ظل مثل عليا، يعيش لها ويموت عليها هي: القربى إلى الله، والتخلق بأخلاقه، والسعي في مرضاته. وفي سبيل مثله يكبح جماح نفسه، ويقمع طغيان هواه، ويضغط على غرائزه وشهواته، احتساباً لله وإيثراً لما عنده، وابتغاء

مرضاته، وإيماناً بحسن الثواب لديه، قد وضع نصب عينيه قول ربه جل شأنه: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب \* قل أوتيتكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد \* الذين يقولون: ربنا إننا آمنّا فأغفر لنا ذنوبنا وقلنا عذاب النار \* الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (آل عمران: 14 - 17).

فهذه هي الثمرات الأخلاقية للإيمان، وهذه هي صفات المؤمن التقى الذي أثر ما عند الله على شهوات الحياة: خشية من الله وحرص على رضا ومغفرته، وصبر وصديق وقنوت وإنفاق، بلا ادعاء ولا غرور، بل شعور بالتقصير، يجعله يستغفر الله على كل حال.

إن المثل الأعلى للمؤمن أن يقترب من الله في علاه، ويحصل على مثوبته ورضاه، وهذا يجعل حياته كلها موصولة الأسباب بالله، وجعله يحيا دانما وهو يرجو الله والدار الآخرة، ويجعل أكبر همه أن يتخلق بأخلاق الله، وينأى بنفسه عن مشابهة الأنعام والسباع والشياطين. ولقد زعم بعض الكاتبين أن الدين كلف الناس شططا، بل محالا، حين طلب إليهم أن يتخلقوا بأخلاق الله. كأنه تصور أن هذه الدعوة تعني أن يتحول الإنسان إلى إله!

وهذا وهم بعيد عن الصواب، فإن مطالبة الإنسان أن يتخلق بأخلاق الله، معناها: المحاولة الدائبة للتعويض والترقي. والسعي المتواصل من قبل الإنسان ليقبس من كمال الألوهية بقدر طاقته واستعداده البشري.

إن الله عليم حكيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالعلم والحكمة بقدر طاقته البشرية، والله رؤوف رحيم فليحاول الإنسان أن يتصف بالرفقة والرحمة بقدر طاقته البشرية، والله غني كريم فليحاول الإنسان أن يتصف بالغنى والكرم بقدر طاقته البشرية. والله صبور حلیم فليحاول الإنسان أن يتصف بالصبر والحلم بقدر طاقته البشرية. والله جبار متكبر فليحاول الإنسان أن يكون جباراً على المبطلين والطغاة متكبراً عن دنيا الأخلاق وسفاسف الأعمال.

والله عزيز ذو انتقام فليحاول الإنسان أن يكبرن عزيزاً على الكافرين وذا نعمة على المفسدين الظالمين. والله شكور غفور فليحاول الإنسان أن يكون شكوراً لمن أحسن إليه، غفوراً لمن اعتذر إليه، والله على صراط مستقيم فليحاول الإنسان أن يكون على صراط مستقيم حتى لا تضل به المسالك الملتوية. ولا تتفرق به السبل العوج.

والله تعالى متصف بكل كمال، متزه عن كل نقص، فليضع الإنسان نصب عينه أن يبرأ من النقص وأن يتصف بالكمال حسب جهده. فأى إحياء أكرم وأعظم تأثيراً في النفس الإنسانية من هذا الإحياء: التخلق بأخلاق الله والالتباس من كمال الألوهية؟ وأي مثل أعلى يداني هذا المثل الذي اتخذه المؤمن نصب عينيه: أن يقترب من الله ويوثق صلته به، عن طريق العمل الصالح الذي يحيه الله ويرضاه؟

### متاع الحياة وخطره على الأخلاق

ثم إن أخطر شيء على أخلاق الناس هو هذه الدنيا بمتاعها ومغرياتها، الدنيا بزخارفها وشهواتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة (تمثلها الآن السيارات الفاخرة بمختلف أصنافها وألوانها) والأنعام والحرث.



إن الغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة، والتنافس عليها أساس كل بلية. من أجل متاع الدنيا يبيع الأخ أخاه. ومن أجل متاع الدنيا يقتل الابن أباه، ومن أجلها يخون الناس الأمانات وينكثون العهود، ومن أجلها يحدد الناس الحقوق، ويشسئون الواجبات، ومن أجلها يبغى الناس بعضهم على بعض ويعيشون كسباع الغابة أو أسماك البحار، يفترس القوي الضعيف، ويلتهم الكبير الصغير، من أجل شهوات الدنيا ومفاتها يغش التجار ويطفقون، ويتجبر الرؤساء ويستكبرون، ويجور القضاة ويرتشون، ويطفى الأغنياء ويترقون، وينافق ضعفاء النفوس ويتزلفون. من أجل الدنيا يكتم العالم ما يعلم أنه الحق، ويفتى بما يعتقد أنه الباطل.

من أجل الدنيا يروج الصحفي الكذب والزور، ويخفي الحقائق وهي أوضح من فلق الصبح.

من أجل الدنيا يهجو الشاعر كل حليم رشيد، ويؤف عرائس المديح إلى كل سكير وعريبيد.

من أجل الدنيا تسفك الدماء، وتستباح الحومات، وتداس القيم، ويباع الدين والشرف والوطن والعرض وكل معنى أنساني كريم. كل هذا من أجل الدنيا ومتاع الدنيا وشهوات الدنيا: من أجل امرأة أو كاس أو عمارة أو قطعة أرض أو منصب يصغر أو يكبر، أو دنائير تكل أو تكشر، أو حظوة لدى رئيس، أو شهرة بين الناس، أو غير ذلك من هم البطن، وشهوة الفرج، وحب الجاه والمال، وشهوة السيطرة والاستعلاء. أجل إن حب الحياة والأمل فيها جزء من فطرة الإنسان، ولولا ذلك ما عمرت الأرض، ولا ترعرت شجرة الحياة، فلم يكن مما ينافي الحكمة أن يزين للناس حب الشهوات، ولكن الخطر كل الخطر أن يستغرق الناس في حب الدنيا وطول الأمل فيها، وأن تكون هذه الحياة القصيرة أكبر مهمهم، ومبلغ علمهم، ومنتهى آمالهم، شأن أولئك الذين لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون بيوم الحساب. وأولئك الذين يؤمنون بالآخرة ولكنهم عنها مشغولون ولها ناسون، ولهذا علمنا رسول الإسلام أن ندعو الله فنقول: **"اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا"**. إنه لا بد من حب آخر وأمل آخر، أقوى من حب الحياة الدنيا ومن الأمل فيها، وليس ذلك إلا حب الآخرة والأمل في لقاء الله، والطمع في مثوبته ورضوانه، والخوف من حسابيه وعذابه. إن هذه المعاني من الحب والأمل والطمع والخوف هي العواصم المنجية من أخطار المحبة للدنيا والحرص عليها والركون إليها. إنها "صمام الأمن" من خطر الإغراق والإسراف في الإقبال على شهوات الحياة. وذلك هو دور الإيمان الذي يغمر قلب صاحبه يقينا بالآخرة ورجاء فيما عند الله. ومن هنا تكرر وصف المحسنين والمؤمنين في القرآن بقوله: (وهم بالآخرة هم يوقنون) (البقرة: 4 بلطف (وبالآخرة هم يوقنون) والنمل: 3، ولقمان: 4) وفي مقابل ذلك قال في شأن الطغاة والمجرمين: (إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاباً) (النبا: 27، 28)، وفي مشهد من مشاهد الآخرة يقص علينا القرآن تساؤل المؤمنين في الجنة عن الجرمين في النار: (ما سلككم في سقر \* قالوا لم نك من المصلين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نخوض مع الخائضين \* وكنا نكذب بيوام الدين) (المدثر: 42 - 46) وقال في شأن فرعون ومنه: (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم ألينا لا يرجعون) (قصص: 39). ولو ظنوا أنهم إلى ربهم راجعون، وعليه معروضون ما أقدموا على ما فعلوا، من الجرائم البشعة، والمذابح الرهيبة، والمظالم القاسية.

إن المؤمن بالله والآخرة هو الذي يستطيع أن يعلو على شهوات الدنيا، وأن يطرح مغرياتها وراء ظهره، وأن يركل متاعها بقدمه ويقول لها ما قال على بن أبي طالب، رضي الله عنه: **"إليك عني. يا صفراء يا بيضاء، غري غري .. إلى تعرضت أم إلى تشوقت؟ قد طلقك ثلاثاً لا رجعة فيها!"** بل يقول ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام حين دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال له: يا رسول الله: لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: **"مالي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها"** (رواه أحمد وابن حبان في صحيحة والبيهقي).

الإيمان وحده هو الذي يعطي المؤمن هدفاً أكبر من الدنيا، ويشده إلى قيم أرفع وأبقى من شهواتها.

الإيمان وحده هو الذي يعطي صاحبه القدرة على مقاومة إغراء الدنيا وفتنتها. إنه قد يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، وقد تمتلئ بها بداه، ولكن لا يمتلئ بها قلبه، ذلك أنه يعيش في الدنيا بروح المرتحل: كأنه غريب أو عابر سبيل، ومن عاش في الدنيا بهذه الروح فلا خوف عليه من امتلاك القناطر المقتطعة من الذهب والفضة، إنه يحيا في الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويمشي وقدمه في الأرض، وقلبه موصول بالسماء. المؤمن وحده هو الذي امتلأ يقيناً بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضه، وأنها قنطرة عبور إلى الحياة الباقية، وأن ركعتين خاشعتين لله عند الله خير من الدنيا وما فيها، وأن غدوة أو روحه في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وأن موضع قدم الإنسان في الجنة خير من الدنيا وما فيها. وحسب المؤمن أن يعلم أن أنبياء الله ورسله وأوليائه عاشوا في الدنيا معذبين مضطهدين وأن أعداءه وأعداء رسله من الكفرة والمكذبين والملحدين كثيراً ما عاشوا منعمين مترفين.

(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون \* وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون \* وزخرفاً، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين) (الزخرف: 33 - 35).

ليس معنى هذا أن يقعد المؤمن عن السعي في الحياة، أو يحرم على نفسه طبيباتها، أو يدع عجلتها لقيادة الكفار والفجار.

كلا، إنه مأمور أن يعمر الدنيا، وأن ينميها ويرقيها، مأمور أن يمضي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله فيها، وينعم بطبيباتها، ويسخرها لخدمة رسالته وعقيدته. وأن يكون فيها سيداً لا عبداً.

إن الاستعلاء على متاع الدنيا والاستكبار على شهواتها ومغريباتها، ليس معناه أبداً تحريم طبيباتها، أو تعطيل مصالحها، أو تعويق سيرها، إنما المقصود أن تكون الآخرة مراد المؤمن وغاية سعيه، فلا يكون ممن يريد حرث الدنيا، ممن يريد العاجلة ... ممن وصفه القرآن بأنه (طغى) \* وأثر الحياة الدنيا) (النازعات: 37، 38)، وخاطب الرسول في شأنه بقوله: (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا \* ذلك مبلغهم من العلم) (النجم: 29، 30).

بل يجب أن يكون المؤمن ممن أراد الآخرة وسعى لها سعيها، واتخذ الدنيا وسيلة لا غاية، وممراً لا مقراً.

إن الذي لا يوقن بالآخرة يقيناً جازماً، يصعب قطامه عن شهواته، وصرفه عن مجونه ولذاته، لأنه لا يرضى أن يبيع لذة حاضرة يقينية، من أجل لذة آجلة مشكوك في وقوعها عند.

فلا تعجب إذا سمعنا مثل عمر الخيام يقول ما ترجمته بالعربية:

قالوا: امتنع عن شرب بنت الكروم      فإني تورث نار الجحيم!  
ولذي في شربها ساعة      تعدل في عيني جنان النعيم!

ويقول:

أين النديم السمح؟ أين الصبوح؟  
فقد أمض الهم قلبي الجريح!  
ثلاثة هن أحب المنى  
كأس وأنغام ووجه صبيح!

وإنما قال هذا الرجل ما قال، لغلبة شكه على يقينه، ولو أيقن بالأخرة حقاً، لهانت الكأس والأنغام والوجه الصبيح وهانت الدنيا كلها، في جنب ثواب الله تعالى ورضوانه.

إن الإيمان قوة قاهرة غالبة، أقوى من الغرائز والشهوات، وأقوى من سلطان العادات، وأقوى من كل المؤثرات.

### سلطان الغريزة وسلطان الإيمان

لا ريب أن للغرائز في دفع الإنسان سلطاناً لا ينكر، ولكن المثل العليا التي يعيش لها المؤمن تعلو به على الغرائز وسلطانها (أصبح علماء النفس اليوم لا يستحسنون كلمة «الغرائز» ويستعملون بدلها «الدوافع النفسية» ولكننا أثّرنا كلمة الغرائز لشيوعها وظهور معناها لدى جمهور الناس ولا مشاحة في الاصطلاح).

والغريزة الجنسية بخاصة لعنها أعتى الغرائز وأقواها، حتى أن في علماء النفس من فسّر بها السلوك البشري كله، مثل «فرويد»: وهو تفسير حيواني يتجاهل غرائز الإنسان الأخرى، وسائر ملكاته الروحية ودوافعه النفسية - وليس هنا موضع مناقشته (راجع كتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» لمحمد قطب).

وفي الشباب تتجلى هذه الغريزة على أشدها، فالشباب شغلة متوجهة لعظم طاقته الحيوية، وقوة دوافعه النفسية، وقلة علمه وتجاربه في الحياة، بجانب أحلامه وخيالاته الكثيرة، فماذا يمنع الشاب الناضج الفتوة، القوى الغريزة أن يقضي شهوة جنسية مع امرأة لا تحل له إذا تيسرت له أسبابها، وتهيات وسائلها دون خشية من عقاب أو قانون أو إعين الناس؟

لا شيء يمنعه إلا الإيمان .. هذا ما حدث ليوسف عليه السلام: شاب في ريعان الشباب، مكتمل الرجولة، رافع الفتوة، تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال، ليست من عامة الناس ولكنها امرأة العزيز الذي هو في بيتها وهو عبدها وخادمها، والأبواب مغلقة، والسبل ميسرة، كما حكى القرآن: (ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) (يوسف: 23).

فماذا كان موقفه أمام هذا الإغراء، وتلك الفتنة التي تخطف الأبصار!

ألانت قنّاته فاستسلم وخان عرضاً أوتمن عليه؟ كلا .. إنما قال: (معاذ الله! إنه ربي أحسن مثواي! إنه لا يفلح الظالمون) (يوسف: 23). ولقد حاولت المرأة بكدها ومكرها وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد أن تذيب من صلابته وتضعفه من شموخه، وأعلنت ذلك لنسوتها في ضيق وغيظ: (ولقد رأودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرین) (يوسف: 32). ولكن الشاب يوسف اتجه إلى الله يسأله المعونة والعصمة: (رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلین) (يوسف: 33).

كانت فتنة بين ضمير المؤمن، ومغريات الإثم، وفشلت المغريات وانتصر الإيمان.

والغريزة من شأنها أن تطلب متنفساً، فإن طال حبسها خيف عليها الانفجار ما لم يحجزها سد الإيمان.

وهذه امرأة يغيب عنها زوجها فترة طويلة من الزمن، فتخيم عليها كآبة الوحشة، وتهجم عليها هواجس الوحدة، ويثور في عرقها دم الأنوثة، وينطق فيها صوت الغريزة فلا يصده إلا حاجز الإيمان، وفي جذع الليل باتت تشدد:

لقد طال هذا الليل واسود جانبه وأرقتني أن لا حبيب أأعيه  
فوا الله لولا الله تخشى عواقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

وغريزة المقاتلة التي عبر عنها الأقدمون، بالقوة الغضبية، أو القوة السبعية، والتي تثير الإنسان أن يرد الصاع صاعين، وتدفعه إلى التدمير والانتقام، وبها يبدو كالوحش الهائج، أو الإصعاص المدمر. جمره من النار يلقيها شيطان الغضب في جوفه فتنتفخ أوداجه، وتحمر عيناه، ويبدو كأن له مخالب وأنياباً؟

ما الذي يقلم أظافر هذه الغريزة، ويلقي على هذه الجمره المتقدة ماء الهدوء السلام؟

إنه الإيمان الذي يحمل المؤمن أن يكظم الغيظ، ويعفو عن ظلمه، ويحلم على من جهل عليه، ويحسن إلى من أساء إليه، ويجعله يحس في مرارة جرعة الغيظ، حلوة يجدها في صدره.

وقد قص علينا القرآن قصة ابني آدم بالحق: (إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) (المائدة: 27) فما كان من ابن آدم الشرير إلا أن قال لأخيه: (لأقتلك) (المائدة: 27) قال المؤمن الصالح: (إنما يتقبل الله من المتقين \* لنن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين) (المائدة: 27، 28).

خوف الله إذن هو الذي يكف الأيدي أن تمتد بالأذى، وإن التهبت الغريزة، ودفعت إلى العدوان. وقد قال عمر: "من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون".

وكلم رجل يوماً عمر بن عبد العزيز، فأساء إليه حتى أغضبه -هو أمير المؤمنين- فهم به عمر، ثم أمسك نفسه وقال للرجل: أردت أن يستغفري الشيطان بعزة السلطان فأثارت منك ما تناله مني غداً؟ -أي في الآخرة- قم عفاك الله، لا حاجة لنا في مقولتك.

### الإيمان ينتصر على الأنانية

وغريزة الأنانية أو حب الذات غريزة عاتية جبارة، لا يكاد يخلو بشر من سلطانها عليه، وقوة دفعها له، وتوجيهها لسلوكه. وأنتك لترى الناس تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادعاء ما ليس لهم، وجحود ما عليهم من حق، وأكل أموال الناس بالباطل، وعندما يطل شيطان الخصومة برأسه لا يكون إلا حب القلب بأي ثمن، وأية وسيلة.

ولكن عنصر الإيمان إذا دخل المعركة أطفأ لهب الخصومة، فصارت نارها برداً وسلاماً، وحطم طغيان الأنانية فاستحالت تسامحاً وإيثاراً، وحلق بالمؤمن من المتاع الأدنى إلى المثل الأعلى.

وفي القصة التي روتها أم سلمة زوج الرسول مثل واضح على مبلغ أثر الإيمان: رجلان يختصمان في مواريث وليس لهما بينة إلا دعوها، كلاهما يقول: هذا حقي، وينكر على صاحبه أن يكون له حق .. ويحتكم الرجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي صدر كل منهما فرديته وأتانيته، فيصدع الرسول أذانهما وقلبيهما بهذه الكلمات الحية: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار". سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات الهادئة، فلمست أوتار الإيمان من صدريهما، وأيقظت فيهما خشية الله والدار الآخرة، فبكى الرجلان، وقال كل منهما لصاحبه: حقي لك!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أما إذ فعلتما ما فعلتما فافتسما وتوخيا الحق، ثم استهما. ثم تحالا" (القصة في كتاب «الأقضية» من سنن أبي داود) (أي ليحل كل منكما صاحبه وليسامحه فيما عسى أن يكون حقه).

هنا كانت كلمة الإيمان، وكلمة الضمير الذي أيقظته الإيمان، هي القول الفصل، والقضاء العدل في قضية يعجز القاتون المجرد، والقضاء الظاهر، عن معرفة الحق فيها مادام الطرفان متنازعين، ولا بينة لأحدهما.

وقد قص النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه قصة رجلين مؤمنين، ضربهما مثلاً لما يجب أن يكون عليه المؤمنون من العفاف والزهد والإيثار قال: "اشترى رجل من رجل عقاراً له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال للذي اشترى العقار منه: خذ ذهبك عني، إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب.

فقال الآخر: إنما بعثتك الأرض وما فيها!

قال صلى الله عليه وسلم: فتحاكما إلى رجل .. فقال الذي تحاكما إليه ألكما ولد؟

فقال أحدهما: لي غلام.

وقال الآخر: لي جارية.

فقال الحكم: أتكحوا الغلام الجارية: وأنفقوا على أنفسكم منه وتصدقاً" (القصة رواها مسلم في صحيحه).

وهكذا يرى الناس لوناً ممتازاً من النفوس: رجلان وأمامهما جرة فيها ذهب لا يتقاتلان عليها. ولكن يتدافعا، يقول كل منهما لصاحبه: هي لك .. على حين ترى الإنسان دائماً يقول: هذا لي!

سلطان العادة وسلطان الإيمان

هكذا يقف الإيمان القوي أمام طغيان الغرائز الإنسانية فيكفكف من غلوانها، ويحد من شرها، ويقوم من انحرافها، ويوجهها وجهة الخير والسداد والصلاح، ولكن الإنسان لا يخضع لسلطان الغريزة وحدها. وإنما يؤثر فيه -وراء الغرائز- شيء آخر، له سلطاته القاهرة، وكلمته النافذة، ذلك الشيء هو العادة.

والعادة تتكون من ميل الإنسان إلى شيء ما، ثم استجابته لهذا الميل، وفعله لهذا الشيء، ثم تكراره لهذا الفعل مرة بعد مرة، ويوما بعد يوم: حتى ترتبط بأعصابه، وتخط فيها مجرى يختلف في سعته وعمقه تبعاً لقوة العادة وضعفها، ويؤدي هذا الفعل بعد ذلك ببسر وسهولة، أداء يكاد يكون آلياً، ليس فيه إلا قليل من الانتباه والتفكير، ويصبح الامتناع عن هذا الأمر بعد أن صار عادة- من الصعوبة بمكان.

### سلطان العادة وقوتها

ولقد قال بعض الباحثين: "إن الإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض" وقال روسو: "يولد الإنسان ويموت مسترقاً مستعبداً، يشد عليه القماط يوم يولد، والكفن يوم يموت" يريد أنه -فيما بين المهد والحد- أسير للعادات، مستعد للتقاليد.

وقال القدماء: "العادة طبيعة ثانية" يعنون بذلك أن لها من القوة ما يقرب من "الطبيعة الأولى" والطبيعة الأولى هي ما ولد عليه الإنسان وفطر عليه. فكل إنسان خرج من هذا العالم كآلة مجهزة بكثير من العدد: عين تبصر، وأذن تسمع، ومعدة تهضم، وغرائز فطرية .. وهكذا. فهذا الذي ولدنا عليه وورثناه من أبائنا وأجدادنا هو: طبيعتنا الأولى، ولها سلطان كبير على الإنسان، فلو حاول أن يبصر بأذنه ويسمع بعينه ما استطاع، فهو لابد خاضع لسلطانها.

وما يدخله الإنسان على الطبيعة الأولى من التحسين والتقييح هو ما يسمى "الطبيعة الثانية" أو "العادة" ولها كذلك سلطان كبير. فالطريق الذي نخطه لأنفسنا في الحياة، ونعد السير فيه، له من السلطان علينا ما يقرب من سلطان الطبيعة، فنحن أحرار في السنين الأولى من حياتنا، لا سلطان للعادة علينا، حتى إذا نمونا كان نحو التسعين في المائة من أعمالنا من لبس وخلع وطريقة أكل وشرب ونمط في الكلام والسلام والمشي والمعاملة- معتاداً، نعمله بقليل من الفكر والانتباه ويصعب علينا العدول عنه، وتصبح حياتنا مجرد تكرير لأفكار وأعمال كسبناها في مقتبل الحياة".

ذلك هو مبلغ سلطان العادة على الإنسان -فرداً كان أو جماعة- فإذا كانت عاداته صالحة فما أسعده بها، وإن كانت عادته قبيحة ضارة فما أتعبه وما أشقاه بها! إنه يأكل الشيء الذي يضر جسمه، ويشرب الشيء الذي يغيب عقله، ويلبس الشيء الذي يضايقه ويخنقه، ويرتكب الشيء الذي يستقبحه ويستجهنه. وما ذلك إلا لسلطان العادة عليه، وغلبيتها على عقله وإرادته: وحسبنا دليلاً على هذا ما نراه بأعيننا في المدمنين لشرب المسكرات، وتناول الكيوف والمخدرات، ولعب الميسر والقمار.

### سلطان الإيمان أقوى

ولللخلاص من عادة متمكنة لابد من إعلان حرب عليها: حرب ساخنة ملتهبة، لا ينتصر فيها إلا من تسلح بإرادة قوية، وعزم فولاذي لا يتزعزع ولا يلين، وتصميم على الانتصار لا يشوبه يأس أو تردد أو تراخ.

هذا هو سبيل الانتصار على العادات الضارة المنتشرة في مجتمع من المجتمعات، لا العقوبات القاسية، أو القوانين الرادعة وحدها. وكم رأينا في القديم والحديث من قوانين وعقوبات ارتدت مدحورة أمام جبروت العادات.

ومن لنا بالعزم والتصميم الذي يقهر العادة ويحرقها؟ إنه الإيمان الذي يشد العزائم، ويسمو بالنفوس ويمدها بقوة المقاومة والجلاد الباسل، فتخرق أممها أسوار العادات والتقاليد.

### تحريم الخمر بين الولايات المتحدة وأمة العرب

ولكي يتضح لنا أثر الإيمان في تغيير العادات المتمكنة، وتربية النفوس على عمل الخير وإن كان شاقاً، وترك الشر وإن كان مألوفاً ومعتاداً - نقيم موازنة بين موقفين في مشكلة واحدة: موقف من التاريخ الحديث، وموقف من التاريخ القديم، يصوران لنا كيف يصنع وإزع الإيمان ما يعجز عنه وإزع السلطان.

الموقف الأول في الولايات المتحدة الأمريكية ... وقد انتشرت فيها عادة السكر وشرب الخمر انتشاراً أقتع الحكومة بضرر ذلك على الفرد والأسرة والمجتمع، فأصدرت الحكومة قانوناً يمنع الخمر، ثم تبين لوا بعد مدة يسيرة أنها عاجزة تمام العجز عن تنفيذ قانونها، وأن أفراداً وجماعات أخذوا يعيشون في الأرض فساداً بتعاطي الخمر وتدريبها والاتجار بها، والتقنن في صناعتها على استخفاء، واستحضر أخبث أنواعها أكثر من ذي قبل.

ومما ينبغي أن نلتفت إليه أن هذا الحظر لم يكن (أمراً ملكياً) أو منشوراً من إمبراطور مستبد أراد أن يرغم شعبه بسلطان القوة، وقوة السلطان. كلا ... إنه تشريع جاء عن طريق برلمان في بلد ديمقراطي دستوري حر، من شأنه أن يشرع لنفسه ما يجلب له النفع، ويدرك عنه الفساد والضرر. وقد شرع هذا القانون بعد أن اقتنع به الرأي العام وتحقق له من الوجهة العلمية والعملية أن الخمر ضارة بالصحة، مفسدة للعقل، محطمة للحضارة.

فحوالي عام 1918 ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي. وفي عام 1919 أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان "التعديل الثامن عشر" وفي نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد).

وقد أعدت لتنفيذ هذا التحريم داخل الأراضي الأمريكية كافة وسائل الدولة وإمكاناتها الضخمة:

1. جند الأسطول كله لمراقبة الشواطئ، منعاً للتهريب.
2. جند الطيران لمراقبة الجو.
3. شغلت أجهزة الحكومة واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر، وبيان مضارها وجندت كذلك المجلات والصحف والكتب والتشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.

ويقدرون ما أنفقتة الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً 60,000,000 من الدولارات، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ عشرة بلايين صفحة 10,000,000,000، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً - لا يقل عن 250,000,000 مائتين وخمسين مليون جنيه، وقد أعدم في هذه المدة 300 ثلاثمائة نفس، وسجن 532,335 نفس، وبلغت الغرامات 16,000,000 ستة عشر مليون جنيه، وصارت من الأملاك ما بلغ 404,000,000 أربعمائة مليون وأربعة ملايين جنيه، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراماً بالخمر، وعناداً في

تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة 1933 إلى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة (ذكر هذه الإحصاءات الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه «تتقيحات» وعنه نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بالتحطاط المسلمين» ص 177 هامش).

هذه هي نهاية المطاف، وهذا هو ختام القصة:

فشل كامل لأمر الحظر ... وسقوط قرره التعليل الدستوري الحادي والعشرون الذي صدق عليه الكونجرس عام 1932. وذلك هو الموجز التاريخي للمأساة التشريعية بأكملها ... تلك التي سميت في تاريخ الأمة الأمريكية (عهد التحريم).

لقد فشل القانون، وعجزت السلطات، وأفلست أجهزة الدولة، في منع الخمر ومحاربة السكيرين، برغم الاقتناع العقلي الذي كان سائداً في الأمة بضرر الخمر، ولكن الاقتناع العقلي شيء وعمل الإرادة شيء آخر.

ولقد قال أحد الكتاب الغربيين بحق: "إن طلب شيء في تصميم وقوة يتطلب روحاً من التعبد والتشغف، أي تكريس الحياة لبلوغ مثل أعلى واحد، اختاره الإنسان بعناية وتفتن ... إن الإرادة تغلب دائماً الثقافة، حينما تكون الثقافة لا المبادئ الدينية هي التي يرتكز عليها تصميم المرء ونشاطه ومدده الروحاني"

### فشلت الأساطيل ونجح الإيمان

هذا موقف، والموقف الآخر من تاريخنا العربي الإسلامي القديم:

فقد بعث محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار. تجري من نفوس أبنائه مجرى الدم، يتمدحون بشربها، ويفتنون في وصفها ووصف مجالسها وتذماتها وأقداحها، ويصور شاعرهم مدى تعلقه بها فيقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة      تروي عظامي بعد موتي عروقهـا

ولم يستطع امرؤ القيس الشاعر المعروف -وقد بلغه قتل أبيه- أن يدع الكأس من يده، ويفارق مجلس ندمانه بل قال كلمته المشهورة: "اليوم خمر وغداً أمر".

ولم يعرف المجتمع الجاهلي إلا أفراداً معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة وسجل لهم ذلك التاريخ كمأثرة نادرة، كزيد بن عمرو بن نفيل.

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة، وكنيات مختلفة، وألقاباً متعددة - المدامة، السلافة، الراح، الصهباء، ابنة العنقود، ابنة الكرم، بنت الحان، بنت الذنان ... إلى آخر الأسماء التي بلغت أكثر من مائة ("حلية الكميـت" للنواجي ص 6 وما بعدها). كما أن تجارتها عندهم كانت في نماء وازدهار.



ومن أدلة شغفهم بها، وتمكنها من نفوسهم، أن كثيراً من الصحابة بعد أن نزلت الآياتان الأوليان في شأن الخمر: (قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (البقرة: 219)، و (لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى) (النساء: 43) ولم يكن التحريم فيها صريحاً حاسماً، لم يزالوا يشربون الخمر مادام في النص متسع لهم.

ذلك أن الإسلام تدرج معهم في تحريم الخمر -رفقاً بهم وتيسيراً عليهم- حتى نزلت آية المائدة الصريحة القاطعة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ \* إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مِّنْتهُونَ) (المائدة: 90، 91).

وهنا رأينا العجب ... رأينا الرجل يحطم كأسه، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها. عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْخَمْرَ، وَلَعَلَّ اللَّهَ سَيَنْزِلُ فِيهَا أَمْراً، فَمَنْ كَانَ عَنْده شيء فليبيعه ولينتفع به" (وذلك قبل التحريم النهائي) قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيراً، حتى قال: "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَته هَذِهِ الْآيَةُ -يعني آية المائدة السابقة- وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع"، قال أبو سعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها -أي صبوها وأسألوها- (رواه مسلم).

وعن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم أت فقال: إن الخمر حُرمت ... فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها ... فأهرقها. (متفق عليه).

وعن أبي موسى الأشعري قال:

بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة -أي حلالاً- إذ قمت حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) (المائدة: 90) - إلى قوله: (فَهَلْ أَنتُم مِّنْتهُونَ) (المائدة: 91) فجئت إلى أصحابي، فقرأتها عليهم ... قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء ... فقال بالإثناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجاج ثم صبوا ما في بائيتهم فقالوا: انتهينا ربنا ... انتهينا ربنا، (رواه الطبري في تفسير آية المائدة).

فهل رأت البشرية مثل هذا انتصاراً على النفس، وسرعة في الاستجابة، وقوة في الانقياد للأمر مهما يكن مخالفاً للعادات، مصادماً للشهوات؟

### الضمير ومكانة الأخلاق

في أعماق النفس الإنسانية قوة خفية لا تشاهد بالعين، ولا ترى بالمجهر، ولا يعرفها التشريح والفسبولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، إنها قوة معنوية بحسبها الإنسان في حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشاف ينير له الطريق، وتتجنب به إلى الخير كأنها الإبرة الممغنطة تجذب دائماً نحو الشمال، وتدفعه عن الشر كأنها صوت الأب يحذر ولده، أو الأستاذ ينصح تلميذه، فإذا خالف ما تأمر به أو اقترف ما تحذر كانت هذه القوة محكمة تقضي له أو عليه. تقضي له بالراحة والسرور والطمأنينة، أو تحكم عليه بالألم والقلق والعذاب.

هذه القوة الكاشفة الهادية، الأمرة الناهية، المحذرة المحرصة، الحاكمة المنفذة. هي التي سماها علماء الأخلاق "الضمير" وسماها بعضهم "الوجدان" وسماها الإسلام "القلب" وقال الرسول لمن جاء يسأله عن البر والإثم: "البر ما سكنت إليه النفس وإيمان إلى القلب. والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفثاك المفتون" وفي حديث آخر: "استفت قلبك وإن أفثاك الناس وأفثوك وأفتوك".

إنها قوة تسبق العمل وتقارنه وتلحقه، فتسبقه بالإرشاد إلى عمل الواجب والتحذير من المعصية، وتقارنه بالتشجيع على إتمام العمل الصالح، والكف عن العمل السيئ وتلحقه بالارتياح والسرور عند الطاعة والإحساس بالألم والوخز عند العصيان.

هذا الضمير أو "الوجدان" أو "القلب" هو عماد الأخلاق، وركيزتها الأولى، فهو كما رأينا. يهدي إلى ما تشابه منها، ويرغب في خيرها، ويزع عن شرها - ويقف ديبابنا يقظاً على حراستها.

والمجتمع -أي مجتمع- لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين، وإصدار القرارات وتنظيم اللوائح، ويقظة رجال السلطة. وإن كان لا يستغني عن ذلك كله - وإنما يرقى وينتظم ويسعد، بوجود القلوب الحية، وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه. ومن الحكم المشهورة: "العدل ليس في نص القانون، وإنما هو في ضمير القاضي".

هذه أهمية الضمير بالنسبة لمن يقضي ويحكم، أما المحكومون بالقانون فقد قال قائلهم:

لن يصلح القانون فينا رادعاً حتى نكون ذوي ضمائر تردع

أثر الإيمان في تكوين الضمير

والإيمان بلا ريب- هو أعظم مدد للضمير، وأقوى «موئد» يغذيه ويمده «بالتيار» الذي يمنحه الضوء والحرارة والقوة المحركة. فعقيدة المؤمن في الله أولاً. وعقيدته في الحساب والجزاء ثانياً. تجعل ضميره في حياة دانماً وفي صحو أبداً.

إنه يعتقد أن الله معه حيث كان، في السفر أو في الحضر، في الجلوة أو في الخلوة، لا يخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه سر ولا علانية: (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم) (المجادلة: 7)، (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) (يونس: 61). وقد كان المشركون ياترون برسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل الوحي من الله يفصح سترهم، ويكشف أمرهم فقال بعضهم لبعض: غشوا أصواتكم حتى لا يسمعا إله محمد! فنزل قول الله تعالى: (وأسروا قولكم أو اجهروا به، إنه عليم بذات الصدور \* ألا يعلم من خلق هو وخلق اللطيف الخبير) (الملك: 13، 14).

ويعتقد المؤمن لذلك أنه محاسب يوم القيامة على عمله، مجزى به إن خيراً أو شراً فما تقدم من عمل لم يذهب بذهاب أيامه، بل كتبه «كلم التسجيل» الإلهي، الذي يحصي له وعليه الصغيرة والكبيرة: (إذ يتلقى المتلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) (سورة

ق: 17، 18)، (وإن عليكم لحافظين \* كراماً كاتبين \* يعمنون ما تغفلون) (الانفطار: 10 - 12)، (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، بلى ورسلنا لديهم يكتبون) (الزخرف: 80).

وهذه السجلات الوافية لن يضعها الإهمال، أو يمحوها مرور الزمان إنها ستحفظ عند الله حتى يتلقاها صاحبها يوم الجزاء: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً \* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) (الاسراء: 13، 14). وحينذاك يجد ما كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم، ويذكر من الأعمال ما كان ناسياً: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً) (الكهف: 49) (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد) (المجادلة: 6).

هناك توزن الأعمال من خير أو شر، من حسنات وسينات، بميزان إلهي دقيق لا يعرف كنهه ولا كفيته، ثم الحساب الإلهي العادل: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها، وكفى بنا حاسبين) (الأنبياء: 47)، (والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) (الأعراف: 8، 9). وبعد ذلك فريق في الجنة وفريق في السعير: (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) (النساء: 173).

بهذه العقيدة في الله، وفي الجزاء في الآخرة يصبح المؤمن ويمسي مراقباً لربه محاسباً لنفسه، متيقظاً لأمره متدبراً في عاقبته، لا يظلم ولا يخون، لا يتطاول ولا يستكبر، لا يجد ما عليه. ولا يدعى ما ليس له، لا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غداً، ولا يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية، يقول ما قال الصوفي الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل: علي رقيب  
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن ما تخفيه، عنه يغيب

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: (رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه) (البينة: 8) فقال: معناه: لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده.

وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ قال: بخمس .. استقامة ليس فيما روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة لله في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب.

إن الضمير الذي يربيه الإيمان برقابة الله وبحساب الآخرة ضمير حي يفظ مرفف الحساسة. يحاسب المؤمن قبل أن يقوم على العمل: ماذا تعمل، ولماذا تعمل، ولمن تعمل، ويحاسبه بعد العمل: ماذا عملت؟ ولماذا عملت؟ وكيف عملت؟ هو قاض مستعجل يصدر حكمه سريعاً بالمتوبة أو العقوبة، وليست عقوبته مقصورة على الوخز النفسي واللذع المعنوي، إنه أحياناً يقرر عقوبات مادية أيضاً.

قال الحسن البصري في قوله تعالى: (ولا أقسم بالنفس اللوامة) (القيامة: 2) قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلمتي؟ ماذا أردت بشريتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

وقال أيضاً: المؤمن قوام على نفسه بحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال:- المؤمن يفيجوه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات. حيل بيني وبينك - وهذا حساب قبل العمل- ثم قال: ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا، والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله - وهذا حساب بعد العمل.

قال مالك بن دينار: رحم الله امرءاً قال لنفسه: الست صاحبة كذا؟ الست صاحبة كذا؟. ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان له قائداً. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمراتها، وأشرب من أنهارها وأعلق أبقارها .. ثم مثلت في النار أكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغللها .. ثم قلت للنفس: يا نفس، أي شيء تريدان؟ قالت : أريد أن أرى الدنيا، فأعمل صالحاً، قال: فانت في الأمانة فاعلمي!!

وهذه طريقة اتخذها الرجل في إيقاظ نفسه، وإن شئت فقل: في إحياء ضميره. لقد تخيل المتوقع واقعاً والغائب حاضراً، ثم قال لنفسه بعد أن عرض عليها الصورتين: تخيري واعلمي!!

وهناك طريقة أخرى كان الأحنف بن قيس يصطنعها ليذكر نفسه بنار الآخرة وعذابها. كان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

ومن أساليب محاسبة النفس ما روي عن توبة الصمة وكان محاسباً لنفسه أنه حاسبها يوماً، فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتي؟ ألقى الله بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!

ومن الأمثلة لأحكام العقوبة التي يصدرها ضمير المؤمن، فيتقبلها ويسرع إلى تنفيذها، ما روي عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه أنه اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه (بستانه) فتصدق بالحائط كفارة لذلك.

#### أثر الضمير الديني في مجالات الحياة

هذا هو أثر الإيمان في تكوين ضمير المؤمن وتغذيته وتعهده، وهذا الضمير الديني هو الركيزة الأولى للأخلاق وهو الأساس الأصل لحياة اجتماعية فاضلة، حلم بها الفلاسفة صوراً في الخيال ترسم، أو نماذج على الورق تكتب، وجعلها الإيمان واقعاً يمشي على الأرض بين الناس. وأماناً أمثلة لذلك في مجالات شتى:

#### في أداء الحقوق المالية

تفرض القوانين التي وضعها البشر لأنفسهم، أو يضعها لهم جماعة منهم ضرائب على أهل المال منهم لقاء ما تقدم لهم الدولة من خدمات، وأداء لما يجب عليهم من مشاركة في أعباء الأمة وواجباتها، ولكننا نجدهم يتهربون من أدائها بكل وسيلة، ويتحايلون على التخلص من التزامها بكل سبيل!!

وازن هذا بالزكاة في الإسلام، تلك الضريبة التي فرضها الإيمان عبادة على المسلم، يتقرب بها إلى مولاه، ويقدمها طيب النفس، راضي القلب، داعياً ربه "اللهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغراً" محاولاً أن تكون من أطيب ما عنده وأفضله، بحاسب نفسه قبل حساب جباتها -العاملين عليها- وقد يبدل أكثر مما يطلب منه موقناً أن ما عنده ينفد وما عند الله باقٍ.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: بعثني النبي صلى الله عليه وسلم مصداً -أي جابياً للزكاة- فمررت برجل، فلما جمع لي ماله -من الأنعام- لم أجد عليه فيه إلا ابنة مخاض.

فقلت له: أدا ابنة مخاض، فإتبعها صدقتك..

فقال: ذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر (أي لا يقدر أن يركب ويحمل عليه) ولكن هذه ناقة فتية عظيمة سميعة فخذها.

فقلت له: ما أنا بأخذ ما لم أؤمر به، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم منك قريب، فإن أحببت أن تأتيه فتعرض عليه ما عرضت علي فافعل .. فإن قبله منك قبلته، وإن رده عليك رددته.

قال: فإني فاعل.

فخرج معي، وخرج بالناقة التي عرض علي حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا نبي الله: أتاني رسول ليأخذ مني صدقة مالي وأيم الله ما قام في مالي رسول الله ولا رسوله قط قبله، فجمعت له مالي، فزعم أن ما علي فيه ابنة مخاض، وذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر، وقد عرضت عليه ناقة فتية عظيمة ليأخذها فأبى علي. وها هي ذي .. قد جئت بك بها يا رسول الله. فخذها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك الذي عليك، فإن تطوعت بخير أجرك الله فيه وقبلناه منك.

قال: فها هي ذي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم- قد جئت بك بها فخذها.

قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبضها .. ودعا في ماله بالبركة. (رواه أبو داود).

#### في الاعتراف بالجريمة وتحمل العقوبة

ويفرض القانون عقوبات مادية رادعة على من يرتكبون الجرائم، ولكن المخالفين للقانون يحاولون الفرار من قبضتيه، والتفقت من دائرة سلطانه، وفي غفلة من القانون والرقباء عليه، يقدمون على أعمالهم، مستخفين عن الأعين، أو ظاهرين وقد ألبسوا عملهم الأثم ثوب القانون أو مستنديين إلى ذي سلطان يشفع لهم، أو يحمي ظهرهم، إلى آخر ما نعرف عن صور التفقت من يد القانون.

فإذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على صاحبه وجدنا صورة أخرى، ومنطقاً آخر، وجدنا المؤمن إذا زلت قدمه فافتقر جرمًا -هو بطبيعته بشر يخطئ ويصيب- سرعان ما يستيقظ ضميره، ويدفعه دفعاً حتى يذهب إلى يد العدالة، فيعترف بالجريمة ويطلب العقوبة لنفسه تطهيراً من آثام الإثم، وأوزار العصيان، ورجاء في أن تكون كفارة له عن ذنبه، وشفيعاً له إلى ربه، لا يمنعه من الاعتراف أن فيه جلد ظهره أو قطع يده أو إزهاق روحه.

فهذا رجل عربي -هو ماعز بن مالك- يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: يا رسول الله، ظلمت نفسي وزنيت، وإنني أريد أن تطهرني، فيقول له: لعك لأمست؟ لعك قبلت! لعك فاخذت! ويرد الرجل مرة ومرة ومرة، والرجل مصر على الاعتراف بخطيئته، مصر على التطهر منها بإقامة حد الله عليه، ولو كان الرجم بالحجر، ويأمر الرسول أخيراً إقامة الحد عليه، فيتقبله صابراً محتسباً، راغباً في عفو الله ومغفرته. وهذه امرأة أعرابية تعرف بالغامدية، تزني ويضطرب في أحشائها جنين من الزنا، فيأتي عليها ضميرها المؤمن -وقد ارتكبت الفاحشة سرا- إلا أن تتطهر منها جهاراً.

وجاءت رسول الله تقول له: إنني قد زنيت فطهرني؟ فيردها الرسول فتأتي في الغد فتقول: يا رسول الله .. لم تردني؟ لعك أن تردني كما رددت ماعزاً .. فو الله إنني لحبلى!!

فيقول لها: أما لا .. فاذهبي حتى تلدي.

وتذهب المرأة تنتظر الوضع، وتمضي عليها الأيام والأشهر دون أن تخبو جذوة ضميرها. فما أن ولدت حتى أتت بالصبي في خرقة، وقالت للرسول: ها قد ولدته.

قال لها: فاذهبي فأرضعيه حتى تقطعيه.

وتعود المرأة إلى دارها ترضع ولدها، وتمضي مدة الرضاع -وهي في العادة حولان كاملاً- أربعة وعشرون شهراً لم يستطع اختلاف الليل والنهار فيها أن ينسي المرأة ما ارتكبت من خطيئة.

وبغير إعلان من محكمة، ولا تنبيه من حاكم، ولا حراسة من شرطي ترجع المرأة إلى رسول القوانين طائعة مختارة، لتلقى مصيرها الذي رضيته لنفسها فتقدم إليه الصبي وفي يده كسرة من الخبز، وتقول: هذا يا نبي الله قد قطمته، وقد أكل الطعام. ولم يجد النبي بداً بعد هذا أن أمر بها، فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضج الدم على وجهه، خالد، فسبها .. فسمع نبي الله سبه إياها .. فقال: "مهلاً يا خالد، فو الذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها الله تعالى!!" (القصة رواها مسلم).

#### في رعاية القوانين والأمانات

أصدر عمر بن الخطاب قانوناً يمنع غش اللبن يخلط بالماء .. ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف؟ وهل تستطيع يده أن تقبض على كل غاش!

القانون أعجز من هذا..

الإيمان هو الذي يعمل عمله في هذا المجال.

وهنا تحكى القصة المشهورة حكاية الأم وابنتها: الأم تريد أن تخلط اللبن طمعاً في زيادة الربح، والبنت تذكرها بمنع أمير المؤمنين.  
الأم تقول: أين نحن من أمير المؤمنين؟! إنه لا يرانا..

وترد الابنة بالجواب المفحم: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا!!

وروى الطبري: لما هبط المسلمون (المدائن) وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه. فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه!!

فقالوا له: أخذت شيئاً؟

فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به..

فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا: من أنت؟

فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه.. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه.. فسأل عنه فإذا هو (عامر بن عبد قيس).

وقد نقل إلى عمر كثير من الغنائم التي يخف حملها ويغلو ثمنها، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً، فقال في إعجاب وتقدير: إن قوماً أدوا هذا لأمناء!

وقال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فالتحدر بنا راع من الجبل، فقال له: يا راعي، يعني شاة من هذه الغنم.

فقال: إني مملوك.

فقال -اختباراً له-: قل لسيدك أكلها الذئب.

فقال الراعي: فأين الله؟

فيكى عمر رضي الله عنه ثم غدا مع المملوك، فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

في السياسة والحكم

أما في مجال السياسة والحكم -وهو المجال الذي يغري بالحيف والغرور والطغيان- فقد قص علينا التاريخ أمثلة شامخة لخلفائنا المهديين، في العدالة الكاملة التي لا تتحيز لقريب أو تتحيف على عدو، وفي المساواة القانونية التي لا تعرف الفوارق، وفي الزهد الذي يعرض عن الدنيا وفي يده البيضاء والصفراء، والقوة والسلطان. لقد كان "الضمير" المؤمن هو الذي يحكم ويسود، فسادت الفضيلة وسادت العدالة والمساواة، ذلك الضمير الذي جعل خليفة كعمر يدخل حانطاً لقضاء حاجة فيسمعه أنس يقول -وبيניהما جدار الحائط-: عمر بن الخطاب أمير لمؤمنين!! بخ بخ!! والله لتتقين الله بني الخطاب، أو ليعذبك!!

هذا الضمير هو الذي جعله في عام المجاعة المعروف «بعام الرمادة» لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى أسود جلده، فيكلمه بعض الصحابة في ذلك، فيقول: **بنس الوالي أنا إن شبعت والناس جيعاً!**

ورأى يوماً فتاة صغيرة تتمايل من الجوع. فقال: من هذه؟ فقال ابنه عبد الله: هذه ابنتي. قال: فما بالها؟ قال: إنك تحبس عنا ما في يدك فيصيبنا ما ترى. فقال: يا عبد الله، ببني وبينكم كتاب الله، والله ما أعطيك إلا ما فرض الله لكم. أتريدون مني أن أعطيك ما ليس لكم فأعود خائناً؟! قال ابن كثير (في كتاب "البداية والنهاية") بعد أن ذكر أعمال عمر الجليلة وفتوحاته العظيمة: "وكان متواضعاً في الله، خشن العيش خشن المطعم، شديداً في ذات الله، يرفع الثوب بالأديم -أي الجلد- ويحمل القرية على كتفيه، مع عظم هيئته، ويركب الحمار عرياً، والبعر مخطوماً بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً، وكان نقش في خاتمة، "كفى بالموت واعظاً يا عمر".

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول له جعد بن هبيرة، يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان، أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذهبك لذبحك فتقتضي لهذا على هذا!

قال: فلهذه علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي لفعلت، ولكن إنما ذاك شيء لله.

ويحدثنا الشعبي أن علياً رضي الله عنه ضاعت منه درع فوجدها عند نصراني. فأقبل به إلى القاضي «شريح» يخاصمه، وقال علي: هذه الدرع درعي ولم أبع ولم أهب.

فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين.

فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! فالتفت شريح إلى علي وقال: يا أمير المؤمنين، ألك بيئة؟

فابتسم علي وقال: أصاب شريح، ما لي بيئة.

فقتضى بالدرع للنصراني، فأخذها ومس خطوات ثم رجع، فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقتضي فيقتضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين. قال: أما إذ أسلمت فهي لك.



كان الضمير المؤمن هو الذي يحكم الخليفة والقاضي، فلم يحاول الخليفة المؤمن أن يتخذ القوة لأخذ حقه أو يؤثر على القاضي ليحكم في صالحه، ولم يحاول القاضي المؤمن أن يطوع النصوص إرضاء لأميره -رغم ما يعتقد من صدقه- فالشرع سيد على الجميع: الأمير والسوق. والمسلم والنصراني سواء.

وكان علي رضي الله عنه يلبس القميص -وقد اشتراه بثلاثة دراهم- ويقول: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري عورتني!!

ومفتاح هذا الزهد وتلك العدالة ما قاله بعضهم: كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبائع والبقال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين) (النقص: 83) ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من الناس.

الرجبة في الدار الآخرة، وحسن العاقبة عند الله، هي السر الكامن وراء هذه المثل الرفيعة، والأعمال الكبار.

وهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد الذي يقول فيه مالك ابن دينار: يقولون: مالك زاهد! .. أي زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أنته الدنيا فاعرة فاها، فتركها جملة!

أجل، فلم يكن له في خلافته سوى قميص واحد يلبسه، فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس. وهو الذي نشأ وشب في أحضان النعيم. ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهماً يشتري به عنباً، فلم يجد عندها شيئاً .. فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزانك ما تشتري به عنباً؟!

فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأتكال غداً في نار جهنم. وقد اجتهد في مدة ولايته مع قصرها- حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه ينادي في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الراغبون في الزواج؟ أين اليتامى؟ أين المساكين؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء. ومع عدله وزهده، وردته للمظالم، وشدته على نفسه وأقاربه كان يتاجر ربه ليقول: اللهم إن عمر ليس أهلاً أن تتاله رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تتال عمر.

وأثنى عليه رجل فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين. فقال: بل جرى الله الإسلام عني خيراً (هذه الأخبار عن عمر بن عبد العزيز نكرها ابن كثير في "البداية والنهاية" ج 9 ص 192 وما بعدها).

لقد رد الحق إلى نصابه، فما هو إلا خريج مدرسة الإسلام، وصياغة مصنع الإيمان.

لقد أظننا في سرد هذه الأمثلة، لأن الحكم الذي لا يقوم عليه رجال مؤمنون، والسياسة التي لا يراعاها ضمير مؤمن إنما هي كما قال الشاعر:

كملت الطبل يسمع من بعيد وباطنه من الخيرات خال

في التجارة والمعاملة

يروى الإمام الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسيات بعشرة فلما عاد ابن المنكدر وعرف، لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة.

فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال: وإن رضيت. فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك.

فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي (الإحياء: ربيع العادات كتاب الكسب ص 72، 73).

ويروي الغزالي أيضاً أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، منها ضرب قيمة كل حلة منه أربعمئة درهم، وضرب كل حلة مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها أي بأربعمئة. فمشى بها وهي على يديه فاستقبله يونس. فعرف حلتها. فقال للأعرابي بكم اشتريتها؟ فقال: بأربعمئة. فقال: لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردّها. فقال: هذه تساوى في بلدنا خمسمئة وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها. ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم. وخاصم ابن أخيه في ذلك وقتله. وقال: أما استحيت؟ أما اتقيت الله أتريح مثل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟! فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك؟! (الإحياء: ربيع العادات كتاب الكسب ص 72، 73).

إن التجار عادة يغلب عليهم حب الكسب إلى حد الجشع حيناً، والخيانة والظلم أحياناً. فإذا غلب الإيمان هان المال في سبيل المثل الأعلى ومكارم الأخلاق.

وليست هذه النماذج خاصة بالقرون الأولى وعهد السلف الصالح من المسلمين. فلا زال للإيمان أثره إلى اليوم في كل بلد من ديار الإسلام، وإن اختلف الكم والدرجة عما كانا عليه من قبل.

يذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي بعض ذلك في مقال له (نشرت في مجلة "البعث الإسلامي") يقول: "حدثني بعض الثقافت المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم، والنظر في مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدده من الربح والوارد، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم، قال له في لطف وهذوء: "دونك هذا الدكان الذي هو بجوارى! تجد عنده ما تجده عندي، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم، فهو أحق بأن تشتري منه".

ويتحدث الأستاذ محمد أسد (هو "البوبولفايس" الذي أسلم بعد أن أقام في بلاد المسلمين مدة طويلة، ودرس الإسلام بلغته وألف كتباً منها "الإسلام على مفترق الطرق" و "الطريق إلى مكة") النمسواي عن مدينة إسلامية عربية كبيرة هي "دمشق" فيذكر انطباعاته كما يلي: "وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضهم بعضاً، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن

صاحب دكان منهم ليرتك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه، كلما دعتة حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما إذا كان ينتظر عودة البائع، أو ينتقل إلى الدكان المجاور، فيتقدم التاجر المجاور دأماً للتاجر المزاحم- ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة -لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب- ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟" (الطريق إلى مكة ص 167 باختصار).

### في الموساة والإيثار

ويتجلى أثر هذا الضمير الذي صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر في مجال الموساة والإيثار بالمال والنفس. فكان الرجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ويبدل له من ذات يده، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه، وأحب أهليه إليه. وقد يرتقي الإيمان بأحدهم، فيؤثر أخاه على نفسه. فيجود له بالشيء، وهو أحوج ما يكون إليه، كل ذلك ولا قانون يلزمه، ولا حكومة تطلبه، ولا أجهزة تراقبه، ولا عقوبة تسلط عليه، وإنما هو دافع الإيمان بين جنبيه، يحفزه على عمل الخير، والتطوع بالبر، ابتغاء ما عند الله وما عنده خير وأبقى.

روى مالك في موطنه أنه بلغه عن عائشة رضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فأمرت جارية لها أن تعطيه الرغيف فقالت الجارية: ليس لك ما تطعنين عليه! فقالت: "أعطية إياه" ففعلت، وربما يظن بعض الناس أنها إنما أثرت بالرغيف لئلا يهوانه عليها، فيسمعوا هذه القصة التي رواها المؤرخون والمحدثون:

بعث معاوية بن أبي سفيان يثمانين ألف درهم إلى عائشة، وكانت صائمة، وعليها ثوب خلق، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تبق منه شيئاً. فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين ما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم تطعنين عليه؟ فقالت: يا بنية لو ذكرتيني لفعلت (رواه الحاكم في المستدرك)!!

إن الصائمة التي أثرت المسكين بالرغيف وليس في بيتها ما تطفر عليه غيره، أثرت بمنات الألوف من الدراهم دون أن تذكر بطنها الجائع، ولا ثوبها الخلق.

ومثل عائشة زينب بنت جحش أم المؤمنين، التي كانوا يلقبونها بـ «أم المساكين» حدثت برزة بنت باع أنه لما خرج العطاء أرسل إليها عمر نصيبها منه، فلما دخل عليها حامل المال، قالت: غفر الله لعمري! غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني، فقالوا: هذا كله لك. قالت: سبحان الله. واستترت منه بثوب ثم قالت: صوبوه واطرحوا عليه ثوباً.

قالت راوية القصة: ثم قالت لي: أدخلني يدك فأقبضي منه قبضة فذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمها وأبنائها فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب. فقالت لها برزة بنت باع: غفر الله لك يا أم المؤمنين. والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب .. قالت: فكشفنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهماً (طبقات ابن سعد ج 3 ص 201).

وأخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار، فجعلها في صرة، ثم قال لغلّامه: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تله (تشاغل) في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها الغلام إليه .. فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدنا، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها

لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ وتله (تشاغل) في البيت حتى تنتظر ما يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. تعالى يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة هي امرأة معاذ وقالت: نحن والله مساكين، فاعطينا، فلم يبق في الخرق إلا ديناران فرمى بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره: فسر بذلك فقال: انهم اخوة بعضهم من بعض (رواه الطبراني في الكبير)!!

وروى ابن سعد أن عبد الرحمن بن عوف باع لعثمان بن عفان أرضاً له بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك في الفقراء من أقربيه، وفي ذي الحاجة من الناس، وفي أمهات المؤمنين (طبقات ابن سعد ج 2 ص 12، 13).

وروى أن عيراً (قافلة تجارية) قدمت لعبد الرحمن، فكان لأهل المدينة يومئذ رجة، فقللت عائشة: ما هذا؟ قيل لها: هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت، فقللت عائشة: أما إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كأنني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط، يميل به مرة ويستقيم أخرى، حتى يفلت ولم يكد.." فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: هي وما عليها صدقة، قال راوي القصة: وكان عليها أفضل منها، قال وهي يومئذ خمسمائة راحلة " بهذه السهولة جاد الرجل بكل هذا المال وكل هذه التجارة التي ارتجت لها المدينة وقال كلمته: هي وما عليها صدقة! وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: كان أبو طلحة أكثر الأمصار بالمدينة مالاً من نخل. وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (اسم حديقة له) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (آل عمران: 92) قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أن الله تبارك وتعالى يقول: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة. أرجو برها ونخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بخ بخ .. ذاك مال رباح! ذاك مال رباح".

ونكر الغزالي في الإحياء عن ابن عمر قال: أهدى إلي رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال: فلان أحوج إليه مني، فبعث به إليه. فبعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة! ولا يحسن القارئ أن هذه كانت حوادث فردية، لا تصور حقيقة المجتمع كله، فإن أمثال هذه المواقف كثيرة جداً، هي تصور بحق روح المجتمع واتجاهه وفلسفته ونظيرته إلى المال والحياة.

روى البخاري في الأدب المفرد عن ابن عمر قال: "لقد أتى علينا زمان -أو قال حين- وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم". وحسبنا أن القرآن الكريم سجل للأصناف في المدينة -وهو جمهور المجتمع الإسلامي بها- هذه الصورة الراقية من صور الإخاء والمواساة والإيثار فقال: (والذين يتوآءون الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) (الحشر: 9)

#### اعتراضات وشبهات

لقد تبين لنا فيما سبق- أثر الدين والإيمان في تكوين الأخلاق الفاضلة وتربية الضمائر اليقظة. وضربنا لذلك أمثلة من نماذج بشرية صنعها الإيمان. فإذا هي فضائل متجسدة، تمشي على الأرض.

والأمر لا يحتاج إلى أمثلة، فآثر الدين في هداية الإنسان وصنع الحضارة أثر لا ينكر، وبحق ما قاله أحد المؤرخين: لا ريب أن الدين كان أعظم قوة في التاريخ هذبت توحش الإنسان.

وذهب بنيامين كيد Kad إلى أن جميع الحضارات قامت على أساس الجزاءات الأخروية التي قدمها الدين للأخلاق.

وربما أعترض بعض الناس على صلة الدين بالأخلاق بأن هناك بعض الملحدين يتقيدون بالفضيلة والخلق وهم لا يؤمنون بالدين، ويرد على ذلك "تارد" أنه يعتقد أن الحياة الشريفة عند بعض الملحدين ترجع إلى الأثر المستمر لتربيتهم الدينية، وهو ما سماه كارليل «النور اللاحق» للمسيحية - إذ هو يتحدث عن ملحد من الغرب من المسيحيين- وهذا هو الذي أشار إليه «رينان» حين كتب عبارته المشهورة: "إننا نعيش على ظل لظل -يقصد ظل الدين- فعلى أي شيء سيعيش الناس بعدنا؟" - كيف يتحكمون في شهواتهم ودوافعهم إلى الكذب والسرقة والقتل حين يختفي حتى هذا «النور اللاحق» للعقيدة على فراش الموت؟.

وقد كتب دستوفسكي أعظم قصصي في العالم، ليبين كيف أصبح الإنسان «متلبساً» بالشياطين حين هجر الله (من كتاب "مباهج الفلسفة" لول ديورانت ج 2 ص 276).

وليس هذا ما يقرره المؤمنون بالدين فحسب، بل هذا ما يعترف به المنصفون من المتدينين والمنكرين على السواء.

فمن الملحدين من يرى الدين خرافة، ولكن الحياة لا تستقيم بدونه، ويرى الأخلاق لا غنى لها عن هذا الوهم في رأيه، ويقول آخر: "لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخترعه"، وذلك لما يرى من أثر الإيمان بهذا الإله في النفس وفي الحياة. ويقول الأديب الفرنسي الشهير «فولتير» ساخراً لم تشككون في الله ولولاه لخالتني زوجتي، وسرقتي خادمي؟

ويقول ثالث: إنني لا أعتقد في وجود جهنم، ولكن أعتقد أن الفكرة عنها قد باعدت بين كثير من الناس وبين ارتكاب الشر. والذي أراه أن الشباب حين يكتشف أن جهنم لا وجود لها فإنه لا يحفل بشيء، ووظيفة الأخلاق أن تمثل الكل في مقابل الجزء، والمستقبل في مقابل الحاضر، وهذا بالضبط ما يسعى الدين إلى عمله، الدين كما يقول هوفدنج- "هو الاحتفاظ بالقيم، وبغير الجزاءات الدينية تصبح الأخلاق مجرد تقدير، فيختفي الإحساس بالواجب، ويقف كل شاب جميع ذكائه وعلمه على التحايل على الوصايا".

### الخوف من الله واليوم الآخر وأثره في التربية

هذه بعض شهادات الملحدين في أثر الدين في الخلق والسلوك. ولكن قوماً مع هذا يشيعون أن طريقة الدين في التخويف من الله ومن الحساب في الآخرة تنافي تربية الشخصية الحرة النامية المستقلة!

ونقول لهؤلاء خضلاً عما تقدم- إن تجريد التربية من عنصر الخوف تجريداً تاماً مطلقاً، إنما هو ادعاء مزعوم، وخيال موهوم، وإنكار لواقع الإنسان الذي خلقه الله يرجو ويخاف، ويأمل ويخشى، وإذا كان الخوف أمراً لا بد منه فليكن من مالك الملك وخالق الخلق وصاحب الأمر كله، ولتغلق منافذ الخوف جميعها بحد ذاك، فلا خوف من مخلوق صغر أو كبر، إلا ما اقتضته الجبلة. وذلك في الحق هو منبع الشجاعة، ومصدر القوة، وهو شأن المؤمنين (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) (الأحزاب: 39) (بجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) (المائدة: 54)

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (آل عمران: 175) (فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) (المائدة: 44).

وفي الآثار: "من خاف الله خوف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء".

على أن خوف المؤمن من ربه إنما هو خوف من قاض عادل أن ينزل به العقوبة على جرمه، لا خوف من ملك غشوم يأخذ البريء بذنب المسيء. إنه أشبه بخوف الابن من غضبة أبيه عليه إذا انحرف عن سواء الطريق، وهو مع هذا خوف مشوب بالرجاء في عفو الله، والأمل في سعة رحمته. على سنة أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) (الإسراء: 57) (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) (الزمر: 9).

والقرآن يرشد دائماً إلى الحد الوسط بين الخوف والرجاء، فلا ينبغي أن ينتهي الخوف إلى اليأس من روح الله، كما لا ينبغي أن يصل به الرجاء إلى الأمن من مكر الله (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (الأعراف: 99)، كما (لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف: 87).

وصفات الله تعالى في القرآن من شأنها أن تؤدي إلى هذا التوازن في نفس المؤمن (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) (غافر: 3). (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم) (المائدة: 98) (بنى عبادي أنني أنا الغفور الرحيم \* وأن عذابي هو العذاب الأليم) (الحجر: 49، 50).

فكيف يعد مثل هذا الخوف منافياً للتربية المثالية، ومعوفاً لنمو الشخصية؟

الدكتور (هنري لنك) يرد على خصوم التربية الدينية

إننا نكل تفصيل الرد على هؤلاء المشنعين على الدين وطريقته في التربية، إلى الدكتور «هنري لنك» الطبيب النفسي الأمريكي، صاحب كتاب «العودة إلى الإيمان». إنه يخطئ النظريات التي أشاعتها بعض المدارس النفسية الحديثة، فيقول:

"إن تربية الأطفال لمن أشق الواجبات وأخطرها وأدقها، ومشاكلها شديدة التعقيد والعصر، وهي بعد ذلك ذات أوجه متناقضة عند حلها يكون معها الآباء في ميسر الحاجة إلى أية معونة خارجية، مهما بلغت درجة تواضعها وبساطتها.

وقد كان طبيعياً: بعد أن استغنى الآباء المستنبرون عن المعتقدات الدينية، وضربوا بها عرض الحائط، أن يولوا وجوههم شطر مصدر جديد من مصادر المعونة. فلم يجدوا أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال، ولكن علم نفس الأطفال لم يكن بعد، على استعداد لتقديم المعونة لهم، لأن الثقة بهذا العلم لم تكن قد تعدت الثقة النظرية حتى ذلك الوقت. وكان البرهان العلمي حينذاك في مهده صغيراً برغم تعدد نظرياته. ومن هنا بدأ الآباء يعتقدون هذه النظريات التي كان أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية. وأنه من الأفضل إقناع الطفل بعمل شيء ما، لا إرغامه بالقوة والعنف عليه، وأنه لا يجوز كبت الطفل بل على العكس يجب منحه الفرصة كي يعبر عن ذاته ... وأنه يجب منح الأطفال علاوة منتظمة حتى يمكنهم إدراك قيمة المال، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مرهفة، وعليه فلا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا، ويعملوا ما يفعله ويعمله غيرهم.

وللأسف، لم يظهر أي برهان علمي أو نفسي يؤيد هذه النظريات، بل بالعكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة" («العودة إلى الإيمان» ص 113). وهو إذ يهدم هذه الأفكار التي راجت باسم العلم يوماً ما، يرى ضرورة العودة إلى الدين، وأتباع منهجه في تربية الأطفال وتهذيب سلوكهم، وتقويم أخلاقهم فليس أصلح للطفل من أن تقول له: هذا حسن، لأن الله أمر به، وأنه يحبه ويرضاه ويثيب عليه بالجنة، وبأن هذا قبيح، لأن الله نهى عنه وأنه يبغضه ويسخطه، ويعاقب عليه بالنار.

ولهذا ينكر على الآباء الذين يتخلون عن هذه الطريقة المقتعة المقبولة إلى طرائق لم تثبت صحتها ولا نفعها فيقول (المرجع نفسه، ص 110): "فقد سمعنا الكثيرين من الآباء يرددون: انهم لا يبعثون بأولادهم إلى الدروس الدينية أو إلى محلات العبادة، حتى يصلوا إلى السن التي يدركون عندها ما يجري. غير أن ما يضايقهم، ويقض مضجعهم هو هذا السؤال:

ترى هل يكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور القوي الذي يمكنهم به أن يميزوا بين الخطأ والصواب؟ هل يؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التي أمانا بها منذ طفولتنا؟

لقد قلنا فيما مضى أن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب، لأن الله سبحانه وتعالى قد بين ذلك، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر. وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً فقد عرفنا على الأقل الكثير عن طيب الأفعال وخبيثها. أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا إلا أن هذا التصرف خطأ، وأن ذاك صواب، لأننا نرى ذلك، أو لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. فهل لهذا الود من القوة والبيان ما لسابقه؟ وهل له مثل أثره وهل يكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغط العقائد الدينية، تلك القيم التي تنقلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهي؟" («العودة إلى الإيمان» ص 110).

ويعود إلى ذلك حين يتحدث عن مقدار ما يسديه الدين من عون للآباء في تربية أبنائهم وتهذيبهم، وتكوين شخصياتهم الفاضلة فيقول (المرجع نفسه، ص 119):

"ويدهي أن الأطفال يختلفون، سواء بطبيعتهم أم بحسب وراثتهم، ولكن مهما كانت هذه الطبيعة أو الوراثة طيبة جيدة، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بغير «النظام» ولما كان استياء الطفل من النظام واتجاهه عكسياً، كلما حاولت إنماء العادات الطيبة فيه، أمراً لا مفر منه، كان من الواجب استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات صفة إرغامية، تساعد على الإسراع في اكتساب هذه العادات. والواقع أن معظم الآباء يكونون في أشد الحاجة إلى الاستعانة بنصائح غيرهم، في أثناء عملية غرس العادات المرغوبة في أطفالهم.

وإذا بحثنا من الناحيتين: العقلية والنفسية، وجدنا أن أعظم مصادر هذا العون هو الدين .. فالإيمان بوجود الله ورسله وكتبه يهيئ للأبوين ملجأ أميناً موثقاً به يلجئون إليه، يضع بين أيديهم سلطة كبرى على أطفالهم كانوا يفتقرون إليها حتى لو لم يؤمنوا بها.

فإن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف ينمون عادات أولادهم الخلقية ويشكلونها، في حين تنقصهم هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التي كانت قد شكلت أخلاقهم من قبل، كانوا في الحقيقة يجابهون مشكلة لا حل لها، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذي يحل محل تلك القوة الهائلة التي يخلقها الإيمان بالخالق ويناموسه الخلفي الإلهي في قلوب الناس.

فتجد الآباء الذين تحرروا من الإيمان عن طريق ثقافتهم وأعمال فكرهم حيارى متسانلين على الدوام.

إن كيف يتسنى لأولئك الحيارى أن يكونوا أنفسهم ملجأً لأولادهم؟

ففي حالة عدم وجود مثل هذا الملجأ الديني الموثوق به، لا يسع كل أب إلا أن يفكر ويمعن في التفكير: ويبحث ويطلب البحث قبل أن يبين لطفه مدى الخطأ والصواب، والخير والشر، في كل حالة من الحالات العديدة التي تصادفه يومياً، وفي كل عادة من العادات المختلفة مما يود غرسها في طفله.

وكلما كبر الطفل ونما، وكلما أصبح واقعاً تحت تأثير سلطات المجتمع المتضاربة المقاصد، المختلفة الميول والاتجاهات كالمدسة والجيران وزملائه وبلدته. زاد الأمر صعوبة، وأصبح أشد تعقداً، فالتربية واجب شاق. كما أن هذا الارتباك الكائن في عقول معظم الآباء هذه الأيام خير شاهد على صدق هذه الحقيقة.

فالدين هو القوة الوحيدة التي يمكنها أن تعين الإنسان على حل تلك المشكلات الخلقية والعقلية التي لا مفر منها، والتي لا تفتأ تقض مضاجع الآباء والأبناء والمجتمع كله. ولن تجد في هذا العالم المضطرب، الذي لا تمضي فيه فترة حتى يؤثر الناس على السلطة القائمة محاولين تغييرها، غير الله وحده هو الحي الباقي الذي لا يتغير ولا يتبدل.

فذلك الطفل الذي اعتنق منذ طفولته المبكرة فكرة وجود الله بصفته المشرع الأعلى للخير والشر؛ يكون قد اكتسب الحافظ الجوهري الذي سيدفعه حينئذ نحو العادات الطيبة. فبدلاً من أن يقوم صرح أعماله على ما يحبه وما لا يحبه نراه يقوم على الصواب والخطأ. فهو قد يرى عدم إطاعة أمه يوماً ما، ولكنه يدرك جيداً أنه قد أخطأ، وهو قد لا يحب أن يعيد لأمه ما تبقى معه من نقود بعد أن اشترى لها مطالبها، ولكنه يعلم تماماً أن ذلك ليس بصواب، وهو قد لا يحب أيضاً أن يتنازل عن ألتانيته مع زملائه في اللعب، لكنه يرغب نفسه على أن يفعل ذلك.

وطبيعي أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة أو البساطة بمكان، ولكنها سرعان ما تنمي فيهم عادة التمييز بين الدوافع الآتية والشخصية، وبين العادات الطيبة، أو الاختصار بين اللذة وبين الشعور بالواجب.

فمما لا شك فيه أن تغلب المرء على كسله وبلادته، وقهره لدوافعه الطبيعية الكامنة فيه، هو الطريقة الصحيحة لاكتسابه العادات اللازمة للشخصية الناجحة فيقرر ما يفرضه الدين على الطفل من هذه الصفات الطيبة التي ينبغي له تعلمها يمضي الطفل حينئذ إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة" (المرجع السابق ص 119 وما بعدها).

ويؤكد الدكتور «لنك» أن الدروس الدينية، والتردد على بيوت العبادة لها في نفس الصبي أعظم الأثر، وأطيب الثمرات، كما أثبتت ذلك التجارب والمقارنة بين الأطفال بعضهم وبعض. وفي ذلك يقول («العودة إلى الإيمان» ص 122):

"ومهما بلغت المساوي، التي نلمسها في أماكن العبادة، والاستماع إلى العظات الدينية، فإن هذه البيوت تساعدنا على غرس الأسس السليمة للخطأ والصواب، والأعمال الآتية وغير الآتية في نفوس الأطفال. كما أنها تساعد على غرس الإيمان بالله والاعتقاد في ناموسه الخلقى الإلهي كمصدر لتلك الأسس. ولذا فهي ذات فائدة عظيمة للآباء والمجتمع، كي يبثوا الأسس الضرورية لتكوين الخلق القويم والشخصية الناجحة. وبناءً على ذلك، ليس من المستغرب أن يدلنا الاختبار السابق الذكر على أن الطفل الذي يستمع إلى الدروس الدينية يتمتع بصفات شخصية أفضل ممن لا يحضرها، وأن الطفل الذي يذهب والداه إلى المعبد ذو شخصية أحسن من الطفل الذي لا يذهب والداه إليه.



وقد اتضح لي بعد دراسة كاملة لعشرة آلاف شخص، أن أولئك الذين يواظبون على الذهاب إلى دور العبادة، كانوا ذوي صفات شخصية أفضل ممن لا يذهبون".

ولا يقتصر على ذلك، بل يلج على التذكير بإعطاء هذه الدروس للأطفال وأعوادهم غضة، ولو لم يفهموا كل ما يقال لهم، ويرى من الخطأ والخطر تأخير هذه الدروس الدينية إلى السن التي يفهمون فيها.

يقول: "إن الوقت الأمثل لتعليم الطفل كيف يخضع دوافعه لقيم عليا، هو السن التي يستطيع فيها أن يتقبل ما يقال له دون أن يفهمه. فإذا استقر رأي الآباء على عدم إرسال أولادهم إلى الدروس الدينية، حتى يبلغوا السن التي يفهمون عندها ما يستمعون إليه، فهم في الحقيقة يتبعون مبدأ هاماً، لأن الوقت يكون قد فات لإصلاح ما فسد إذا بلغ الطفل السن التي يفهم بها كل ما حوله، فانه حينئذ يكون قد أضاع من عمره سنين ثمينة" (المرجع نفسه ص 130).

ويختتم حديثه عن التربية والتعليم بهذه الأسطر الناصعة:

"إن ميدان التعليم لفي مسيس الحاجة إلى جمع القيم والحقائق الأساسية التي تبحث في الطبيعة البشرية وتصنيفها، حتى يمكن المحافظة على تلك التقاليد النبيلة التي اكتسبها الجنس البشري، ووضعها في المكان اللائق بها، وحتى يمكن إخضاع الغطرسة الفكرية لنظام الحياة غير الانانية. ولن تجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثل الحاضرة الحديثة غير الدين" (المرجع السابق، ص 181).

### خرافة "الضمير بلا إيمان"

ويزعم بعض الناس أنه يمكن الاستغناء عن الدين والإيمان بـ "الضمير" واتخاذها أساساً ومقياساً للأخلاق بدل الدين.

وهذا ما حاوله الغربيون حينما أرادوا أن يتحرروا من سلطان الكنيسة ورجال كهنوتها وتدخلهم فيما ليس من شأنهم من أمور العلم المتغير والحياة المتجددة، ووقفهم مع الأباطرة والأمراء الظلمة الجائرين. لقد ثاروا على كل ما يتصل بالكنيسة، حتى عقائدها وأخلاقها.

ورأى القائلون على الثورة العلمانية الجديدة أن يستعوضوا عن الدين بوحى "الضمير" وأن يتخذوا وحي الضمير الأساس الذي لا يخطئ، والمقياس الذي لا ريب فيه، بالنسبة للأخلاق.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد بدأ القوم يتراجعون عن تطرفهم شيئا فشيئاً.

يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه «الإسلام والعقل»:

"وحينما هدأت الأمور في الغرب، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، بعد الصراع العنيف، بين الكنيسة والثوار، الذي دام فترة طويلة من الزمن أخذ العلماء يرجعون أنفسهم. ويدرسون في هدوء ودعة المبادئ، التي قامت عليها الثورة المنتصرة، والأهداف التي حددت، والغايات التي رسمت، والقواعد التي خططت. ثم هذبوا في كل ذلك وغيروا وبدلوا. وكان مما راجعوا أنفسهم فيه: مسألة "الضمير". ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والملاحظات، يستيرون بها في أمر الضمير، رأوا كما قال الأستاذ أندريه كريسون: "أن الناس في كل العصور،

وفي جميع الأقطار، يستشيرون ضمائرهم، ولكنها لا تسمعهم جميعاً لحناً واحداً إذ أن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس المخلصة في عصر خاص، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى، هي أيضاً مخلصة، ولكنها عاشت في عصر آخر أو مكان آخر" (**«المشكلة الأخلاقية والفلاسفة» للكتاب الفرنسي أندريه كريسون، ص 22 - 25، ط ثانية**) أما إذا أردنا، أمثلة على ذلك، فإننا سنجدنا كثيرة، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور.

ويضرب لنا الأستاذ -أندريه كريسون- الأمثلة الكثيرة:

"ففي العصور القديمة اليونانية، اللاتينية كان نظام الرق مشروعاً: إن أشرف القلوب، إذ ذاك كانت تجد من الطبيعي أن يباع الرجال والنساء والأطفال، وأن يعاملوا معاملة السوانم.

وكانت القوانين الرومانية القديمة، تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً: لهذا كان للأب، من بين الحقوق الأخرى، الحق في أن يعرض ابنته المولودة حديثاً، في السوق العام، إذا كانت له بنت أخرى. ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً، فهاهم أولاء أسلافنا. كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن الجريمة، وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل اختلاس تافه". ولكننا عندما نوازن بين أحوال الضمير في العصر الواحد في أقطار مختلفة، فإننا نجد أيضاً فروقاً لا تكاد تحصى ولا تعد.

على أن الدلالة العميقة، إنما هي مظاهر اختلاف الضمير في البيئة الواحدة وفي الجماعة الواحدة، المتحضرة المتمدنة.

وبعد أن أورد الدكتور أمثلة شتى مما سافه العالم الفرنسي الكبير «أندريه كريسون» قال:

هذه الأمثلة، إنما هي قطرة من بحر، مما يمكن أن يبرهن به على اختلاف الضمير، بحسب اختلاف الزمن أو اختلاف الثقافات في البيئة الواحدة. وهناك أمثلة لا تحصى إذا قرأنا ضمائر العرب في العصر الجاهلي بضمائرهم في العصر الإسلامي، أو ضمائر الوثنيين في مكة بضمائر المسلمين فيها عند نشأة الإسلام ... الخ. والنتيجة لكل هذه المقارنات هي: أن اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق أو كمقياس لها، إنما هو مجرد حماقة وعبث.

ومن الشبه التي جعلت الناس يؤمنون، بمنزلة كبرى للضمير، ويرفعونه! أنه قد شاع بين بعض الطوائف، أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدي بنا لا محالة إلى أن الضمير قوة فطرية حقاً، ولكنها قوة غير معصومة، لأنها تربي وتكتسب فيما يتعلق باللون الذي تتخذ.

وهي وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة ومن وراثه، وهي تختلف في الفرد الواحد بحسب اختلاف سنه، وبحسب تنقله من بيئة إلى بيئة، وبحسب الكتب التي تمدد بالثقافة العقلية، أو التهذيب الروحي، وبحسب اختلاف الأصدقاء، الذين يلازمهم الإنسان في حياته الواحد تلو الآخر.

والضمير إذن متأرجح متقلب، لا يستقر له قرار، لأنه حتى لو مكث على حالة واحدة تجاه مسألة معينة فإنه في هذه الحالة النادرة يتأرجح أيضاً قوة وضعفاً، واتزاناً وإسرافاً.

والوضع الصحيح إذن -بالنسبة لأساس الأخلاق-: أن نلجأ إلى الدين، نستمد منه الهداية والإرشاد، فإنه وحده المعصوم. والدين الإسلامي أتى في الجانب الأخلاقي بكل ما تتطلبه النفوس المرفهة، والأفئدة المتعطشة للاستقامة. لقد أقر بذلك كبار الفلاسفة الإسلاميين "كأبن سينا" وغيره.

لقد رأى ابن سينا، أن الدين الإسلامي، أتى بأكمل نظام أخلاقي تشريعي بالنسبة للمجتمع، وبالنسبة للأسرة، وبالنسبة للفرد، وتحدث ابن سينا عن ذلك غير مرة في مختلف كتبه.

أما صلة الدين بالضمير، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة. إنها صلة هيمنة. تستمر مدى الحياة وإذا ما زالت هذه الهيمنة في أي فترة من فترات الحياة، فإن الضمير يخلل اتزانه وتوازنه، ويتلرجج ويتذبذب، لأنه يحتاج باستمرار إلى القائد المربي، وليس القائد المربي إلا الدين. " أ هـ

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### الفصل الثاني - البذل والتضحية

- الأنانية جزء من الكيان الفطري الإنساني
- نماذج مؤمنة للبذل والتضحية
- الإيمان يهون على الإنسان كل صعب في سبيل الحق

#### الأنانية جزء من الكيان الفطري الإنساني

مهما يكن الخلاف بين المثاليين والواقعيين من فلاسفة الأخلاق فإن «الفردية»، وبعبارة أوضح «الأنانية» جزء من الكيان الفطري للإنسان، فهو - بما ركب فيه من دوافع نفسية- «أناني» يحب الخير لنفسه، والمنفعة لذاته، قبل كل شيء، وهذا أمر اقتضته الحكمة الإلهية لعمارة الأرض واستمرار الحياة وازدهارها، ثم هو من مقتضيات الابتلاء الذي بني عليه تكليف الإنسان واستخلافه في هذه الأرض. وفي الإنسان بلا شك نزعة اجتماعية غيرية، فطرية كذلك، ولكنها، لا تقاوم نزعة الذاتية لو خليت وشأنها. ومن هنا ترى الإنسان كل إنسان- حريصاً على أن يجمع لنفسه من أسباب النعمة ما استطاع، حريصاً على الاستئثار به دون غيره، حتى أنه ليصيب ويهرم، ويشب معه الحرص والشح، ولذا وصفه خالقه بقوله (وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (الإسراء: 100) (وأحضرت الأنفس الشح) (النساء: 128) وصور رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ حرص الإنسان على الدنيا وطعمه في متاعها فقال: "لو كان لآدم واديان من ذهب لابتغى ثالثاً".

وإذا ترك الإنسان لهذه الأنانية تسيطر على نفسه، وتحكم سلوكه وتوجه علاقاته بالناس، فلن نجد فيه إلا إنساناً جشعاً شحيحاً، كل همه أن ينتفع ولا ينفع، وأن يأخذ ولا يعطي، يريد أن يربح، ولا يريد أن يعمل، يقول دائماً: لي .. ولا يقول يوماً: علي، ضنين بكل ما عنده، شره إلى ما عند غيره. والبلية كل البلية أن تشيع هذه الروح الخبيثة في مجتمع، فيقول كل امرئ فيه: نفسي .. نفسي، ولا يقول: أمتي .. أمتي.

والإنسان إذا ترك ونزعت الفردية، فإنه يؤثر -غالباً- السلامة، ولا يرضى بتعريض نفسه لخطر أو أذى، من أجل فكرة أو رسالة أو مصلحة كبرى، ولو سرت هذه الروح، روح طلب السلامة، لوقفة عجلة الرقي، وأفلتت شمس الحضارة، وانطمست معالم الحق، وغاضت ينابيع الخير فإن رسائل التبيين، وأفكار المصلحين، لم تمل كلماتها إلا ببذل النفس والمال، والتضحية بكل غال وعزيز، من وطن وأهل وعشيرة. ليس هذا في عالم المعاني والأفكار فحسب، بل نجد الأعمال العظيمة، والمشروعات الضخمة، والانقلابات الكبيرة في عالم الإنتاج والعمران والاقتصاد والصناعة والتجارة إنما جاءت نتيجة مخاطر ومغامرات وتضحيات في مبدأ الأمر. إن الذي يجعل كل همه في طلب السلامة لا يصنع شيئاً ذا بال، ومن قبل قال الطغراني في لاميته:

حب السلامة يثني هم صاحبه  
عن المعالي ويفري المرء بالكسل  
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً  
في الأرض أو سلماً في الجو فاعتزل

وكان أبو الطيب:

ذريتي أتل ما لا ينال من العلى  
فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل  
تريدان إدراك المعالي رخيصة  
ولا بد دون الشهد من ابر النحل

والمجتمع الذي يريد أن يبني مجداً، ويشيد حضارة، وينهض برسالة، في حاجة إلى جهود مضاعفة للبناء والرقي والتهوض، في حاجة إلى عقول لا تسأم التفكير، وإلى سواعد لا تشكو التعب، وإلى عزائم لا تشكو الملل والفنور، في حاجة إلى الإنسان الذي يعطي قبل أن يأخذ، ويؤدي الواجب قبل أن يطلب الحق، والإنسان الذي تفر عنه بفراق الأهل من أجل الأمة، بالغربة عن البيت من أجل الوطن، ويطلب نفساً ببذل المال عند الحاجة، وبذل الروح عند الضرورة، ويضحى بمصلحته الخاصة في سبيل المصلحة العامة، ويرضى بالتقشف والشظف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت الزوام في سبيل ما يؤمن به من الهدى والحق. فليت شعري أين يوجد هذا الإنسان؟ ومن أي مدرسة يتخرج؟

لعمري إن المدرسة الفذة التي تخرج هذا الصنف من الناس هي مدرسة الإيمان.

#### الإيمان يهون على الإنسان كل صعب في سبيل الحق

الإيمان هو الذي يهون على الإنسان شهواته ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفي بما يسد الجوعة من الطعام، وما يستر العورة من اللباس. وإذا هو يرضى بالقليل من المال، والمتواضع من المسكن، بل يهون على الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهون عليه حياته نفسها، فإذا هو يضع رأسه على كفه، يخوض المعامع، رابط الجأش راضي النفس، مطمئن الضمير. فإذا أدركه الموت في ميدان الجهاد، استقبله بارتياح وسرور، لأنه يوقن أن وراءه الجنة: (ورضوان من الله أكبر) (التوبة: 72).

ذلك أن الإنسان يكاد لا يعطي شيئاً إلا ليأخذ في مقابلة شيئاً، نقداً أو نسيئة، نفسه تنطع دائماً إلى الجزاء العادل على ما قدم، وقد حاول الفلاسفة الماديون أن يشبهوا هذا الجانب بالأجزية الأخلاقية المجردة عن الدين، وعن طريق ما أسموه «الضمير» الذي يجزي فاعل الخير، ومؤدي الواجب، بالسرور والرضا والارتياح الذي يحسه الإنسان بين جنبيه.

ولكنهم حاروا كيف يجرى من بضحي بنفسه ويبدل روحه ويموت شهيداً في سبيل الحق؟ إنه لا مجال لرضا النفس وراحتها بعد الموت عند هؤلاء الماديين، والموت عندهم قضاء محض. إن الإيمان بالله وجزاء الآخرة هو الذي يحل هذه العقدة. وفي البذل والتضحية باسم الدين إرضاء لهذا الجانب في نفس الإنسان، فإن ما أعطاه المؤمن يعود عليه أضعافاً مضاعفة، وما أنفقه من مال فإله يخلفه، وما أصابه من أذى في نفسه أو بدنه فإله معوضه عنه، وإذا قدم روحه في سبيل الله فمات أو قتل فلم يمت في الحقيقة، وإنما هو حي عند ربه يبرق ... وفي هذا كله يقول القرآن: (وما تتفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (البقرة: 272) و (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين) (سبا: 39)، (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) (آل عمران: 157)، (والذين قتلوا في سبيل الله قلن يضل أعمالهم \* سيهديهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم الجنة عرفها لهم) (محمد: 4 - 6).

إن كل جهد حمادي أو أدبي، نفسي أو بدني- يبذله المؤمن في سبيل الله مهما يبلغ من ضالة حجه- فهو محسوب له في «رصيد» حسناته عند الله، لا يضع منه مثقال ذرة، حتى الخطوة التي تمشيها قدمه، وحتى القلس ينقعه، وحتى الإحساس بالجوع أو العطش أو التعب: (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطنون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً، إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين \* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) (التوبة: 120، 121).

فلا عجب أن نرى ديناً كالإسلام يقدم لنا في مرحلة قوته وازدهاره- نماذج رائعة للتضحية والبذل والكفاح والجهد، وبأعداد هائلة، تقدم ما تملك من نفس ومال في سبيل الله وهي قريرة العين.

#### نماذج مؤمنة للبذل والتضحية

وحسب المرء منهم أن يسمع أو يقرأ آية من كتاب الله تدعوه إلى الانفاق والجهد، فإذا هو يسارع إلى تنفيذها ولا يحجم ولا يتردد مقدماً النفس والنفس ابتغاء رضوان الله.

قرأ أبو طلحة الأنصاري سورة «براءة» حتى بلغ هذه الآية: (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) (التوبة: 41) فقال: خفافاً وثقالاً: شباناً وكهولاً، ما سمع الله عذر أحد، وقال لبنية: أي بني جهزوني .. جهزوني .. جهزوني (يعني للجهاد) فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات. فنحن نغزو عنك! قال: لا .. جهزوني .. فجهزوه بجهاز الحرب، فغزا في البحر، فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها رضي الله عنه.

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: انك عليل! فقال: استنفر الله الخفيف والثقل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.

ورأى بعضهم في غزوات الشام رجلاً قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له: يا عم! إن الله قد عذرك، فقال: يا ابن أخي قد أمرنا بالتغير خفافاً وثقالاً (ذكر هذه الوقائع الإمام القرطبي في تفسير: "خفافاً وثقالاً").

ولقد روي في بعض الغزوات أن الابن وأباه كانا يتسابقان إلى الجهاد، فيقرعان بينهما فتخرج القرعة للابن، فيقول الأب: آثرني يا بني، أنا أبوك! فيقول الابن: إنها الجنة يا أبت! ولو كان شيء غيرها لأتريث والله.

وعمر بن الجوحم الأنصاري أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب، يغزون مع الرسول صلى الله عليه وسلم. فلما كان يوم أحد، طلب إلى بنيه أن يدعوا له عدة الجهاد، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن تكفيك! وقد وضع الله عنك الجهاد؟ فأتى عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، والله إنني لأرجو أن أسشهد فاطماً بعرجتي هذه في الجنة!! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعل الله عز وجل يريزه الشهادة. فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقتل يوم أحد شهيداً - وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار: إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجوحم!

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية: نموذج التضحية بالراحة والثروة، والاستمتاع بالحياة الرضية الناعمة، وارتضاء الحرمان والمشقة والبلاء والأذى في سبيل الله.

فتى كمصعب بن عمير، نشأ في الحلية، وربى في الرفاهية والنعمة، بين أبوين يحباها أشد الحب، ويحنوان عليه أعظم الحنو، يغذوانه بأطيب الطعام، ويسوانه بأحسن اللباس، وينشران عليه أجنحة العطف والإيثار والرعاية والتكليل، فتى منعم مدلل كهذا، ما الذي يجعله يدع هذه الحياة اللذيذة الهادئة الهانئة، إلى حياة خشونة وبأساء، وزلزلة وجهاد، وغربة وهجرة؟ ما الذي جعله يرضى بمفارقة الأهل والوطن، ويرغب عن الثروة والجاه ويفر يدينه مهاجراً إلى الحبشة ثم إلى المدينة، حتى يموت في دار الهجرة شهيداً في غزوة أحد، فلا يجد المسلمون له ثوباً يكفي لغطاء جسده، كل الذي وجده ثوب قصير، إذا غطى به رأسه بانت رجلاه، وإذا غطيت به رجلاه، بانت رأسه؟ لا شيء إلا الإيمان.

يروي «ابن سعد» عن محمد بن شرحبيل العبدري، أحد أقرباء مصعب هذه الكلمات في وصفه. يقول: كان مصعب بن عمير فتى مكة شاباً وجمالاً وسببياً، وكان أبواه يحباها، وكانت أمه مليئة كثيرة المال، تكسوه احسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة يلبس الحضرمي من النعال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم فدخل عليه فأسلم وصديق به وخرج ففكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوباً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغير الحال قد خرج -يعني غلظ-

ويقول خباب بن الارت:

هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - نبتغي وجه الله فوجب أمرنا على الله، فمنا من مضى، ولم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفيه يكفن فيه إلا نمرة، قال: فتنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوها على رجليه من الآخر. ولقد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم - على هذا الفتى، وهو مقتول مسجى في بردة، فقال والدموع تزدحم في عينيه: لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة، ولا أحسن لمة منك، ثم أنت شعث الرأس في بردة.

وعن عبيد بن عمير أن النبي صلى الله عليه وسلم - وقف على مصعب وهو منجفف على وجهه، فقرأ هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فممنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) (الأحزاب: 23).

وهذا نموذج آخر من نماذج التضحية: هي التضحية بالمال، يروي لنا زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: لما نزل (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) (البقرة: 245، الحديد: 11) قال أبو الدحاح: فذاك أبي وأمي يا رسول الله! وإن الله يستقرضنا وهو غني عن القرض؟ قال "نعم يريد أن يدخلكم الجنة به" قال: فإني قد أقرضت ربي قرضاً يضمن لي به ولصبيتي الدحاحة معي الجنة؟ قال "نعم" قال: ناولني يدك، فتناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده. فقال: إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضاً لله تعالى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعل إحداهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعالك" قال: فأشهدك يا رسول الله أنني قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمانة نخلة. قال: "إن يجزيك الله به الجنة" فانطلق أبو الدحاح حتى جاء أم الدحاح وهي مع صبياتها في الحديقة تدور تحت النخل فأتشأ يقول:

هذاك ربي سبل الرشاد	إلى سبيل الخير والسداد
بيني من الحائط بالوداد	فقد مضى قرضاً إلى التناد
أقرضته الله على اعتمادي	بالطوع لا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد	فارتحلي بالنفس والأولاد
والبر لا شك فخير زاد	قدمه المرء إلى المعاد

فقلت أم الدحاح: ربح ببيعك! بارك الله لك فيما اشتريت! وأجابته أم الدحاح وأنشأت تقول:

بشرك الله بخير وفرح	مثلك أدى ما لديه ونصح
قد متع الله عيالي ومنح	بالعجوة السوداء والزهر البليح
والعبد يسعى وله ما قد كدح	طول الليالي وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحاح على صبياتها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "كم من عنق رداح ودار فياح لأبي الدحاح". أي في الجنة.

إن تاريخ الإسلام وتاريخ الأنبياء وأتباعهم في كل عصر. حافل بالصور الحية، والنماذج الرائعة للبذل والتضحية في سبيل الحق، وهي صور ونماذج لم يصنعها غير الإيمان، ولن يصنع أمثالها -إذا أردنا لها أمثالا- إلا الإيمان!

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### الفصل الثالث - القوة

- حاجة الفرد والمجتمع إلى القوة النفسية
- مصادر القوة عند المؤمن
- (أ) التزام الحق مع القريب والبعيد
- (ب) الاستهانة بالقوى المادية
- من ثمار هذه القوة في نفس المؤمن وأخلاقه

- الإيمان بالحق
- الإيمان بالخلق
- الإيمان بالقدر
- الإيمان بالأخوة
- على قدر الإيمان تكون القوة
- (ج) الإخلاص في القول والعمل
- (د) التحرر من الخوف والحرص
- (هـ) الاستخفاف بالجبايرة والطغاة
- شهادة التاريخ
- سر الوهن
- التماوت والضعف ينافي الإيمان

### حاجة الفرد والمجتمع إلى القوة النفسية

للإنسان في الحياة آمال عريضة، وأهداف قريبة وبعيدة، ولكن الطريق إليها شائك وطويل، والعقبات متنوعة، والمعوقات كثيرة، بعضها من الطبيعة وسنن الله فيها، وبعضها من البشر أنفسهم، فلا غرو أن يظل الإنسان في جهاد دائب، وعمل متواصل، ليتغلب على الآلام والمعوقات ويحقق الأهداف والآمال.

وما أشد حاجة الإنسان إلى قوة تسند ظهره، وتشد أزره، وتأخذ بيده، وتخلل له العقبات، وتقهر أمامه الصعاب، وتثير له الطريق.. وليست هذه القوة المنشودة إلا في ظلال العقيدة، ورحاب الإيمان بالله.

الإيمان بالله هو الذي يمننا بروح القوة، وقوة الروح، فالؤمن لا يرجو إلا فضل الله، ولا يخشى إلا عذاب الله، ولا يبالي بشيء في جنب الله. إنه قوي وإن لم يكن في يديه سلاح، غني وإن لم تمج خزائنه بالفضة والذهب، عزيز وإن لم يكن وراءه عشيرة وأتباع، راسخ وإن اضطربت سفينة الحياة، وأحاط بها الموج من كل مكان.

فهو بإيمانه أقوى من البحر والموج والرياح، وفي الحديث "لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم بدعائكم الجبال".

وهذه القوة في الفرد مصدر لقوة المجتمع كله، وما أسعد المجتمع بالأقوياء الراسخين من أبنائه، وما أشقاه بالضغفاء المهاليل، الذين لا ينصرون صديقا، ولا يخيفون عدوا، ولا تقوم بهم نهضة، أو ترتفع بهم راية.

### مصادر القوة عند المؤمن

#### الإيمان بالله

المؤمن قوي، لأنه يستمد قوته من الله العلي الكبير، الذي يؤمن به، ويتوكل عليه، ويعتقد أنه معه حيث كان، وأنه ناصر المؤمنين، وخائل المبطلين، (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (الأنفال: 49) عزيز لا يذل من توكل عليه، حكيم لا يضيع من اعتصم بحكمته وتدبيره. (إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (آل عمران: 160). والتوكل على الله -هو من ثمار الإيمان- ليس استسلام متبطل، أو استرخاء كسول. إنه معنى حافز، وشحنة نفسية، تغمر المؤمن بقوة المقاومة،



وتملؤه بروح التحدي والإصرار، وتشحذ فيه العزم الصارم، والإرادة الشماء، والقرآن يقص علينا كثيراً آثار هذا التوكل في أنفس رسل الله، إزاء أعداء الله.

فهذا نبي الله هود في صراعه مع قومه «عاد» يجد من هذا التوكل حصناً حصيناً يلجأ إليه (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين \* إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون \* من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون \* إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم) (هود: 53 - 56).

وهذا شعيب وقومه يسامون ويهددون (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا، قال أو لو كنا كارهين \* قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً، على الله توكلنا) (الأعراف: 88، 89).

وهذا موسى بعد أن تميز بقومه عن معسكر الفراعنة يقول لهم: (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين \* فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين \* ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) (يونس: 84 - 86).

وها هم الرسل جميعاً يعصمون بالتوكل على الله أمام عناد أقوامهم وإيذائهم (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) (إبراهيم: 12)

#### الإيمان بالحق

يستمد المؤمن قوته من الحق الذي يعتقه، فهو لا يعمل لشهوة عارضة، ولا لنزوة طارئة ولا لمنفعة شخصية، ولا لعصبية جاهلية، ولا للبغي على أحد من البشر، ولكنه يعمل للحق الذي قامت عليه السموات والأرض، والحق أحق أن ينتصر، والباطل أولى أن يندثر (بل نقدف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (الأنبياء: 18) (وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً) (الإسراء: 81).

دخل ربي بن عامر - مبعوث سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية - على رستم قائد جيوش الفرس، وحوله الاتباع والجنود، والفضة والذهب. فلم يبال بشيء منها، ودخل عليهم بفرسه القصيرة، وترسه الغليظة، وثيابه الخشن، فقال له رستم: من أنت ... وما أنت؟ فقال له: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. المؤمن بيايمانه بالله وبالحق على أرض صلبة غير خائز ولا مضطرب، لأنه يعصم بالعروة الوثقى ويلوي إلى ركن شديد: (فمن يكفر بالطاغوت، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) (البقرة: 256).

فليس هو مخلوقاً ضائعاً، ولا كما مهملاً، إنه خليفة الله في الأرض، إن تظاهر عليه أهل الباطل، فإن الله هو مولاة وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير. فكيف يضعف المؤمن أمام البشر ومن ورأه الملائكة؟ بل كيف ينحني للخلق ومعه الخلق؟ (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل \* فاتقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) (آل عمران: 173، 174).

هذا الإيمان هو الذي جعل بضعة شبان كاهل الكهف، يواجهون بعقيدتهم ملكاً جباراً، وقوماً شديدي التعصب، غلاظ القلوب، مع قلة العدد، وانعدام الحول والطول المادي (نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى \* وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً، لقد قلنا إن شططاً \* هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلها، لولا يأتون عليهم بسلطان بين، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) (الكهف: 13 - 15).

#### الإيمان بالخلود

ويستمد المؤمن قوته من الخلود الذي يوقن به، فحياته ليست هذه الأيام المحدودة في الأماكن المحدودة، إنها حياة الأبد، وإنما ينتقل من دار إلى دار.

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الثاني إلى المنزل الباقي

هذا عمير بن الحمام الأنصاري في غزوة بدر يسمع النبي يقول لأصحابه "والذي نفسي بيده ما من رجل يقاتلهم اليوم -المشركين- فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة" فيقول عمير: بخ بك كلمة تعجب- فيقول: مم تبخ بك يا ابن الحمام؟ فيقول: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أتقدم فأقاتل هؤلاء فأتقتل؟ فيقول الرسول: بلى، وكان في يد عمير تمرات يأكل منها فقال: أأعيش حتى أكل هذه التمرات؟ إنها حياة طويلة! وألقى التمرات من يده وأقبل يقاتل ويقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد  
والصبر في الله على الجهاد  
إلا التقى وعمل المعاد  
وكل زاد عرضة للنفاق  
غير التقى والصبر والرشاد

وهذا أنس بن النضر يقاتل قتال الأبطال في أحد، ويلقاها سعد بن معاذ فيقول له: يا سعد، الجنة ورب النضر: أجد ريحها من وراء أحد!!

#### الإيمان بالقدر

ويستمد المؤمن قوته من القدر الذي يؤمن به، فهو يعلم أن ما أصابه من مصيبة فيبائن الله، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، (قُلْ لَنْ يَصِيْبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا، وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّل المؤمنون) (التوبة: 51).

المؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم، وأجله محدود، لا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما قسم الله له من رزق، ولا أن ينتقص ما كتب الله له من أجل، وهذه العقيدة تعطيه ثقة لا حدود لها، وقوة لا تقهرها قوة بشر. وقد كان الرجل يذهب إلى الميدان مجاهداً في سبيل الله فيعترض سبيله المثبطون، ويخوفونه من ترك أولاده. فيقول: علينا أن نطيعه تعالى كما أمرنا، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا.

وكان المعوقون والمخلولون يذهبون إلى المرأة فيثيرون مخاوفها على رزقها ورزق عيالها إذا ذهب زوجها إلى الجهاد، فتجيبهم في ثقة واطمئنان: زوجي عرفته أكلاً ولم أعرفه رزاقاً، فإن ذهب الأكل فقد بقي الرزاق!!

وكان علي بن أبي طالب يخوض المعامع وهو يقول:

أي يومي من الموت أفر؟  
يوم لا يقدر أو يوم قدر؟  
ومن المقدور لا ينجي الحذر  
يوم لا يقدر لا أحذر

قال السيد جمال الدين الأفغاني: "الاعتقاد بالقضاء والقدر -إذا تجرد عن شناعة الجبر- يتبعه صفة الجراءة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة يبعث على افتتاح المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود، وتتشق منها مراير النمرور، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات، واحتمال المكاره، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلل الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلي عن نضرة الحياة .. كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود: والرزق مكفول، والأشياء بيد الله، يصرفها كيف يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون في أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويسلطون عليها، فأدهشوا العقول، وحيروا الألباب بما دوخوا الأمم، وقهروا الدول، وامتدت سلطنتهم من جبال بيرينية -الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا- إلى جدار الصين، مع قلة عدتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة. أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلاداً ودكوا أطواداً، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسط، وطبقة أخرى من النفع، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم، وأقاموا بدلها جبالاً وتلالاً من رؤوس النابذيين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريضة، وما كان قاندهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر.

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بساط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم" (العروة الوثقى - نشر دار العرب للنبتاني ص 53).

#### الإيمان بالأخوة

ويستمد المؤمن قوته من إخوانه المؤمنين، فهو يشعر بأنهم له وهو لهم. يعينونه إذا شهد، ويحفظونه إذا غاب، ويواسونه عند الشدة، ويؤنسونه عند الوحشة، ويأخذون بيده إذا عثر، ويسندونه إذا خارت قواه، فهو حين يعمل يحس بمشاركتهم، وحين يجاهد يضرب بقوتهم، إذا حارب جيشاً من ألف مؤمن شعر كل فرد منهم أنه يقاتل بقوة ألف لا بشخصه وحده، وشعر أن هؤلاء الألف يعيشون في نفسه كما يعيش هو في أنفسهم. حباً لهم، وحرصاً عليهم، وضماً بهم، فإذا ضربت الألف في الألف كان المجموع المعنوي ألف ألف رجل في الحقيقة وإن كانوا ألفاً واحدة في لغة الإحصاء والتعداد (وقد شبه النبي قوة المؤمن بإخوانه المؤمنين باللبنة في البناء المتين، فقال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" اللبنة وحدها ضعيفة مقدور عليها، ولكنها داخل البنيان أصبحت مرتبطة به ارتباطاً لا ينفصل، أصبحت جزءاً من (الكل) الكبير، لا يسهل كسرها، أو زحزحتها عن موضعها فإن قوتها هي قوة البنيان كله الذي يشدها إليه).

حدثوا أن جيشاً من المسلمين كان بينه وبين عدوه نهر فأمرهم القائد أن يخوضوه، ولبوا الأمر، وخاضوا النهر، والعدو يشهدهم من بعيد دهشاً مرتاعاً .. وفي وسط النهر شهدهم العدو يغوصون في جوف الماء مرة واحدة كأنما غرقوا، ثم ظهروا فجأة .. فسأل العدو ما شأنهم؟ فعرفوا أن رجلاً منهم سقط من قعبه -إناءه- فصاح: قعبي .. قعبي .. فغاصوا جميعاً يبحثون عن قعب أخيه .. فقتل الأعداء في ذهول: إذا كانوا يصنعون مثل هذا في قعب سقط من أحدهم. فماذا يصنعون إذا قتلنا بعضاً منهم؟؟ وقت ذلك في عضدهم، وكانت العاقبة التسليم للمؤمنين.

#### على قدر الإيمان تكون القوة

إن إيمان المسلم بالله الذي لا يغلب، وبالحق الذي لا يخذل، وبالخلود الذي لا ينقطع، وبالقدر الذي لا يتحول، وبالأخوة الصادقة التي لا تهن - مصادر فياضة بالقوة المعنوية التي لا يقاس إليها قوة المادة أو السلاح.

وعلى قدر نصيب المرء من الإيمان يكون نصيبه من تلك القوة، نرى ذلك بارزاً في أرجح المؤمنين ميزاناً بعد رسول الله، فقد تمثلت قوته في مواقف جعلت عمر الجبار الشديد يقول: "والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح ...".

موقفه يوم توفي الرسول فذهل المسلمون، وأخرجتهم الفجعة عن وعيهم، حتى روي أن عمر قال: من قال أن محمداً مات ضربت عنقه بسيفي هذا! هنالك وقف أبو بكر يؤذن في الناس بصوت جهير: "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ..."، (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً) (آل عمران: 144) وموقفه بعد ذلك يوم تردد المسلمون في إنفاذ جيش أسامة الذي جهزه النبي إلى الشام قبل مرض موته، فقد طلبوا من أبي بكر أن يوقف مسير هذا الجيش، فإن الغد مليء بالطوارئ والاحتمالات، ولا يدري أحد ماذا يفعل العرب في القبال والقرى إذا علموا أن النبي قد مات .. ولكن أبا بكر أجابهم في حزم عزم وقال: "والذي نفس أبي بكر بيده ... لو ظننت أن السباع تختطفني لأخذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله، ولو لم يبق في القرى غيري لأخذته".

وموقفه في حرب المرتدين وماتعي الزكاة في الوقت الذي برزت فيه قرون العصبية الجاهلية كأنها قرون الشياطين، وكان المسلمون -بعد موت رسولهم- كالغنم في الليلة المطيرة، كما وصفتهم عائشة- وحتى قال بعض المسلمين لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، لا طاقة لك بحرب العرب جميعاً .. الزم بيتك، وأغلق بابك، واعد ربك حتى يأتيك اليقين .. ولكن هذا الرجل الخاشع البكاء، الرقيق كالنسيم، اللين كالحرير، الرحيم كقلب الأم، ينقلب في لحظات إلى رجل ثائر كالبحر، زائر كالليل، يصيح في وجه عمر: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا ابن الخطاب؟ لقد تم الوحي واكتمل .. أفينقص وأنا حي؟ والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، ما استمسك السيف بيدي !! .

من ثمار هذه القوة في نفس المؤمن وأخلاقه

#### (أ) التزام الحق مع القريب والبعيد

ومن ثمار هذه القوة النفسية ومظاهرها في المؤمن، الصدق في كل حال، والعدل في كل حين، فهو معترف بالخطأ إذا زلت به قدمه غير جاحد ولا مكابر. ولا يمرر لخطئه بخطأ آخر، أو بالقاء التهمة على غيره، وهو يقول الحق ولو كان مرأ، ويقوم لله شهيداً بالقسط ولو على نفسه أو والدين والأقربين، ويعدل مع العدو عدله مع الصديق، لا يعرف التحيز، ولا يعرف المحاباة.

أقام عمر بن الخطاب الحد على أحد أبنائه حتى قالوا: إنه مات في يديه. وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة إلى خيبر، ليقوم بتقدير ثمر النخل فيها، إذ كان لهم نصفها، وللمسلمين نصفها، وقام عبد الله بالمهمة فقال: في هذه كذا، وفي هذه كذا، فجمع اليهود له حلياً من حلى نسابهم وقالوا له: هذا لك، وخفف عنا في القسمة وتجاوز فقال: يا معشر اليهود .. والله والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلي. وما ذاك بحاملي أن أحيف عليكم. أما الذي عرضتم له من الرشوة فإنيها سحت، وإننا لا نأكلها. فلم يملك اليهود إلا أن قالوا: بهذا قامت السموات والأرض. وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابناً له اشترى خاتماً فحسه بألف درهم، فبعث إليه يقول: أما بعد .. فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً فحسه بألف درهم، فإذا بلغك كتابي هذا فبعه وأطعم بئمنه ألف جاع! واشتر خاتماً فحسه من حديد .. واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه..

#### (ب) الاستهانة بالقوى المادية

ومن مظاهر هذه القوة شجاعته في مواطن البأس وثباته في موضع الشدة، لا تتزلزل له قدم، ولا يتزعزع له ركن، لا يخشى الناس قلوباً أو كثراً، ولا يبالي بالأعداء وإن أرغوا وأزبدوا، اتسدت أبواب الخوف كلها في نفسه، فلم يعد يخاف إلا من ذنبه، ومن سقط ربه. إذا قيل له: إن أعداءك أكثر عدداً تلاً قول الله: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) (البقرة: 249).

وإذا قيل: إنهم أكثر مالا .. قرأ عليهم (إن الذين كفروا أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسيفقدونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) (الأنفال: 36).

وإذا حذروه من مكرهم وكيدهم أجابهم بما قال الله (ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين) (آل عمران: 54).

وإذا قيل إنهم أمتع حصوناً .. قرأ عليهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) (الحشر: 2). إنه يسير بمعونة الله، وينظر بنور الله، ويقاوم بسيف الله، ويرمي بقوة الله، (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (الأنفال: 17).

إن المؤمن لا يستعده منطق المادة، ولا لغة الأرقام، ولذا يقدم من ألوان التضحيات وضروب البذل والفداء ما يعتبره بعض الناس تهوراً بل جنوناً. روى ابن الأثير في تاريخه أن المسلمين في أثناء فتحهم لدير فارس حال نهر دجلة بينهم وبين «المدائن» وكانت السنة كثيرة المدود، ودجلة تنقف بالزبد، فجمع سعد بن أبي وقاص الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: "ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم" فقالوا جميعاً: "عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل".

فهب الناس إلى العبور، وأذن لهم في الاقتحام وقال: قولوا نستعين بالله، ونتوكل عليه. حسبنا الله ونعم الوكيل، والله ليُصرن الله وليه، ليظهرن دينه، وليهزمن عدوه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتلاحق الناس في دجلة، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيء.

ولقد كان الكافرون والمنافقون ينظرون إلى هذه الروح العالية التي يبديها المسلمون، فينزلون العدد الكثير وهم قليل، ويتحدون السلاح والاستعداد، والقوى غير متكافئة، بل غير متقاربة، فيظنون هذا غروراً، وما هو بالغرور، وإنما هي قوة الإيمان بالله والتوكل عليه (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (الأنفال: 49).

#### (ج) الإخلاص في القول والعمل

ومن مظاهر هذه القوة .. إخلاصه القول والعمل والنية لوجه ربه، فتراه يعمل الخير، ويحارب الشر، وإن لم يكن له فيه نفع مادي، ولا هو شخصي، لا يهمله الشهرة ولا المحمدة ولا رضا الناس، بل يؤثر الخفاء على الشهرة، وعمل السر على عمل العلانية، تجنباً للرياء، وبعداً بالنفس عن مزلق الشرك الخفي، متمنياً أن يكون ممن يحبه الله، من الأبرار الاتقياء الأخقياء، الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا، محاولاً أن يكون كالجذع من الشجرة يمداه بالغذاء وهو في باطن الأرض لا تراه العيون، وكالأساس من البنيان، يختفي في الأعماق وهو الذي يمسك البناء أن يزل.

وفي بعض الآثار تصوير لطيف للقوة الروحية للإنسان حين يتجرد للحق، ويخلص له، تصوير يجعله أثقل في ميزان الحق من الأرض والجبال، والحديد النار والماء ... يقول الأثر:

(لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتتكافأ، فأرسلها بالجبال فاستقرت فتعجب الملائكة من شدة الجبال فقالت: يا ربنا، هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال: نعم ... الحديد ... قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار ... قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من النار؟ قال: نعم، الماء ... قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح قالوا: فهل خلقت خلقاً أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم ... إذا تصدق صدقة يمينه فأخفاها من شماله).

الإنسان إذا أخلص لربه أشد قوة من الجبال المرساة في الأرض كالأوتاد، ومن الحديد القوي الذي يقطع الجبال، وتحت به الصخور، ومن النار المتأججة التي تذيب الحديد، ومن الماء المتدفق الذي يطفى النار، ومن الريح العاصف الذي يسوق المياه.

ومن مظاهر هذه القوة عند المؤمن وضوح خطته، واستقامة طريقته، وثباته عليها، لا يفرقه وعد، ولا يثنيه وعيد، ولا ينحرف به طمع متسلط، أو هوى جانر، أو شهوة طاغية، فهو دائماً داع إلى الخير، ثائر على الشر؛ أمر بالمعروف، ناه عن المنكر، هاد إلى الحق والعدل، مقاوم للباطل والظلم، يغير المنكر بيده، فإن لم يستطع فيلسانه، فإن لم يستطع فيقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

#### (د) التحرر من الخوف والحرص

ومن ثمار هذه القوة التحرر من الخوف والحرص.

فلقد رأينا الناس لا يضعف نفوسهم شيء كالحرص على الحياة وإن تكن ذليلة، والهرب من الموت وإن كان كريماً، ولا يفرس فيهم القوة شيء كالاستهانة بالحياة، والإقبال على الموت في سبيل الحق الذي يعتقدونه ولا شيء كالإيمان بالله وبالخلود يهون على الإنسان لقاء الموت، وفرق الحياة.

والمرء إذا هانت عليه الدنيا، ولم يبال بالموت ... هان عليه جبابرة الأرض، وملوك الناس، ونظر إلى الذهب كما ينظر إلى الحجر، وإلى السيف كما ينظر إلى العصا أو هو أدنى.

الحرص والخوف هما اللذان يضعفان النفوس، ويحنيان الرؤوس، ويذلان الأعناق. وإذا لم يكن حرص ولا خوف فلا سبيل إلى الضعف بحال. وقد رأينا سحرة فرعون حين آمنوا بالله والآخرة استهانوا بالدنيا ولم يجزعوا من الموت، يقولون لفرعون وهم في ثبات الجبال (فأقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) (طه: 72) إنهم لا يحرصون على شيء عده، ولا يخافونه على شيء عدهم، فلماذا يهنون أو يضعفون؟ كلا ... لقد انقلبوا من اتباع له إلى دعاة له يبشرون وينذرون (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى) (طه: 73).

#### (هـ) الاستخفاف بالجبابرة والطغاة

ولقد برزت هذه القوة في مقاومة المؤمنين للطغاة في الداخل، أو الغزاة من الخارج، ورأينا ذلك بارزاً للعيان في أمثلة شتى ... في القديم والحديث ...

طلب الخليفة الأموي الشهير (هشام بن عبد الملك) طاووس اليماني يوماً إلى مجلسه، فلما دخل عليه، لم يسلم عليه بامرة المؤمنين، ولكن قال: "السلام عليك يا هشام" وجلس بآزانه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى هم يقتله، وقال له: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فأزاد غضباً وغیظاً، وقال: خلعت عليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي، ولم تسلم على بامرة المؤمنين، ولم تكني، وجلست بازائي بغير إني، وقلت كيف أنت يا هشام، قال: أما ما فعلت من وضع نعلي بحاشية بساطك فإني أضعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول "لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا أمرته من شهوة، أو ولده من رحمة" وأما قولك لم تسلم على بامرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك، فكرهت أن أكذب، وأما قولك جلست بازائي فإني سمعت أمير المؤمنين علياً يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام، فقال هشام: عظمي ... فقال: سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن في جهنم حيات كالقلا، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته - ثم قام.

وفي تاريخنا الحديث رأينا أبطالاً في صور شتى، وفي بلاد عديدة، كلهم تحرروا من الخوف والطمع واستهانوا بالدنيا وما فيها ومن فيها، رغبة فيما عند الله (وما عند الله خير للأبرار) (آل عمران: 198).

رأينا البطل الليبي المسلم (عمر المختار) الذي حارب الاستعمار الإيطالي، وجيوشه المجهزة بأحدث أسلحة عصره، بالقلّة المؤمنة العزلاء، أو شبيه العزلاء من جنده: وقف يحارب الطائفة بالحصان، والمدفع بالسيف. واستطاع أن ينزل بأعدائه ضربات موجهة، ولم يرض بالتسليم ساعة ما، رغم نفاد قوته المادية كلها، ولكنه ظل يقول للطلّيان "لنن كسر المدفع سيغي قلن بكسر الباطل حقي".

وكان مريضاً بالحمى، تهز رعدتها جسده، وترتعد بها فرائصه، ورغم هذا قال لجنوده: "اربطوني على ظهر جوادي بالحيال حتى لا أتخلف عن القتال معكم".

وحين ظفر به جيش المستعمر - وحكموا عليه بالإعدام، تقبل الحكم برحابة صدر، وابتسامة سخرية، وقال له بعضهم -قبل تنفيذ الحكم-: اطلب العفو ونحن نطلق سراحك، فأجابهم بكل إباء وشمم: "لو أظفتم سراحي لعدت لمحاربكم من جديد".

ورأينا في الهند عالماً جليلاً كمولانا أبي الكلام آزاد يقف أمام المحكمة الإنجليزية التي عقدت لمحاكمته على ما قام به من إثارة وتحريض للشعب ضد الحكم البريطاني، فيلقي على هيئة المحكمة خطاباً رائعاً في نحو ست وثلاثين صفحة (نشرته مجلة "ثقافة الهند" في عدد مارس (يونيو 1958) ص 88 - 124)، يعتبر آية من آيات العزة الإيمانية، وكان مما قاله في هذا الخطاب التاريخي العظيم:

"نعم إنني قلت أن الحكومة الحاضرة ظالمة، وإن لم أقول هذا فماذا أقول يا ترى؟ وأيم الله إنني لأعجب كيف يطلب مني أن أسمى شيئاً بغير اسمه، وأن أدعو الأسود بالأبيض؟..."

إنني مسلم، ولأني مسلم وجب علي أن أندد بالاستبداد وأقبحه، وأشهر مساويه...

إن الإسلام أعلن "حقوق الإنسان" قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرناً، وليس مجرد إعلان، بل وضع نظاماً عملياً لجمهورية الحق بالغا في الكمال منتهاه.

ولعمري إن مطالبة مسلم بأن يسكت عن الحق، ولا يسمى الظلم ظلماً، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه، فليس لكم أن تطالبوا مسلماً بأن يمتنع عن قوله للظلم، أنه ظلم، لأن معنى كلتا المطالبتين واحد. إن التصديق بالحق وإعلانه عنصر ضروري للحياة الإسلامية، فإن فصل عنها فقدت أكبر ما تمتاز به لأن الإسلام أسس قومية المسلم عليه، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله، فكما يجب على الشاهد ألا يتوانى في إبداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ألا يقصر في إعلاء الحق، ولا يبالي في أداء فرضه بمصيبة أو بلاء، بل يصعد به حيثما كان، ولو لاقى دونه الحمام.

ولهذا نجد "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" من أكبر الفرائض الإسلامية.

التوحيد أساس الإسلام وقطب رحاه، وضده الشوك الذي أشرب المسلمون بغضه في قلوبهم.

والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم، أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له، وإن من يخشى غير الله فهو مشرك به، وجاعل غيره أهلاً للخوف والطاعة، وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبداً.

الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة، إلى البسالة والجرأة والتضحية، والاستهانة بالموت في سبيل الحق.

والقرآن يكرر مرة أخرى (ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيباً) (الأحزاب: 39)، (وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) (التوبة: 18)، (ولا يخافون لومة لائم) (المائدة: 54)، (أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد) (الزمر: 36).

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" رواه الحاكم على شرط الصحيحين، "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" - أبو داود والترمذي وابن ماجه. وقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا الحق أينما كانوا متفق عليه.



وقد ابيضت عين الدهر، ولم تر مثل هذه الضحايا الكثيرة العظيمة في إعلاء كلمة الحق، التي تقدمها الأمة الإسلامية في كل دور من حياتها. فتراجع علمانها ومشايخها وسادتها عبارة عن هذه الضحايا.

ألا فلتعلم الحكومة الإنجليزية أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر، ويتغفل في لجج الدواهي والكوارث، ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يخيفه قانون 124 من العقوبات الهندية (الذي كان يحاكم على أساسه) ولا يردعه عن دينه وأداء فريضته".

وظل أبو الكلام يهدر كالبحر، ويرسل حججه وكلماته شواظاً من نار، يمدّه بالقوة إيمانه بالله وبالحق. وبالقدر وبالخلود .. ثم التفت إلى القاضي وقال:

وأنت أيها القاضي، ماذا عسى أن أقول لك إلا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقعي هذا: (فأفرض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) (طه: 72).

### شهادة التاريخ

ذلك هو شأن الإيمان إذا عمقت جذوره، وقوي سلطانه على النفس، إنه يمد صاحبه بيقين لا يهين، وهمة لا تنف، وأمل لا يخيب، ودافع لا يتوقف، وعزم لا يخور. هو يملك الدنيا ولكنها لا تملكه، ويجمع المال ولكنه لا يستعبده، وتحيط به النعمة ولكنها لا تبطره، وينزل به البلاء ولكنه لا يقهره، لا تزيده الشدائد إلا عزيمة مع عزمته، وقوة إلى قوته، كالذهب الأصيل، لا تزيده النار إلا نقاء وصفاء. من كان يصدق أن مجموعة قليلة العدد، ضئيلة العدد، من جزيرة العرب، لم يكن لهم فلسفة اليونان، ولا مدنيتة الرومان، ولا حكمة الهند، ولا صنعة الصين، تملك الدنيا بزمام، وترث ملك الأكاسرة، وتحطم إمبراطورية القياصرة، وتشر ديناً جديداً، وحضارة جديدة في الأفاق، وفي أقل من ربع قرن من الزمان؟

أليس سر هذا هو الإيمان؟ الإيمان الذي جعل من بلال الحبشي قوة يتحدى "سيده" أمية بن خلف ويحارب أبا جهل بن هشام .. الإيمان الذي جعل القلة تنتصر على الكثرة، والأميين يغلبون المتحضرين، ودفع العرب البداة، ويقينهم في قلوبهم، ومصاحفهم في يد، وسيوفهم في أخرى، ومسكنهم على ظهور خيولهم يقولون لملوك الفرس وأباطرة الروم: نحن قوم بعثنا الله لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده...

### سر الوهن

وإذا كان الزمن قد تغير على المسلمين، فاتكمشوا بعد امتداد، وهنوا بعد قوة، فلأن الإيمان لم يعد المسيطر على أنفسهم، والموجه لأخلاقهم وسلوكهم. لقد بات إيمانهم إيماناً «جغرافياً» بحكم ولائهم في أرض المسلمين، أو إيماناً «وراثياً» يأخذونه عن آبائهم كما يرثون الدور والعقارات، بات إيماناً مخدراً نانماً لا تأثير له، ولا حيوية فيه، فكيف يورث القوة، ويهب للنفس العزيمة والمضاء؟

لقد كشف الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته عن الأسباب العميقة لضعفها حين تضعف، وهوانها حين تهون على أعدائها، فقال -وصدق الزمن ما قال- عليه السلام: "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء خفثاء السيل، ولينزع عن الله من صدور عدوك المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا وما الوهن؟ -أي ما سببه وما سره فإن معنى الوهن معروف وهو الضعف- قال: حب الدنيا وكراهية الموت".

هذا هو مبعث الوهن الحقيقي، وسر الضعف الأصل، أن يخلد المرء إلى دنياه الخاصة، فيعيش عبداً لها مطواعاً لأوضاعها الرتيبة، أسيراً لقيودها الثقيلة، تحركه الشهوات كالخاتم في الإصبع، وتسيره الرغائب المادية كالثور في الساقية، يتحرك في مدار محدود، فاقد الهدف معصوب العينين.

حب الدنيا هو الذي يجعل الملك في صولجانه عبداً ضعيفاً، رخو العود، أمام امرأة يعشقها، أو شهوة يطعم في نيلها، أو نديم يخشى أن يفضحه، أو حاشية تعينه على سرقاته ونزواته...

وكراهية الموت هي التي تجعل الأفراد والجماعات يؤثرون حياة ذليلة على موت كريم، يؤثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتات، على موت يحيون بعده حياة الخلود.

ومن لا يمت تحت السيوف مكرماً يعيش ويقاسي الذل غير مكرم

#### التماوت والضعف ينافي الإيمان

وقد يرى المرء أناساً -ممن يتمسحون بالدين، ويدعون الانتساب إليه، بل إلى لبه وحقيقته- يبدو عليهم الضعف والتماوت، والتخضع والتذلل والذبول، فيظن مخطئاً ومعنوراً أن هؤلاء صورة صحيحة للمؤمنين.

والواقع أن الإيمان الحق بريء من هذه الصور الزائفة، وتلك المظاهر الكاذبة. الإيمان قوة في الباطن والظاهر، في الخلق والسلوك، في المخبر والمظهر معاً.

رأى عمر رجلاً متمواثاً في صلاته، مطأطأ رقبته، مبدياً التذلل والتخضع، فما كان منه إلا أن علاه بدرته وقال: لا تمت علينا ديننا، أماتك الله. ارفع رأسك. فإن الخشوع في القلوب ليس الخشوع في الرقاب.

وكان من كلماته الماثورة: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق. ف قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً، والقلب ليس بخاشع. ورأت الشفاء بنت عبد الله بعض الفتيان يمشون متمواثين، فقالت في دهش: ما هؤلاء؟

ف قيل لها: هؤلاء لئسك -عُباد-

فقالت: لقد كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسك حقاً.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وقاره وسمو هيئته -إذا مشى أسرع في مشيته، كأنما ينحدر من ضبيب.

ويقول أبو هريرة: "ما رأيت أحداً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم -كان الشمس تجرى في وجهه - ولا رأيت أحداً أسرع في مشيته منه، كأنما الأرض تطوى له، وإنما لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكثر".

## الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

### الفصل الرابع - الرحمة

- قيمة الرحمة والإنسان
- رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى
- من لا يرحم لا يُرحم
- من آثار الرحمة في المجتمع الإسلامي
- الجرائم البشعة ولبدة الكفر والقسوة
- مثلان من أمثلة الرحمة المؤمنة

### قيمة الرحمة والإنسان

الإنسان من غير قلب أشبه بالآلة الصماء، والحجر الصلد، فإن حقيقة الإنسان ليست في هذا الغلاف الطيني من لحم ودم وعظم، وإنما هي تلك اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحية، التي بها يحس ويشعر وينفعل ويتأثر، ويتألم ويرحم، هي القلب الحي.

ومن أخص أوصاف المؤمن أنه يتميز بقلب حي مرهف لئِنْ رحيم، يتجاوب به والأحداث والأشخاص، فيرق للضعيف، ويألم للحرين، ويحنو على المسكين، ويمد يده إلى الملهوف، وبهذا القلب الحي الرحيم ينفر من الإيذاء، وينبو عن الجريمة، ويصبح مصدر خير وبر وسلام لما حوله ومن حوله.

### رحمة المؤمن من رحمة الله تعالى

المؤمن إنسان ذو قلب رحيم، لأن مثله الأعلى أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وأن يكون له حظ من أسمائه الحسنى.

ومن أوضح الأخلاق الإلهية «الرحمة» التي وسعت كل شيء، وشملت المؤمن والكافر، والبر والفاجر، واستوعبت الدنيا والآخرة. وقد قرَّب الرسول لأصحابه هذا المعنى -على طريقته في انتهاز الأحداث والمناسبات فرصاً لغرس المبادئ، والمعاني التي يريد- حين قدموا عليه مرة بسبي، وإذا امرأة تسعى، قد تحلب ثديها، إذ وجدت صبياً في السبي، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قالوا: لا -وهي تقدر على ألا تطرحه- قال: فإله أرحم بعباده من هذه بولدها" رواه البخاري. من أبرز أسماء الله الحسنى اسماً «الرحمن الرحيم» وهما أشهر الأسماء بعد لفظ الجلالة «الله» والمؤمن بالقرآن كلما تلا كتاب الله أو بدأ سورة منه، افتتحها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» في مائة وثلاث عشرة سورة منه.

وحسبنا أن يردد هذين الاسمين في صلاته المكتوبة ما لا يقل عن أربع وثلاثين مرة في اليوم فهو كلما أدى ركعة قرأ فاتحة الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم \* الحمد لله رب العالمين \* الرحمن الرحيم) (الفاتحة: 1 - 3) وهي سبع عشرة ركعة في الصلوات الخمس المفروضة على المسلم في يومه، فإذا أدى السنن زاد ضعف ذلك، فإذا رغب في النافلة، زاد ما شاء الله أن يزيد.

ولهذين الاسمين الكريمين «الرحمن الرحيم» إحياء قوي في نفس المؤمن، فضلاً عما توجه به عليه عوبيته الله أن يكون له حظ من أسمائه تعالى. وللإمام الغزالي كتاب سماه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»، يشرح فيه الاسم الإلهي ثم يعقب بما يمكن أن يكون حظ الإنسان من هذا الاسم. وبعد أن شرح معنى الاسمين «الرحمن الرحيم» قال: وحظ العبد من اسم «الرحمن» أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإيذاء، وأن يرى كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يالو جهداً في إزالتها بقدر وسعه، رحمة لذلك العاصي من أن يتعرض لسخط الله تعالى، أو يستحق البعد عن جواره.

"وحظ العبد من اسم «الرحيم»: ألا يدع فاقةً لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيراً في جواره أو في بلده، إلا ويقوم بتعده ودفع فقره، إما بماله أو جاهه، أو الشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك، فيعينه بالدعاء، وإظهار الحزن، رقة عليه وعطفاً، حتى كأنه مساهم له في ضربه وحاجته".

### من لا يرحم لا يرحم

والمؤمن يعتقد أنه دائماً فقير إلى رحمة الله تعالى، فبهذه الرحمة الإلهية يعيش في الدنيا ويفوز في الآخرة. ولكنه يوقن أن رحمة الله لا تتال برحمة الناس "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"، "ومن لا يرحم لا يرحم"، "الرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". ورحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين وإن كان دافع الإيمان المشترك يجعلهم أولى الناس بها. وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعاً. وقد قال رسول الإسلام لأصحابه: "إن تؤمنوا حتى ترحموا. قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم. قال: إنه ليس برحمة أحكم صاحبه ولكنها رحمة العامة". (رواه الطبراني). ومن صفات المؤمنين في القرآن (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة) (البقرة: 177). بل هي رحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم، فالمؤمن يرحمه ويتقي الله فيه، ويعلم أنه مسنول أمام ربه عن هذه العجاوات. وقد أعلن النبي لأصحابه أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلباً فغفر الله لها، وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب، فماذا يكون عقاب الذين يحبسون عشرات الألوف من بني الإنسان بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله؟!

وقال رجل: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبها. فقال: "إن رحمتها رحمتك الله" (رواه الحاكم) ورأى عمر رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبها فقال له: "ويلك .. قدها إلى الموت قوداً جميلاً".

ويروي المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه بخيمته. فالتخت من أعلاه غُثًا، وحين أراد عمرو الرحيل رآها، فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه، فتركه وتكاثر العمران من حوله، فكانت مدينة "الفسطاط".

ويروي ابن الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة. وأنه كتب إلى صاحب السكك: أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل، ولا ينخس بمقرة في أسفلها حديدية. وكتب إلى واليه بمصر: أنه بلغني أن بمصر إبلاً نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرف أن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.

هذه الرحمة الدافقة الشاملة أثر من آثار الإيمان بالله والآخره، ذلك الإيمان الذي يرقق بنفحاته القلوب الغليظة، ويلين الأخفدة القاسية. أرايت إلى عمر -وقد كان معروفاً بالشدة والقسوة في جاهليته- كيف صنع الإيمان به، ففجّر ينباع الرحمة والرقّة في قلبه. لقد قالوا: إنه وأد بنتاً له في الجاهلية، فلما ولي إمارة المؤمنين كان يرى نفسه مسنولاً أمام الله عن بقلة تعثر بالقصى البلدان. ولقد غلبت هذه العقيدة وهذا الخلق على أعمال المسلمين الأولين، ووضحت آثارها في سلوكهم حتى مع الأعداء المحاربين، فنجد رسول الإسلام يغضب حين مر في إحدى غزواته، فوجد امرأة مقتولة فقال: **ما كانت هذه لتقاتل**، وينهى عن قتل النساء والشيوخ والصبيان، ومن لا مشاركة له في القتال.

ويسير أصحابه على نفس النهج أبراراً رحماء لا فجاراً قساة: فهذا أبو بكر يودع جيش أسامة بن زيد ويوصيهم قائلاً: **"لا تقتلوا امرأة ولا شيخاً ولا طفلاً، ولا تعفروا نخلًا، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، وستجدون رجالاً فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له"**. ويقول عمر: **"اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"**.

ويُحمل إلى أبي بكر رأس مقتول من كبراء الأعداء المحاربين. فيستنكر هذا العمل، ويعن سخطه عليه ويقول لمن جاءه بالرأس: **لا يُحمل إلى رأس بعد اليوم. فقليل له: إنهم يفعلون بنا ذلك**. فقال: **فاستنان (أي اقتداء) بفارس والروم؟ إنما يكفي الكتاب والخبر**.

وهكذا كانت الحرب الإسلامية حرباً رحيمة رفيقة، لا يُراق فيها الدم إلا ما تدعو الضرورة القاهرة إليه، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون فقال: **ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب!**

### من آثار الرحمة في المجتمع الإسلامي

كما برز أثر ذلك الخلق العظيم في العلاقات الاجتماعية الداخلية - فرأينا المجتمع المسلم تسوده عواطف كريمة، ومشاعر نبيلة، كلها تفيض بالرفق والرحمة، وتتدفق بالبر والخير، وتجلت هذه المشاعر والعواطف فيما عُرف بنظام **"الوقف الخيري"** عند المسلمين. فقد مضى المواسون من المؤمنين -بدافع الرحمة التي قذفها الإيمان في قلوبهم، والرغبة في ثبوت الله لهم، وألا ينقطع عملهم بعد موتهم- يلقون أموالهم كلها أو بعضها على إطعام الجائع، وسقاية الظمآن، وكسوة العريان، وإيواء الغريب، وعلاج المريض، وتعليم الجاهل، ودفن الميت، وكفالة اليتيم، وإعانة المحروم، وعلى كل غرض إنساني شريف، بل لقد أشركوا في برّهم الحيوان مع الإنسان.

ولقد تأخذ أجدنا الدهشة وهو يستعرض حجج الواقفين ليرى القوم في نبل نفوسهم، ويقظة ضمائرهم، وعلو إنسانيتهم، بل سلطان دينهم عليهم، وهم يتخيرون الأغراض الشريفة التي يلقون لها أموالهم، ويجرون أن تنفق في سبيل تحقيقها هذه الأموال.

وربما استشرفت النفوس إلى أمثلة من هذا البر يعين ذكرها على تفصيل هذا الإجمال. فإلى هذه النفوس المستشرقة أسوق هذه الأمثلة:

### وقف الزيادة

وقف تشتري منه صحاف الخزف الصيني، فكل خادم كُسرَت آتيته، وتعرض لغضب مخدمه، له أن يذهب إلى إدارة الوقف فيترك الإناء المكسور، ويأخذ إناء صحيحاً بدلاً منه، وبهذا ينجو من غضب مخدمه عليه.

### وقف الكلاب الضالة

وقف في عدة جهات ينفق من ريعه على إطعام الكلاب التي ليس لها صاحب استنقاذاً لها من عذاب الجوع، حتى تستريح بالموت أو الاقتناء.

### وقف الأعراس

وقف لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والأفراح، يستعير الفقراء منه ما يلزمهم في أفراحهم وأعراسهم، ثم يعيدون ما استعاروه إلى مكانه وبهذا يتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ولعروسه أن تجلى في حلة راقية، حتى يكتمل الشعور بالفرح، وتتجبر الخواطر المكسورة.

### وقف الغاضبات

وقف يؤسس من ريعه بيت. ويعد فيه الطعام والشراب، وما يحتاج إليه الساكنون، تذهب إليه الزوجة التي يقع بينها وبين زوجها نفور، وتظل آكلة شاربة إلى أن يذهب ما بينها وبين زوجها من الجفاء وتصفو النفوس، فتعود إلى بيت الزوجية من جديد.

### وقف مؤنس المرضى والغرباء

وقف ينفق منه على عدة مؤننين، من كل رخيخ الصوت حسن الأداء، فيرتلون القصائد الدينية طول الليل، بحيث يرتل كل منهم ساعة، حتى مطلع الفجر، سعياً وراء التخفيف عن المريض الذي ليس له من يخفف عنه، وإيناس الغريب الذي ليس له من يؤنسه.

### وقف خداع المريض

وقف فيه وظيفة من جملة وظائف المعالجة في المستشفيات، وهي تكليف اثنين من المعرضين أن يقفا قريباً من المريض، بحيث يسمعهما ولا يراهما، فيقول أحدهما لصاحبه: ماذا قال الطبيب عن هذا المريض؟ فيرد عليه الآخر: إن الطبيب يقول: أنه لا بأس فهو مرجو البرء، ولا يوجد في علقته ما يشغل البال وربما نهض من فراش مرضه بعد يومين أو ثلاثة أيام.

وهكذا سلك الواقفون كل مسالك الخير، فلم يدعوا جانباً من جوانب الحياة دون أن يكون للخير نصيب فيه.

وبهذا إنما يصدرون عن احساسات إنسانية عميقة، تنفذ إلى موطن الحاجة التي تعرض للناس في كل زمان ومكان.

ولاشك أن العقيدة هي صاحبة الفضل في خلق هذه الأحاسيس الرقيقة، وإيقاظ تلك المشاعر السامية التي تنبتهت لتلك الدقائق، في كل زاوية من زوايا المجتمع وكل منحنى من مناحي الحياة، ولم يكفهم أن يكون برّهم مقصوراً على حياتهم القصيرة، فأرادوا صدقة جارية، وحسنة دائمة، يكتب لهم أجرها ما بقيت الحياة وبقي الإنسان.

### الجرائم البشعة وليدة الكفر والفسوة

إن القلوب المؤمنة لا تخلو من رحمة، والكفر بالله والآخرة يتبعه قلب غليظ قاس، والقلوب القاسية هي التي ترتكب عادة أبشع الجرائم التي تقشعر لهولها الأبدان.

ولو قلبنا صفحات التاريخ لوجدنا الجرائم المروعة فيه إنما اقترفها أناس لا يرجون الله وقاراً، ولا يحسبون للأخرة حساباً. فرعون الطاغية المتكبر الجبار الذي ذبح الأبناء، واستحيا النساء، لم يكن يؤمن بالرجوع إلى الله في الآخرة، فصنع ما صنع (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) (الفصص: 39).

(وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) (غافر: 27).

و «ثيرون» الذي أحرق روما، و «لبنين» الذي قال في بعض رسائله إلى مكسيم جوركي: إن قتل ثلاثة أرباع العالم يهون في سبيل أن يصبح الربع الباقي شيوعياً.

والمذابح التي صنعها الماديون الشيوعيون في الموصل وكركوك والعراق من دفن الناس أحياء، وجر الجثث في الشوارع (السحل) أوضح شاهد على جمود القلوب عند الماديين.

وثورة المجر وما أريق فيها من دماء دليل آخر (وما يريقه الشيوعيون في أفغانستان المسلمة الآن -1980- من دماء المسلمين أقوى دليل على ذلك - "الناشر").

بل ما يحدث من الشيوعيين أنفسهم بعضهم لبعض دليل واضح على أن قلوبهم كالحجارة، أو أشد قسوة، كتب الصحفي المعروف «علي أمين» (كتاب «أفكار للبيع» ص 141 تحت عنوان: «أنصار الطغاة» لعلّي أمين) يقول: في كتاب «ماذا يحدث للشيوعيين» الذي ألفه الكاتب الروسي «ميشيل باديف» إحصاء غريب عن عدد الذين أعدمهم ستالين من أنصاره بعد وفاة لينين.

فقد أعدم ستالين جميع أعضاء أول مجلس إدارة الحزب اجتمع بعد وفاة لينين، وأجمع على انتخاب ستالين.

وأعدم كل وزراء لينين واتهمهم بالخيانة.

وأعدم 80 بالمائة من سكرتيري اتحادات العمال الذين اجتمعوا وباركوا انتخابه.

وأعدم 15 عضواً من الـ 27 عضواً الذين تألفت منهم اللجنة التي وضعت دستور 1936.

وأعدم 43 سكرتيراً من 53 سكرتيراً، الذين يشرفون على تنظيمات الحزب الشيوعي.

وأعدم 70 من 80 عضواً من أعضاء مجلس الدفاع السوفييتي.

وأعدم ثلاثة مارشالات من خمسة مارشالات في الجيش الأحمر.

وأعدم 9 وزراء من الـ 11 وزيراً الذين كان يتألف منهم مجلس وزرائه عام 1936.

وأعدم 60 بالمائة من قواد الجيش الأحمر وثلاثين ألف موظف من موظفي الحكومة.

وهكذا كان النظام الشيوعي يأكل نفسه بنفسه بسرعة منقطعة النظير.

والسر في كل هذا هو أن لا حرية في روسيا، وأن الحاكم يستطيع أن يحكم على كل من يخالفه، وأن يقضي عليه دون أن يقاضيه، ودون أن يسمح لأي صوت حر أن يعترض، ويقول له: "قف تعال نحكم معاً إلى العدالة".

ويقول: إن فقدان الحرية ليس وحده سر هذه الجرائم البشعة والمجازر الرهيبة، فقد حكم شعبياً كثيرة مستبدون كثيرون ولكنهم لم يصنعوا بأعدائهم ما صنع هؤلاء بأنصارهم، وذوي حزبيتهم، ولكنها قلوب أقفرت من الإيمان، فأقفرت من الرحمة ورعاية الإنسان لأخيه الإنسان.

### مثلان من أمثلة الرحمة المؤمنة

أين هذه القسوة الرجيمة، والقلوب الصخرية من تلك القلوب الرقيقة اللينة التي تخشى الله وترجو الآخرة، وتؤمن أنها إن سلمت من حساب الدنيا فلن تسلم من حساب يوم القيامة. وإن أفلتت من يد الانتقام هنا، فلن تغفلت من يد العدل هناك؟ وأنها لا تكتفي أن تنقف في مرتبة العدل، والقصاص بالمثل، ولكنها تتطلع إلى درجة الفضل والعفو. (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (النحل: 126)، (وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنه لا يحب الظالمين)؟! (الشورى: 40).

وإذا كان لنا أن نضرب أمثلة من تاريخ العقيدة الزاهرة، وعملها في الأنفس والقلوب فإنا نكتفي في هذا المقام بمثلين اثنين من خلفاء المسلمين.

### المثل الأول

ما صنعه أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وقد حاصر داره الثائرون، الذين عملت فيهم الدعاية اليهودية السبئية عملها، ودفعتهم إلى الثورة المسلحة على الخليفة الشيخ، ولكن الخليفة أبي أن يقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإن أدى ذلك إلى إراقة دمه. ذكروا أن عبد الله بن عمر ليس درعه وتقلد سيفه «يوم الدار» - وهو الاسم الذي أطلق على يوم محاصرة عثمان في داره لقتله- فعزم عثمان عليه أن يخرج، ويضع سلاحه، ويكف يده، ففعل.

ودخل عليه زيد بن ثابت فقال: إن هذه الأنصار بالباب، وتقول: إن شئت كنا أنصار الله مرتين. قال: لا حاجة لي، كفوا.

وعن عامر بن ربيعة قال: كنت مع عثمان في الدار، فقال: اعزم على كل من رأى أن لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده، ويلقي سلاحه ... فألقى القوم أسلحتهم.

وقال بعض أنصاره: نهانا عثمان عنهم (الثوار) ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا.

وهكذا رفض الخليفة إراقة الدماء، ولو كان ذلك في نصرته، والدفاع عنه، وحاول أن يردهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن. أشرف عليهم يوماً وقال لهم: إنه لا يحد سفق دم امرئ، مسلم إلا في إحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحسان، أو قتل نفس بغير نفس. فهل أنا في واحدة منهن؟ فما وجد القوم له جواباً.



وقال لهم مرة: أيها الناس إن وجدتم في الحق أن تضعوا رجلي في القيد فضعوها، فما وجد القوم له جواباً. ثم قال: أستغفر الله إن كنت ظلمت، وقد غفرت إن كنت ظلمت (ظلمت: الأولى بفتح الظاء والثانية بضمها)!!

واعتصم الخليفة بالصبر، وأبى أن تسل السيوف تأليداً له حتى ضرج الثوار الأرض بدمه، كراهة أن يلقي الله بدم أحد في عنقه. قال معبد الخزاعي لعلي بن أبي طالب: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قُتل عثمان ولم تتصره. قال: إن عثمان كان إماماً، وأنه نهى عن القتال، وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا.

قال: فاي منزلة وسعت عثمان، إذ استسلم حتى قتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين) (المائدة: 28).

### المثل الثاني

وأما المثل الثاني فهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، إذ يتربص به اثنان من طائفة الخوارج (شبيب الأشجعي، وعبد الرحمن بن ملجم) وقد خرج قبيل الفجر يوقظ الناس للصلاة، فترقباه بباب المسجد حتى دخل فضربه شبيب فأخطأه، وضربه ابن ملجم على صلته، فقال علي كرم الله وجهه: "فرت ورب الكعبة" أي بالشهادة: وتجمع الناس بسرعة على الرجلين، فاما شبيب فاستطاع أن ينسل من بين الناس. وأما ابن ملجم فلم يكتف بجريمته الشنعة حتى حمل سيفه على الناس فأفرجوا له، وتلقاه المغيرة بن نوفل -أخو الهاشميين- بقطيفة فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض، وكان قويا أيدا، فقع على صدره. ثم أقبل الناس على علي رضي الله عنه، يسألونه ما يصنعونه به. فماداً قال علي في شأن قاتله البغيض وهو الخليفة الأمر المطاع؟

قال: "إن أعش فالأمر إلي، وإن أصبت فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى".

هذا هو منطق الإيمان: ضربة بضربة، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ألا ما أروع وما أعظم؟

تري كم كان يذهب ضحية من قوم هذا القاتل وحزبه لو كان الأمر بيد الماديين الذين لا يخشون الخالق ولا يرحمون المخلوق!!! .

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### الفصل الخامس - الإيمان والإنتاج

- مقدمة
- الإيمان والعمل
- دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتي
- الفوز في الآخرة بالعمل لا بالأماني
- أثر الاستقامة في الإنتاج
- إحساس المؤمن بقيمة الوقت
- العبادات والإنتاج
- المؤمن يعمر أرض الله بالعمل

- النجاح في الدنيا بالعمل
- المؤمن يخشى الله في عمله فينته
- أثر السكينة النفسية في الإنتاج
- الإيمان بالآخرة لا يعطل الدنيا
- التوكل ليس معناه التواكل

ونعني بالإنتاج هنا: الإنتاج الاقتصادي بخاصة، والإنتاج المادي والمعنوي بعامة، ذلك أن بعض الناس يخيل إليه أن الإيمان بالدين وعقائده قد يؤخر عجلة الإنتاج أو يعوقها في سيرها وحركتها، بما يमित في النفوس من حب الحياة والرغبة في العمل المادي، وبما يلقيه في قلوب الناس أن الإنسان مسير لا مخير، وأن الحياة الدنيا لا تستحق العمل والاهتمام، لكم يخسر المجتمع، وتتأخر الحياة، إذا شاع فيها هذا اللون من الإيمان. وهذه أو هام أشاعها الجهل عن الدين والإيمان، والحقيقة أن الإيمان أعظم دافع للإنتاج لو تأمل الناس وأنصفوا، فالإنتاج لا ينمى ويزداد إلا بما يبذل الناس من جهد وعمل، وما يصحب هذا العمل من إحكام وإتقان. ولا يتحقق هذا وذاك إلا في جو من الأصالة والإخلاص للعمل، وذلك لا يكون إلا بباعث قوي، وحافز غلاب، فهل هناك باعث أقوى تأثيراً من الإيمان؟

#### الإيمان والعمل

إن الإيمان الصادق ليس مجرد إدراك ذهني أو تصديق قلبي غير متبوع بآثر عملي في الحياة .. كلا، إنه اعتقاد وعمل وإخلاص. ومهما اختلف علماء الكلام والجدل في العقائد حول مفهوم الإيمان وصلة العمل به: أهو جزء من مفهومه أو شرط له أم ثمرة من ثمراته، فإتاهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الإيمان الكامل.

وقد روي في الأثر ما يصور لنا حقيقة الإيمان: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتخلي ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل" (رواه ابن النجار والديلمي في "سند الفردوس" من حديث أنس ورمز له السيوطي في "الجامع" بعلامة الضعف).

وقد ذكر القرآن الكريم الإيمان مقروناً بالعمل في أكثر من سبعين آية من آياته، ولم يكتف بمجرد العمل ولكنه يطلب عمل "الصالحات" وهي كلمة جامعة من جوامع القرآن تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين، وما يصلح به الفرد والمجتمع، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معاً.

#### دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتي

والمؤمن بالدين عامة وبعبقيرة الإسلام خاصة، لا يساق إلى العمل الدنيوي سوق القطعان. لا يدفعه إليه قهر حكومي أو ضغط خارجي، أو رقابة من سلطة تنفيذية تشهر عليه سيف التهديد بالجوع والحرمان أو عذاب الهون. كما يعرف في الأنظمة الاشتراكية. وإنما يندفع المؤمن إلى العمل بحافز من نفسه، وباعث من ذاته، بإيحاء ينبعث من داخله لا سوطاً يسوقه من الخارج. ذلك الباعث الذاتي هو الإيمان بالله وبرسالة السماء، وبمهمته في عمارة الأرض والسيدة على الكون.

إن المؤمن يوقن أن السعادة في الآخرة والنجاح في الأولى موقوف على العمل. الجنة في الآخرة ليست جزاء لأهل البطالة والكسل والفراغ، بل لأهل الجد والعمل والإتقان: (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) (الزخرف: 72)، (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (السجدة: 17)

### الفوز في الآخرة بالعمل لا بالأمان

وقد هدمت عقيدة الإسلام ذلك الطمع الأشعبي، والأمانى الفارغة التي جعلت صنفاً من الناس يحسبون الجنة حكراً لهم، أو عقاراً سيتوارثونه عن الآباء والأجداد، يستحقونها بمجرد الانتساب إلى دين معين أو الدخول تحت عنوان خاص.

أبطل الإسلام هذه الدعاوى العريضة، ورد الأمر كله إلى صدق الإيمان وحسن العمل: (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين \* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة: 111، 112) وبهذا رسم الطريق إلى الجنة: إسلام الوجه إلى الله وإحسان العمل.

ولم يكن هذا موقفه من اليهود والنصارى فحسب، في قد وقف نفس الموقف من الأشعبيين، من المسلمين أنفسهم، أولئك الحمقى الذين يتبعون أنفسهم هواها ويتمنون على الله الأمانى، ويظنون أن النطق بكلمة الإسلام، أو التسمي بأسماء المسلمين يكفي لفتح لهم أبواب الجنة، فيدخلوها بسلام آمنين، ولكن القرآن بين لهم بوضوح أن قانون الله في الجزاء عام لعباده قاطبة، لا محابة عنده، ولا فرق بين طائفة وطائفة. روى المفسرون للقرآن أن مجلساً ضم جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين فزعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة، اليهود قالوا: نحن أتباع موسى الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه. والنصارى، قالوا: نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته.

والمسلمون قالوا: نحن أتباع محمد خاتم النبيين وخير أمة أخرجت للناس. ولم يدع القرآن هؤلاء وهؤلاء، لدعاوهم وتنازعهم. فنزلت آياته حاكمة فاصلة، قاضية عادلة، تخاطب المسلمين في صراحة وجلاء: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً \* ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها) (النساء: 123، 124).

### النجاح في الدنيا بالعمل

ولا يذهب الظن أو الوهم بأحد، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل مقصور على الآخرة وحدها، فإن قوانين الله في الجزاء واحدة، ورب الدنيا والآخرة واحد، فאלله تعالى يقول: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً) (الكهف: 30)، (فتعمر أجر العاملين) (الزمر: 74)، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: 7، 8).

وسنة الله -التي أخبرنا القرآن أنها لا تتبدل ولا تتحول- لا تسمح لفارغ أو قاعد أو كسول أن يظفر بما يريد، أو يحقق ما يأمل، بل إن سنن الله في الدنيا لا تفرق في الجزاء على العمل بين مؤمن وكافر ... فمن عمل أجر، ومن قد خرم، مهما كان دينه أو اعتقاده. وبهذا يندفع المؤمن إلى العمل دائماً، حتى لا يصادم سنن الله في الكون فتصدمه؛ فيكون من الهالكين.

### المؤمن يخشى الله في عمله فينتقه

والمؤمن لا يكتفي بالاندفاع الذاتي إلى العمل، بل يهيمه أن يجوده، ويتقنه ويبدل جهده لإحسانه وإحكامه، لشعوره العميق، واعتقاده الجازم أن الله يرقبه في عمله، ويراه في مصنعه أو في مزرعته أو في أي حال من أحواله، وأنه تعالى "كتب الإحسان على كل شيء" (حديث صحيح رواه مسلم) وقد فسر نبي الإسلام هذا الإحسان في جانب العبادة، فقال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (جزء من حديث جبريل المشهور).

وهذا هو شعور المؤمن في كل عمل من الأعمال -لا في العبادة وحدها- أن يؤدي العمل كأنه يرى الله، فإن لم يبلغ هذه المرتبة فأقل ما عليه أن يشعر أن الله يراه، وشعار المؤمن دائماً في أدائه لعمله: (إني أرضي ربي).

وربه لا يرضيه منه إلا أن يقوم بعمله في صورة كاملة متقنة، وهذا ما علمه نبي الإسلام للمؤمنين "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" (رواه البيهقي في «شعب الإيمان») عملاً - أي عمل من أعمال الدنيا أو أعمال الآخرة.

وهناك خلقان أصيلان يتوقف عليهما جودة العمل، وحسن الإنتاج، وهما: الأمانة، والإخلاص، وهما في المؤمن على أكمل صورة وأروع مثال. فالصانع المؤمن مثلاً ليس همه مجرد الكسب المادي من صنعه، أو إرضاء صاحب المصنع إن كان يعمل عنده بأجر. ولكنه أمين على صنعه يخلص فيها جهده، ويرقب فيها ربه، ويرعى حق أخوته المؤمنين وهم له أولياء، وعليه رقباء، ومرجو بعد ذلك جزاء الله في الآخرة، (وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وسرّدون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) (التوبة: 105). إننا كثيراً ما نقرأ في الصحف، وما نسمع من الناس، كما نشاهد نحن بأعيننا، ما تعانيه المؤسسات العامة من أجهزة تتوقف -على جدتها- وأدوات تخرب على متانتها، ومصالح تعطل، مع حاجة الجمهور إليها، وأعمال يكفيتها يوم تستغرق أياماً. ونتيجة ذلك أن مشروعات نافعة تفشل، وجهوداً مخصصة تبتر، وأموالاً طائلة تضيع، وأن الإنتاج العام بعد ذلك كله يتدهور أيما تدهور، وما ذلك إلا لفقدان الأمانة والإخلاص وخراب الضمان عند أولئك الذين لا يرجون الله وقاراً، ولا يحسبون للأخرة حساباً.

#### أثر السكينة النفسية في الإنتاج

والمؤمن كما عرفنا. يتمتع في حياته بسكينة النفس، وطمأنينة القلب وانشراح الصدر، وبسمة الأمل، ونعمة الرضا والأمن، وروح الحب والصفاء، ولا ريب أن لهذه الحالة النفسية أثرها في الإنتاج، فإن الإنسان الشارد أو المضطرب أو القلق أو اليائس أو الحاقق على الناس والحياة، قلما يحسن عملاً يوكل إليه، أو ينتج إنتاجاً يفتق ويرضي.

هذا أمر يعرف بأدنى ملاحظة، لا يحتاج إلى إحصاء العالم، ولا برهنة الفيلسوف.

#### أثر الاستقامة في الإنتاج

والمؤمن الصادق الإيمان يقف عند حدود الله، وينتهي عما نهاه، وينأى بنفسه عن ارتكاب الموبقات، والانغماس في أحوال المحرمات، وإرسال العنان للشهوات. إن إيمانه يأبى عليه أن يفرغ طاقته في سهر عابث، ولهو حرام، يأبى عليه أن يجري وراء قبح يفور بالخرم، أو مائدة تدور بالقمار، أو جسد يemor بالفتنة.

وبذلك يظل محتفظاً بحيويته وطاقته الجسدية والعصبية والعقلية والنفسية، فلا يصرفها إلا في العمل الصالح أو ما يعين عليه من لهو بريء. وهذا كسب كبير للفرد نفسه، ولأسرته وأولاده، وللمجتمع الذي يعيش فيه. وللحياة الإنسانية عامة.

إننا لو أحصينا ما تستهلكه الشهوات المحرمة، والموبقات المحظورة، والملاهي الآثمة -التي يجتنبها المؤمنون الصادقون من الطاقات الإنسانية والمادية- لبلغت حداً هائلاً يفوق ما تبثله الحروب المدمرة، والأوبئة الفتاكة، والكوارث المخربة، ولكن الإلف والعادة هما اللذان هونا على الناس هذه الخسائر الفادحة، التي تصاب بها الإنسانية كل يوم، بل كل ساعة. وقد نشرت الصحف أن في أمريكا 72 مليوناً يتعاطون الخمر، منهم 20 مليوناً يكلفون الدولة بليونتي دولار كل سنة، بسبب تخلفهم عن العمل فإذا كانت هذه مغارم الخمر وحدها فكم تبلغ مغارم سائر الموبقات وسوء أثرها على الإنتاج؟!

### إحساس المؤمن بقيمة الوقت

والمؤمن أعمق الناس إحساساً بقيمة الوقت. إن الله سائله يوم الجزاء عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ فهو لهذا يرضن بوقته أن يضع في عبث، أو يبعض في صوب الرياح الهوج. إنه رأس ماله الوحيد، فكيف يضيعه ويبقي صفر اليدين؟ إن الوقت نعمة يجب أن تشكر بالانتفاع بها، ولا تكفر بالتفريط فيها. وقد قال عمر بن عبد العزيز: "إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما".

المؤمن يشعر كأن كل يوم تبرغ شمس أو ينشق فجره، يناديه بصوت جهير: أيها الإنسان أنا خلق جديد، وعلي عملك شهيد، فتزود مني واغتمني بعمل الصالحات فإني إذا مضيت لا أعود أبداً.

وهو الذي يخشى أن تنفقت الأيام من يديه خاوية من العمل، والإنتاج، فلا يؤخر عمل اليوم إلى غد، لأن للغد عمله الذي يزحمه، فلا يتسع لعمل غيره من الأيام.

وهو كذلك حريص على أن يكون يومه خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه، وأن يطيل حياته بعد موته بطول أعماله، ويمد عمره بامتداد الجميل من آثاره، إنه يحرص أن يخلف وراءه علماً نافعا، أو عملاً طيباً، أو مشروعاً مثمراً، أو صدقة جارية أو ذرية سالحة، وعلى قدر ما يمتد ويبقى الأثر الذي يخلفه وعلى قدر ما ينتفع الناس به تكون مثوبته عند الله. هذه الروح هي التي جعلت رجلاً كآبي الدرداء صاحب رسول الله -يغرس شجرة الجوز وهو في الشوط الأخير من رحلة الحياة فيقول له بعض الناس: أغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا بعد كذا وكذا من السنين؟ فيقول له أبو الدرداء: وماذا علي أن يكون لي ثوابها ولغيري ثمرتها؟

وهي التي جعلت آخر يغرس شجرة الزيتون ويقول: غرس لنا من قبلنا فاكلنا ونغرس لياكل من بعدنا.

### العبادات والإنتاج

ولقد يقول بعض الناس: إن كل عقيدة دينية تفرض على المؤمنين بها ألواناً من العبادات وضرورياً من القربات والمراسم، تأخذ من أوقات الناس شيئاً يضيق ويتسع باختلاف الأديان وصفوف عبادتها. وخذ مثلاً الصلاة الإسلامية التي تؤدي كل يوم خمس مرات: أليس في ذلك تعطيل للعمل، وتعويق للعامل. في عصر الآلة والسرعة والمنافسة الجارية؟

والحق أن العبادات في الأديان عامة لا تأخذ من وقت الناس إلا القليل، ما لم يشرع الناس لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله، فيشقوا على أنفسهم ويرهقوها عسراً.

على أن القليل الذي ينفق في العبادة، ليس وقتاً ضائعاً على الحياة والإنتاج. كلا، إنه شحن للطاقة وشحن للهمة، وتوليد للقوة، وصقل لمعدن النفس لتعود إلى معركة الحياة أقوى وأمضى.

وإنه لمن الظلم للواقع أن يقاس الشيء بأثره المادي المباشر المنظور، ويغفل عن أثره الفعال الخفي الهادئ، في النفس وفي المادة أيضاً. ما أصدق ما قال الدكتور الكسيس كارليل مؤلف كتاب "الإنسان ذلك المجهول" وأحد الحائزين على جائزة "نوبل":

"لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت -بوصفي طبيباً- كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عظمهم".

"إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع. ومولد ذاتي للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطبون القوة التي لا يفنى نشاطها".

"إننا نربط أنفسنا حين نصلي- بالقوة العظمى التي تهيم على الكون ونسألها ضارعين أن تمنحنا قيساً منها، نستعين به على معاناة الحياة. بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ولن تجد أحداً ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه هذه الضراعة بأحسن النتائج". وإذا كان هذا أثر الصلاة بعامه فإن الصلاة الإسلامية بخاصة أبعد أغواراً وأعمق آثاراً، إنها ليست تعبداً محضاً، ولا ضراعة خالية من معاني الحياة، إنها -مع الضراعة والتعبد- نفاقة، وثقافة، ورياضة، وتربية خلقية وهي -بما سنه الإسلام من نظام الجماعة- مدرسة لتعليم المبادئ الاجتماعية المثلى، ومعهد للتربية العلمية على المحبة والإخاء، والمساواة بين الناس.

وليت شعري هل يخسر الإنتاج أم يربح من رجل يستيقظ قبل أن تبرز الشمس من خدرها، فيقوم فيتوضأ ويتطهر. ويصلي لربه، ويستقبل نهاره مبكراً طيب النفس، نشيط البدن، منشرح الصدر، قوى اليقين؟

ويحق ما قاله أحد الباحثين في أثر صلاة الجماعة الإسلامية في حياة المسلم:

"وإنه -وأيم الحق- لنعمة كبرى أن يكون في مكتة الإنسان التمتع خمس مرات يومياً بجو من السلام التام وسط عالم يسوده الصراع والنضال، وبجو من المساواة على حين يكون التباين هو النظام السائد، وبجو من المحبة في معمة الأحقاد الوضيعة، والتنازلات والخصومات المفعمة بها الحياة اليومية، إنها حقاً لأجلز النعم لأنها العبرة الجلى من الحياة، فليس للإنسان بد من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن، ومع ذلك ينتزع نفسه من كل هذا خمس مرات ليكتنه حقيقة المساواة والإخاء والمحبة من حيث أنها هي المصادر الحققة للسعادة الإنسانية.

ومن أجل ذلك كان الوقت الذي تستغرقه الصلاة غير مضيع عبثاً من ناحية الخبرة الفاعلية، والنفع العملي للبشرية، إذ أنه على العكس من ذلك قد استغل أحسن استغلال، بتعلم تلك الدروس الجليلة التي تجعل الحياة حقاً جذيرة بالعيش فيها.

وتلك الدروس في الإخاء والمساواة والمحبة تصبح بممارستها عملياً في الحياة اليومية دعامات لتوحيد الجنس البشري، وتخليد الحضارة الأبدية لبني الإنسان".

### المؤمن يعمر أرض الله بالعمل

ولقد يفرق بعض الناس في الخيال، فيتصورون المؤمن درويشاً في «تكيته» أو راهباً في «ديره» متبتلاً للعبادة منقطعاً عن الحياة، وهذه كارثة على العمل والإنتاج.

ولكن هذه الصورة -إن عرفتْها بعض الأديان في بينات معينة- لا تعرفها عقيدة الإسلام، فالإسلام لا يعرف المؤمن إلا كادحاً عاملاً مؤدياً دوره في الحياة، أخذاً منها معطياً لها، مستجيباً لما أَرَادَهُ اللهُ من بني آدم حين جعلهم خلفاء الأرض: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (هود: 61).

عقيدة الإسلام لا تعرف يوماً من أيام الأسبوع يخلص للعبادة، وينقطع الناس فيه عن أعمال الحياة كما تعرف اليهودية مثلاً. ولكن الأيام جميعها في الإسلام أيام عمل، والعمل الدنيوي في الإسلام يمكن أن يكون عبادة بصدق النية.

هذا يوم الجمعة عيد الإسلام الأسبوعي، يقول الله تعالى فيه: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \* فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله وانكروا الله كثيراً لعلمكم تغفلون) (الجمعة: 9، 10).

فهذه حياة المسلم في يوم الجمعة، عمل وبيع وتجارة قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله والصلاة، ثم انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله بعد انقضاء الصلاة.

وقد حدثنا أن عمر بن الخطاب رأى قوماً قابعين في ركن من المسجد بعد صلاة الجمعة فسألهم: من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فعلاهم عمر بدرته ونهرهم وقال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وإن الله يقول: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله).

### الإيمان بالآخرة لا يعطل الدنيا

ويرزع بعض الناس أو يظنون أن الإيمان بالآخرة، والإقبال عليها يعطل العمل للدنيا، والكفاح من أجل ترقيتها، فإن الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح إحداهما إلا بمقدار ما تحمل الأخرى، وكالمشرق والمغرب إذا اقتربت من أحدهما ابتعدت من الآخر، والاضربتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى!! وهكذا فكل إقبال على الآخرة يقابله إعراض عن الدنيا.

وهذا الكلام صحيح إذا نظرنا إلى القلوب والأهداف والنيات .. فمن جعل الدنيا غاية ونيته وهمه ابتعد عن الآخرة بقدر ما تعلق قلبه بالدنيا والعكس بالعكس. أي أن المطلوب من المؤمن في الدنيا، أن يعمل ويجتهد ويكافح، ويبني ويعمر ويشيد، على أن تكون الآخرة نيته، وغايته، وأمله. المؤمن يتخذ الدنيا مزرعة للآخرة والمزرعة تحتاج إلى عمل وسعي، ولكن الثمرة إنما تقطف كاملة في الآخرة، وإن أدرك بعضها في الدنيا: (قل هي

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة (الأعراف: 32) ذلكم هو المؤمن: يسخر الدنيا لنفسه، ولا يسخر نفسه للدنيا، المؤمن لا يتخذ الدنيا رياءً فتتخذها الدنيا عبداً.

ولكنه بعد ذلك عضو عامل في جسم الأمة، ودم يجري في عروقها، يمدّها بالقوة والحركة والنماء، فهو إذا زرع أحسن، وإذا صنع أتقن، وإذا تاجر برع، وهو في كل جانب من جوانب الحياة حاذق مجيد.

قد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم زراعاً وتجاراً وصناعاً متقنين، ولم يقعد بهم إيمانهم بالآخرة عن العمل للدنيا، كيف وقد قال رسولهم (رواه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد» عن أنس، وكذا البزار والطحاوي، ورجاله ثقات وأثبات، كما قال الهيثمي): "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها" ولماذا يغرسها والساعة ستقوم، ولا أمل في انتفاع أحد من الخلق بها؟ إنه تكريم العمل لذات العمل، ولو لم يكن من ورائه نفع وانتفاع.

#### التوكل ليس معناه التوكل

"إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".

بهذا الجواب العمري تندفع تلك الشبهة التي تحوّل في بعض الصدور ذلك أن صفات المؤمن التوكل على الله، والتسليم له في شأنه كله، والقرآن الكريم يقول: (وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلاً) (النساء: 81)، (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (المائدة: 23)، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق: 3).

ولكن ما معنى التوكل؟

إن التوكل ليس معناه إطراح الإنسان للأسباب التي وضعها الله، والاتكال عليه أن يخرق له العوائد، ويجعل السماء من فوق رأسه تمطر الذهب والفضة، والأرض من تحت قدسيه تخرج له الخبز والإدام والسمن والعسل، بلا جهد ولا سعي ولا تفكير ولا عمل.

إن معنى التوكل أن يرتب الإنسان المقدمات. ويدع النتائج لله.

أن يبذر الحب ويرجو الثمار من الرب.

أن يقوم بالجانب البشري الذي يخصه، ويترك الباقي لربه، يهين له الأسباب ويزيل من طريقه الموانع، وما أكثر الأسباب التي يجهلها الإنسان، وما أكثر الموانع التي لا يعلمها فضلاً عن أن يستطيع تذليلها.

ولقد جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فترك ناقته بباب المسجد سائبة بلا عقل، وزعم بذلك أنه يتوكل على الله في حراستها. فقال له النبي الكريم كلمته التي سرت في المسلمين مسرى الأمثال السائرة: "اعقلها وتوكل".



والحديث الذي يتعلق بأذياله المتبطلون: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً"، هو في الواقع حجة عليهم لا لهم، فإنه لم يضمن لها الروح ملأى البطن، إلا بعد غدوها وسعيها، لا مع بقائها في أوكارها.

### الباب الثالث : الإيمان في حياة المجتمع

#### الفصل السادس - الإيمان والإصلاح

- ضرورة التغيير النفسي لكل حركة ونهضة ناجحة وصعوبته
- عمر والخساء بين الجاهلية والإسلام
- سحرة فرعون حين آمنوا
- تأثير الإسلام في نفسية العرب
- المفتاح الغد لأفعال الحياة

#### ضرورة التغيير النفسي لكل حركة ونهضة ناجحة وصعوبته

(إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد: 11).

إن إصلاح الجماعات والشعوب لا يجيء جزافاً ولا يتحقق عفواً.

إن الأمم لا تنهض من كبوة، ولا تقوى من ضعف، ولا ترتقي من هبوط إلا بعد تربية أصيلة حقّة، وإن شئت فقل: بعد تغيير نفسي عميق الجذور، يحول الهمود فيها إلى حركة، والقفوة إلى صحوة، والركود إلى يقظة، والفتور إلى عزيمة، والعقم إلى إنتاج، والموت إلى حياة. تغيير في عالم الناس أشبه ما يكون «بثورة أو انقلاب» في عالم المادة، تغيير يحول الوجهة والأخلاق، والميول والعادات. تغيير نفسي لابد أن يصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية - ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبراً على ورق، أو كلاماً أجوف يتبدد في الهواء.

سنة قائمة من سنن الله تعالى في الكون، قررها القرآن الكريم في عبارة وجيزة بليغة: (إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). ولكن هذا التغيير أمر ليس بالهين اليسير، إنه عيب ثقيل تنوء به الكواهل، فإن الإنسان مخلوق مركب معقد، ومن أصعب الصعب تغيير نفسه أو قلبه، أو فكره.

إن التحكم في مياه نهر كبير، أو تحويل مجراه، أو حفر الأرض، أو نسف الصخور، أو أي تغيير في معالم الكون المادي أسهل بكثير من تغيير النفوس، وتقليب القلوب والأفكار.

إن بناء المصانع والمدارس والسدود والمنشآت سهل ومقدور عليه، ولكن الأمر الشاق حقاً هو بناء الإنسان .. والإنسان القادر على نفسه، المتحكم في شهوته، الذي يعطي الحياة كما يأخذ منها، ويؤذي واجبه كما يطلب حقه، الإنسان الذي يعرف الحق ويؤمن به ويدافع عنه، ويعرف الخير ويحبّه

للناس كما يحبه لنفسه، ويتحمل تبعته في إصلاح الفساد، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتضحية النفس والمال في سبيل الحق.

إن صنع هذا الإنسان أمر عسير غير يسير.

ولكن الإيمان وحده هو صانع العجائب، الإيمان هو الذي يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات، وتضحيات ومشقات، وهو العنصر الوحيد الذي يغير النفوس تغييراً تاماً، وينشئها خلقاً آخر. ويصحبها في قالب جديد، فيغير أهدافها وطرانقها، ووجهتها وسلوكها وأذواقها ومقاييسها، ولو عرفت شخصاً واحداً في عهدين -عهد الكفر وعهد الإيمان- لرأيت الثاني شخصاً غير الأول تماماً، لا يصل بينهما إلا الاسم، أو النسب أو الشكل.

والإيمان كذلك لا يعترف بالمراحل والأعمار التي وضعها علماء النفس والتربية، واشترطوها لنجاح المجهود التربوي.

إنهم يقررون أن هناك سناً معينة هي سن القبول لتكوين العادات، واكتساب الصفات، وتهذيب الطباع والأخلاق، تلك هي سن الطفولة، فإذا كبر المرء أو المرأة على صفات خاصة فبهيات أن يحدث فيها تغيير يذكر، فمن شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه.

وينفع الأدب الأحداث في صغر  
وليس ينفع عند الشيبة الأدب  
وإن الغصون إذا قومتها اعتدلت  
ولن تلين إذا قومتها الخشب

ولكن هناك شيئاً واحداً تخطى قواعد التربويين والنفسيين. ذلك هو الإيمان، هو الدين، فالإيمان إذا سكن في قلب، وتغلغل في أعماقه، حول اتجاهه، وغير نظرته للكون والحياة، وأحكامه على الأشياء والأعمال، وعدل سلوكه مع الله والناس، ولم يقف في سبيل ذلك فتوة الشباب، ولا كهولة الكهول، ولا هرم الشيوخ.

### سحرة فرعون حين آمنوا

هل أتاك حديث سحرة فرعون، الذي قص القرآن علينا قصتهم؟ .. اقرأ هذه الآيات من سورة الشعراء: (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين \* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين \* قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم \* يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماداً تأمرون \* قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدانين حاشرين \* يأتوك بكل سحر عليم \* فجمع السحرة لميقات يوم معلوم \* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون \* لعلنا ننتع السحرة إن كانوا هم الغالبين \* فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أنن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين \* قال نعم وإنكم إن كنتم لمن المقربين \* قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون \* فأنفخوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا نحن الغالبون \* فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون \* فألقى السحرة ساجدين \* قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون \* قال أنتم له قیل أن أنن لكم \* أنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، لألقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين \* قالوا لا ضير، إنا إلى ربنا منتقلون \* إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) (الشعراء: 32 - 51).

وفي سورة طه يحكي الله تهديد فرعون لهم: (فَلَا تَقْطَعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلِتَعْلَمَنْ أَنِيَأْ أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرْنَا، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (طه: 71 - 73).

كيف تغيرت شخصياتهم؟ كيف انقلبت موازينهم؟

كانت همهم مشدودة إلى المال (أَنْ لَنَا لَآجِرًا) وكانت آمالهم منوطة بفرعون (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ).

هذا منطقهم قبل أن يؤمنوا ... فلما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد في بساطة ويقين: (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ). بعد أن كان همهم الدنيا صار همهم الآخرة (ليغفر لنا خطايانا) وبعد أن كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يقولون (والذي فطرنا). تغير الاتجاه ... تغير المنطق ... تغير السلوك ... تغيرت الألفاظ ... أصبح القوم غير القوم ... وما ذلك إلا من صنع الإيمان.

#### تأثير الإسلام في نفسية العرب

وفي القصة القصيرة التي رواها الإمام مسلم في صحيحة برهان مبين على مبلغ أثر الإيمان، نذكر أن رجلاً كان ضيفاً على النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بشاة فحلبت، فشرب حلبها، ثم أمر له بثانية فشرب حلبها ثم بثالثة فرباعة ... حتى شرب حلب سبع شياه، وبات الرجل، وتفتح قلبه للإسلام، فأصبح مسلماً، معلناً إيمانه بالله ورسوله، وأمر الرسول له في الصباح بشاة فشرب حلبها ثم أخرى لم يستتمه، وهنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلمته الماثورة: "إن المؤمن ليشرب في معي واحد والكافر ليشرب في سبعة أمعاء".

فيما بين يوم وليلة استحال الرجل من شره ممعن في الشبع، حريص على ملء بطنه، إلى رجل قاصد عفيف قنوع، ماذا تغير فيه؟.. تغير فيه قلبه، كان كافراً فأصبح مؤمناً، وهل هناك أسرع أثراً من الإيمان؟

إن الإيمان الجديد أشعر الرجل بغاية ورسالة، وفروض وواجبات، ونفذ ذلك إلى أعماقه نفوذاً جعله ينسى هم أمعائه، ويعرض عن الإمعان في الطعام والشراب، وليست هذه حادثة فردية، أو واقعة شاذة، فهل يمكن أن ننكر أو ننسى ما فعله الإيمان بأمة العرب جميعاً؟ لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستقرين، في فهم السر العجيب الذي حول هذا الأمة من رعاة غنم إلى رعاة أمم، ومن قبائل بدو إلى أمة حضارة، وهيا لها سبيل النصر على كسرى وقيصر، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة في عشرات من السنين لا عشرات من القرون.

ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحارون، فالسر معروف، والسبب معلوم. إن مرده هو «أكسير» الإيمان الذي صبه محمد عليه السلام في نفوس أصحابه، فنقلهم من حال إلى حال، من وثنية إلى توحيد، ومن جاهلية إلى إسلام.

#### عمر والخنساء بين الجاهلية والإسلام

وحسبنا مثلاً على هذا التحول الخطير رجل وامرأة عرف أمرهما في الجاهلية وعرف أمرهما في الإسلام.

الرجل هو "عمر بن الخطاب" الذي روى أنه بلغ في جاهليته من انحراف العقل، أن عبد الله من الحلوى ثم جاع يوماً فأكله، ومن انحراف العاطفة، أن واد بنناً له صغيرة كانت تمسح الغبار عن لحيتيه وهو يحفر لها مكانها في التراب.

عمر هذا ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام، فيتحرك عقله حتى يقطع شجرة الرضوان التي بايع النبي أصحابه يوم الحديبية تحتها خشية أن يطول الزمن بالناس فيقدسوها، ويقف أمام الحجر الأسود بالكعبة فيقول: أيها الحجر، إني أقبلك وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك.

وعمر هذا ... يبلغ من سمو عاطفته، ورقة قلبه، وخشيته لله، ما ملأ صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم، بل للإنسان والحيوان، حتى قال: لو عثرت بغلة بشط الفرات لرأيتني مسلولاً عنها أمام الله ... لم أسأل لها الطريق؟

هذا هو الرجل.

أما المرأة فهي الخنساء .. المرأة التي فقدت في جاهليتها أخاها لأبيها «صخرًا» فملأت الأفق عليه بكاء وعويلًا، وشعرًا حزينًا، ترك الزمن لنا منه ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا      وأذكره بكل غروب شمس  
ولولا كثرة الباكين حولي      على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكننا بعد إسلامها نراها امرأة أخرى ... نراها أما تقدم فلذات أكبادها إلى الميدان، أي إلى الموت، راضية مطمئنة، بل محرصة دافعة... روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس تحت راية القائد «سعد بن أبي وقاص»، وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم في ليلة من الليالي الحاسمة، تعظهم وتحثهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم: "أي بني، إنكم أسلمتم طانعين، وهاجرتم مختارين، والذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، والله تعالى يقول: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (آل عمران: 200)، فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمن فاعدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستبصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، تظفروا بالقتل في دار الخلد...".

فلما أصبحوا باشروا القتال بقلوب فتية، وأنوف حمية، إذا فتر أحدهم نذره أخوته وصية الأم العجوز، فزار كالثيث، وانطلق كالسهم، وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحداً بعد واحد.

وبلغ الأم نعي الأربعة الأبطال في يوم واحد، لم تلطم خدًا، ولم تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النيا بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

ما الذي غير عمر القديم وصنع عمر الجديد؟

وما الذي غير خنساء النواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء؟

إنه صانع المعجزات ... إنه الإيمان!!

### المفتاح الفذ لأقفال الحياة

إن الرجوع إلى الإيمان بالله والآخرة هو الأمل الوحيد في خلاص الإنسان مما يعانيه اليوم من مشكلات تهدد الإنسان بالدمار، دمار خصائصه الذاتية، ومقوماته المعنوية، التي كان بها إنساناً، واستحق بها السيادة في الكون والخلافة في الأرض.

إن الإيمان الحق كما جاء به الإسلام- هو الحل الفذ لعقد الحياة المعاصرة التي استعصت على العلم وعلى الفلسفة، وحرار فيها المفكرون والمشرعون وطلاب الإصلاح.

ويطيب لي أن أنقل هنا كلمة مضنية للداعية الإسلامي الكبير أبي الحسن الندوي، بين فيها كيف طلعت شمس الرسالة المحمدية على العالم فأفاضت عليه نوراً جديداً، وحياة جديدة.

وكيف فتح النبي محمد صلى الله عليه وسلم أقفال الحياة الكثيرة المتعددة بمفتاح الإيمان العجيب، قال الأستاذ في حديث شاعري بينه وبين نفسه عند غار حراء في مكة المكرمة:

"لقد كانت الحياة كلها أقفالاً معقدة، وأبواباً مغلقة، كان العقل مغفلاً أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مغفلاً أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مغفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مغفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت الممرسة مغفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مغفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحامين، كانت الأسرة مغفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مغفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مغفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمتشجعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة وجربوا مفاتيح من صناعاتهم ومعادنهم فإذا هي لا توافق الأقفال وإذا هي لا تغني عنهم شيئاً، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجحروا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففي هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة. وهنا من الله على العالم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو (الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر) ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلاً قفلاً، وفتح به هذه الأبواب المغفلة باباً باباً، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل المتلوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام. وكان قبل ذلك محامياً ماجوراً يدافع عن كل قضية حقاً وباطلاً. وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش، وعاش، وتحولت النفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسبغ الباطل ولا تتحمل الإثم حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ويلج على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبية إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي

هي أشد من القتل. ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذي لا يجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مغلقة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتتنفع بالآيات، وترقى للمظلوم وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم وأصبح فارس قبيلة وبلد، قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد. وضع المفتاح على المدرسة المغلقة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق، وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلماً لنفسه، معلماً لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين.

وضعه على المحكمة المغلقة فأصبح كل عالم قاضياً عادلاً وكل حاكم مسلم حكماً مقسطاً، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط، ووجد الإيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقُلّ الجدل، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المغلقة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ وأخته، والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والربنيس والمرووس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطغفين إذا اختلفوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحزرها من عقاب الله، وقرأ عليها قول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً) **(النساء: 1)**، وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال: **"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"**، وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابّة مستقيمة ومجتمعاً عادلاً، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالامانة وخوفاً شديداً من الآخرة حتى تورع الأمراء وولاء الأمور، وتقصفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، والي الأمة كولي البيت: إن استغنى استغنى وإن افتقر أكل بالمعروف، وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ عليهم **(وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (الحديد: 7)**، **(وأتوهم من مال الله الذي آتاكم) (الثور: 33)** وحزّهم من اكتناز وإدخار الأموال وعدم الاتفاق في سبيل الله، فقرأ عليهم **(والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشروهم بعذاب أليم \* يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فأنفقوا ما كنتم تكنزون) (التوبة: 34، 35)**.

أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للأخيرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتقلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للأخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيّداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً فهو الرجل القوى الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في بدورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسياتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للأخيرة على الدنيا متغلباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعطف الفقير وكده، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني

ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة ومؤثرة للمبادئ، على المنافع، والهداية على الجبابية، وتأثير هذا المجتمع وينفذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة، كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجد واجتهاد، وعدل في الأخذ والعطاء، وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي، وتمثلت إلى الجماعات الإسلامية الأولى بحملها وتفصيلها كائي أشاهدها وأتفلس في جوها وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت: إنني لأرى أفاقاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعمقت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت: هل يمكن فتح هذه الأفاق الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء، هل أختبر هذه الأفاق وأضع عليها المفتاح، ولمست هذه الأفاق بالبنان فإذا هي الأفاق القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يعني إلا بذاته وشهواته وأنه يبالي في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدينة، فإذا كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلاتها ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيراً فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملاً فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنياً فهو الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان والياً فهو الوالي الغاش التناهب للأموال، وإذا كان سيداً فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادماً فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازناً فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره. وإذا كان زعيماً أو قائداً فهو الوطني أو الجنسي الذيقسد وطنه ويعبد عنصره ويُدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى، وإذا كان مشرعاً فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعاً اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفاً اكتشف الغازات المبيدة للشعوب، المخربة للبلاد، والقنبلة الذرية التي تهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأساً بالبقاء القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوّن المجتمع وتأسست الحكومة، فكان فيه مجتمعاً مادياً، اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشح الغني وغش الوالي، واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخزن ونفعية الوزراء ووطنية (يقصد الكاتب بالوطنية النزعة الإقليمية التي تجعل كل ولانها لأرضها فحسب) الزعماء وإجحاف المشرع وإسراف المخترع والمكتشف وقسوة المنفذ، وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات عنيفة ومشاكل معقدة، تشكو منها الإنسانية بشأ وحزنها، كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي، وأصبح المفكرون والمثقفون لا يجدون حلاً لهذه المشاكل، وأصبحت إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاهرة ومعالجتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة، وتتقلا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية إلى دكتاتورية ثم إلى ديمقراطية، ومن نظام رأسمالي إلى نظام اشتراكي إلى شيوعي، وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير، ويجهلون، أو يتجاهلون، في كل ذلك، أن الفرد هو الفاسد الموج، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد موج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر، لا يملكون ما يصلحون به للنقد، ويقومون أعوجاجه، ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفسدوا في الروح، وتخلوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويفرس الإيمان، ويعيد الصلة بين العبد وربّه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المادة والروح، وبين العلم والأخلاق، وفي

الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبديد شعباً بأسره وتخرّب قطراً بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية -إذا تبدلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات- للنهاية الأليمة." ١ هـ

إننا لا ننكر أهمية المجتمع الصالح، بل ضرورته لتنشئة الفرد الصالح، ولكن المجتمع إن هو غي الواقع- إلا بناء لبناته الأفراد، فإذا لم تصلح اللبنات في نفسها لم يتصور أن يقوم عليها بنيان سليم.

لبنات المجتمع هي أنا وأنت وهو وهي، فإذا صلحت أنفسنا صلح المجتمع كله، ومفتاح هذا الصلاح النفسي والخلقي شيء واحد هو الإيمان.

#### دعوى الاستغناء بالعلم المادي

خيل لبعض الناس في وقت من الأوقات - ولا يزال يخيل لبعضهم إلى اليوم \_ أن الإنسان يمكنه أن يستغني عن الدين، وأن يعيش «محرراً» من تكاليف الإيمان، وخاصة في هذا العصر، عصر العلم، الذي استطاع به الإنسان أن «يقهر» الطبيعة وينتصر عليها، ويسخرها لمنافعه، فيفجر الصخر، ويحول مسير النهر، ويغوص في أعماق البحر، ويخلق في أعالي الجو، حتى راو يزاحم الكواكب في فضاءها، والأقمار في مداراتها، وبعد أن زاحم الحيتان والأسماك في قاع المحيطات ... وحتى قال بعضهم في غرور و صلف: إن الإنسان غداً سيصنع نفسه! .

#### المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم

قالوا: فهو بواسطة هذا العلم يستطيع أن يكيف حياته، وينظم شئونه بعيداً عن الإيمان بالله، ويمعزل عن رسالاته، وهو يظن أنه بهذا يكسب عدة أشياء:

أولها: الصحة العقلية والنفسية. فإن عقائد الدين والإيمان بالغيب، تسبب للمثقف العصري قلقاً ذهنياً، ناتجاً عن إيمانه بشيء لا تقوم عليه الأدلة العلمية، ولا تشهد له التجارب الحسية.

ثانيها: الحرية الشخصية: فإن لإيمان بالله ورسالاته قيوداً والتزامات تحد من انطلاق الإنسان، وتقيد من حريته، وتضعه في قفص حديدي محكم، وفقاً لنظرية "الحلال والحرام" التي لا يخلو منها دين. وبهذه الحرية يستمتع الإنسان بطيبات الحياة كلها دون حجر ولا تدخل من سلطة كهنوتية.

ثالثها: العمل للحياة الدنيا وترقيتها: فإن الدين بما فيه من زهد وإقبال على الآخرة، يدير ظهره للدنيا، ويحقر من شأنها، ويتهم العاملين لها بأنهم معرضون عن الله وعن الحياة الباقية. فالدنيا والآخرة عنده ضربتان إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

#### نقض هذه الدعوى

وهذا الزعم الذي نفقت سوقه في الغرب زمناً، ثم صدّره إلينا عملاؤه -الهواة والمحترفون- من بعد، ليس له أساس من منطق سليم، ولا من علم صحيح، ولا من واقع مجرب. وسنتناول في الصفحات التالية نقض هذه الدعوى، وإبطال هذا الزعم، مستندين إلى المنطق والعلم والواقع، كفى بها أدلة لقوم يعقلون.



## مجال العلم غير مجال الإيمان

أولاً: إن للعلم اختصاصاً لا يتعداه، ومجالاً لا يتجاوزه، ذلك هو مجال الماديات والمحسوسات التي تدخلها الملاحظة والتجربة، وهي وحدها التي يمكن التحكم فيها، وإجراء التجارب عليها، واستخلاص النتائج منها، ففي هذه الحدود وما مثلها يعمل العلم، أما ما عدا ذلك مما وراء الحس، وما وراء المادة، فليس من وظيفة العلم، ولا من اختصاصه، إنما هو وظيفة الفلسفة أو الوحي، فإذا وجد من رجال العلم من يقول: إنني لم أجد دليلاً علمياً على وجود الله أو صدق الرسل أو وجود الملائكة مثلاً، قلنا له: لقد عدوت قدرك، وختت علمك، حيث ورطته فيما ليس من شأنه، وهل وجدت في مختبرك أن الله غير موجود؟

إن العلم منهج صحيح لمعرفة المادة، ولكنه ليس منهجاً صحيحاً لمعرفة ما وراء المادة. إنه يستطيع أن يعرف كيف تسير الأشياء، ولكنه لا يعرف شيئاً عن مسيرها، ولا لماذا سيرها؟

إن العلماء -كما قال صاحب فيض الخاطر- قد اتجهوا بمنهجهم العلمي اتجاهاً صحيحاً نحو «عجلة» العالم بفحصونها ويجريونها ويمتحنونها، ولكنهم لم يتجهوا نحو «محرك» العجلة، وليس في مقدور علمهم وحده -هو مبني على الحس والتربة- أن يضع أيديهم على محرك العجلة، لأنه لا يرى ولا يدرك بالحس، ولا يدخل بالمعمل، ولا يجري في أنابيب الاختبار.

لقد تقدم العلم وتقدم، واعتز بنفسه وملأه الغرور، ومع هذا كله لم يستطع أن يفسر إلا السطح وإلا المظاهر، ما العلة الأولى للخلق؟ من الذي بعث الحياة في الخلية الأولى للعالم؟ كيف تفسر ملايين الحقائق في عجائب الطبيعة؟ وفي عجائب أنفسنا؟

إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق، وهو الظاهر والإيجابية عن «كيف»، أما النصف الآخر، وهو أقوم النصفين، وهو باطن الحقائق والإيجابية عن «ما هي» لا كيف هي، فعاجز كل العجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف.

إن من يؤمن بالعلم وحده، وينكر ما وراءه، ومن يؤمن بالقوانين العلمية، وينكر ما عداها، لا يؤيه بقوله حتى يقول: إنني أستطيع أن أفسر العالم من ألفه إلى يالته، فإما أن يفسر الآلة، ولا يفسر محركها، ويفسر تطور الحياة وتدرجها، ولا يفسر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السخف، أو هو -على أحسن تفسير- كقول الطفل: لا أعلم، لأنه يريد أن يتعلم.

إن إنكار العلة الأولى للعالم، وعقل العالم الذي يدبره. يلقي على عاتقنا عبئاً لا نستطيع حمله.

"إن العالم في حقيقة أمره يزيد عجائبتنا ولا يحلها، هذا الفلكي بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلته، ماذا صنع؟ أبان بأن ملايين النجوم في السماء بالقوة المركزية بقيت في أماكنها أو أتمت دورتها، كما أن قوة الجاذبية في العالم حفظت توازنها، ومنعت تصادمها، ثم استطاعوا أن يزئوا الشمس والنجوم ويبينوا حجمها وسرعتها وبعدها عن الأرض، فزادونا عجباً، ولكن ما الجاذبية؟ وكيف وجدت؟ وما القوة المركزية وكيف نشأت؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد؟ أسئلة تخلى عنها الفلكي لما عجز عن حلها. وأبان الجيولوجي لنا من قراءة الصخور، كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت؟ وكم آلاف من السنين مرت عليها في عصرها الجليدي، وكيف غمرت بالماء؟ وكيف ظهر السطح؟ وأسباب البراكين والزلازل. وكذلك فعل علماء الحياة في حياة الحيوان، وعلماء النفس في نفس الإنسان، ولكن هل شرحوا إلا الظاهر، وهل زادونا إلا عجباً؟ سلهم كلهم بعد

السؤال العميق الذي يتطلبه العقل دائماً هو: من مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التي شرحت بعضها وعجزت عن أكثرها؟ تأليف ولا مؤلف، ونظام ولا منظم، وإبداع ولا مبدع؟ من أنشأ في هذا العالم الحياة وجعلها تب فيه؟ من أوجد عقله الذي يدبره؟

"إن النشوء والارتقاء لا يصلح تفسيراً للمبدع، وإنما يصلح تفسيراً لوحدة العالم ووحدة المصدر، وكلما تكشفت أسرار العالم، وتكشفت وحدته ووحدة ترجمته ووحدة نظامه وتدبيره، كان الإنسان أشد عجباً وأشد إمعاناً في السؤال وليس يفتنه بعد كشف العلم عن أسرار العالم وعجزه عن شرحها وتعليلها إلا أن يهتف من أعماق نفسه "إنه الله رب العالمين" (فيض الخاطر ج 4 ص 160، 161).

### نتائج العلم تقريبية لا يقينية

ثانياً: إن نتائج العلم ليست كما يظن بعض الناس- قطعية يقينية، مائة في المائة (100 %) وبصورة دائمة، فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة في كثير من نتائج العلم، ذلك أن أساس العلم هو التجربة، والتجربة أساسها الحس، والحواس كثيراً ما تخدع؛ وهذا ما أقر به المحققون من العلماء.

يقول عالم أمريكي معاصر هو الأستاذ «ماريت استانلي كونجدين» في مقال له "إن العلوم حقائق مختبرة، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه، ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته .. ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ .. وهي تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات كذلك، وليس باليقين .. ونتائج العلوم بذلك تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات .. ونتائجها اجتهدية وقابلة للتعليل والإضافة والحذف وليست نهائية" (من كتاب "الله يتجلى في عصر العلم" مقال: "درس من شجرة الورد").

وتاريخ العلم يبين لنا أن كثيراً من الآراء التي كانت في بعض العصور حقائق علمية، لا تقبل الجدل، ولا تحتمل الشك، دار عليها الفلك دورته، فإذا هي في عصور تالية أغاليط وأباطيل لا يقوم عليها برهان ولا شبه برهان.

بل إن بعض العلوم الأساسية قد تغيرت أسسها، وتبدلت موازينها كما رأينا ذلك في قرنا العشرين.

يقول الكاتب التركي الأستاذ «بيامي صفا» في بحث له عن «المفهوم الجديد للإنسان» (عن مجلة "المسلمون" 820 - المجلد الثامن العدد الثامن ذو الحجة 1383 هـ - أيار (مايو) 1964م. ترجمة الأستاذ أورهان محمد علي):

"إن إنسان القرن العشرين يعيش في أزمة منذ أن بدأ يدرك خطأ هذا المعنى الذي أضفاه على نفسه، منذ نهاية القرون الوسطى، أي بدأ يدرك خطأ «تأليه» نفسه. وما حركات التجديد في العصر الحديث إلا بداية للتفوق الموجه إلى هذا المعنى.

فقد عرف الإنسان عدم كفاية العلم الذي أراد أن يضعه مكان الدين، ومكان موازين القيم المعنوية، فلقد شهد العلم نفسه انهيار أساسين وقاعدتين من قواعده، هذين الأساسين اللذين كانا بمثابة البداية حتى نهاية القرن الماضي. فكما قال «أورتاكاي كست» في اجتماع جنيف: بأن الفيزياء والمنطق اللذين هما أساسا العلم -العلم الذي قام عليه بناء المدنية الغربية- قد هتما نفسيهما، بنفسيهما: "إن فجاعة الدراما ربما لا تكون ظاهرة لكل عين، لأن عين غير الخبير لا تكشف في قطرة دم تحت الميكروسكوب علامات مرض قاتل. ولكن كل خبير يستطيع أن يقدر بأن الوضع الذي سقط فيه المنطق والفيزياء اليوم لهُو أبلغ في الإشارة إلى الأزمة التي تعانيها مدينتنا من جميع فجائع السياسة والحرب، لأن هذين العلمين كانا بمثابة

الصندوق الذي يخبئ فيه الغريبيون فانضمهم من الذهب، استعداداً لاستقبال الأيام المقبلة بأمن وطمأنينة". وبعد أن شرح العالم الشهير كيف غير الفيزياء أساسه، وكيف أن المنطق في ظرف خمسين سنة بواسطة أبحاث ودراسة «رسل» و «وايتهد» و «هليبرت»، قد غير أساسه أيضاً، تابع كلامه: "إن مدنييتنا أصبحت تعلم الآن أن أسسها في حالة إفلاس، ولذلك نراها تتشك في نفسها، ولكن ليس من الممكن أن تموت حالاً أية مدنية لمجرد هزة شك، وإنما على العكس فإنني أرى أن المدنيات لا تموت إلا من تصلب المعتقدات وتحجرها. وكل هذه تشير إلى أن شكل مدنييتنا أو بالأصح شكل المدنية التي يبجلها الغرب قد جف وانتهى".

### الرسوخ في العلم يهدي إلى الإيمان

ثالثاً - إن العلم ليس خصصاً للإيمان، ولا ضداً له، بل هو ميل يهدي إليه، وقد رأينا كثيراً من العلماء الراسخين المنصفين، هداهم علمهم إلى أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه، وترعى كل شيء فيه بميزان وحسب ومقدار، ذلك أن العالم أقدر من غيره على استبانة ما في هذا الكون من ترابط وتناسق وإحكام، يتجلى في كل خلية من خلايا أحيائه، وفي كل ذرة من ذرات جماداته في خلق السموات والأرض، في اختلاف الليل والنهار، في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، فيما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، فيما بث الله في الأرض من الدواب والأحياء، في تصريف الرياح، في السحاب المسخر بين السماء والأرض.

ولا عجب أن قرأنا لكثير من علماء الكون في الطبيعة والفلك، والرياضيات، والأحياء وغيرها- شهادات ناصعة اعترفوا فيها بوجود الله، وصحة الدين، وهي شهادات تقطع أسنة الذين يريدون أن يتخذوا من العلم سلاحاً يحاربون به الدين.

إن بعض الذين ينتسبون إلى «العلم» يعيشون بعقلية قرن مضى أو قرنين، ولا يتابعون التطور الهائل الذي حدث في ميدان العلم والفكر في هذا القرن، فهم أول من يستحق اسم «الرجعيين» لأنهم سجناء نظريات انقضت عصرها، وذابت ريحها، وطرحت في زوايا النسيان. فليسمعوا ما يقول علماء هذا العصر.

يقول الأستاذ «هوشل»:

"كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي، لا حد لقدرة ولا نهاية، فالجزيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده".

وأفاض «هربرت سبنسر» في هذا المعنى في رسالته في «التربية» إذ يقول:

"العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه، يوجد في كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الصحيح الذي فات المعلومات السطحية، ورسب في أعماق الحقائق، براء من هذه الروح، العلم الطبيعي لا يناقض الدين، والتوجه إلى العلم الطبيعي عبادة صامتة، واعتراف صامت بنفسات الأشياء التي نعانيها وندرسها، ثم بقدرته خالقها، فليس ذلك التوجه تسبيحاً شفهياً، بل هو تسبيح عملي، وليس باحترام مدعى، وإنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم الإنسان استحالة إدراكه كنه السبب الأول وهو «الله»، ولكنه .. ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا الاستحالة بإبلاغنا جميع الحدود التي لا يستطيع اجتيازها، ثم يقف بنا في رفق

وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك نرينا .. بكيفية لا تعادل .. صغر العقل الإنساني إزاء ذلك الذي يفوت العقل...". ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما ذهب إليه فقال:

"إن العالم الذي يرى قطرة الماء، فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والهيدروجين بنسبة خاصة بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء، يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته، وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب، وكذلك العالم الذي يرى قطعة البَرَد (قطعة الثلج الصغيرة النازلة مطراً) وما فيها من جمال الهندسة، ودقة التصميم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق وبقبح حكمته أكثر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد.

وهذا هو الدكتور «دي نوي» الطبيب العالم الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعي، يقول:

"كثير من الأنبياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه، على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور "الله" إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور «الكهرب»، فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل، وليس الكهرباء قابلاً للتصور في كيانه المادي وأنه مع هذا - لا ثبت في آثاره من قطعة الخشب" (**"عقائد المفكرين في القرن العشرين" للأستاذ العقاد**).

وهذا العالم الطبيعي «سر آرثر طومسون» المؤلف الإسكتلندي الشهير يقول:

"إننا في زمن شقت فيه الأرض الصلبة، وفقد فيه الأثير كيانه المادي، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغو في التأويلات المادية" (**المرجع السابق**). ويقول في مجموعة «العلم والدين»:

"ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعي لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة، إذ ليست هذه وجهته، وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، إلا أننا خلفاء أن نغبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس في جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيراً في أيام آباءنا وأجدادنا. فإذا لم يكن على الطبيعيين أن يبحثوا عن الله كما زعم مسرر «الاجدون دافيز» خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه - فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى، ولا نجاوز المعنى الحرفي حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة وحفره من ثم إلى غاية جهده العقلي، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله" (**"عقائد المفكرين في القرن العشرين" للأستاذ العقاد**).

وقد حفلت مكتبات العالم بمختلف اللغات الحية - بكتب قيِّمة، ألَّفها "علماء" راسخون متبحرون، كلها تهدي إلى الله وتدعو إلى الإيمان به. وحسبنا مما كتب بالإنجليزية ونقل إلى العربية - كتابان حازا شهرة عالمية واسعة.

أحدهما: ألَّفه «أ. كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك، وعضو المجلس التنفيذي لمركز البحوث القومي في الولايات المتحدة وأحد أقطاب العلوم الكونية في عصرنا، وعنوان كتابه في الأصل «الإنسان لا يقوم وحده»، وقد كتبه رداً على «جوليان هكسلي» في كتابه الإلحادي «الإنسان يقوم وحده» - يعني: من غير إله!

وقد ترجم الأستاذ محمود صالح الفلكي كتاب «أ. كريسي موريسون» إلى العربية بعنوان يدل على وجهة العلم في هذا القرن وهو «العلم يدعو للإيمان».

والثاني: كتاب اشترك في تأليفه ثلاثون عالماً من أشهر العلماء المتخصصين في أمريكا. كل واحد منهم كتب فيه مقالاً، بيّن كيف اهتدى إلى وجود الله والإيمان به، عن طريق علمه واختصاصه، وذلك هو كتاب «الله يتجلى في عصر العلم»، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور الدمرداش سرحان (أما اللغة العربية فقد كتبت فيها بحوث ومقالات وكتب شتى منها: (سنن الله في الكائنات) للدكتور محمد أحمد الغمراوي. و (مع الله في السماء) للدكتور أحمد زكي و (قصة الإيمان) للشيخ نديم الجسر. وما كتبه أخيراً الدكتور محمد جمال الدين الفندي والأستاذ عبد الرزاق نوفل، بالإضافة إلى كتابات المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره (الجواهر) والمرحوم الدكتور عبد العزيز (باشا) (إسماعيل وغيرهما).

#### هل وراء الإلحاد مكاسب حقيقية؟

أما المكاسب التي يزعم بعض الناس أو يتوهمون أن الإنسان قد حصل عليها -أو على الأقل يستطيع أن يحصل عليها- عن طريق الاكتفاء بالعلم، والانسلاخ من الإيمان، فالواقع أن هذه المكاسب إما وهم عريض وزعم مقترى، وإما خسائر حقيقية في صورة مكاسب عند بعض الناس. ولنناقش هذه المكاسب واحداً بعد الآخر.

#### دعوى الصحة النفسية والعقلية

أما ما يقال من أن الانسلاخ من الدين يؤدي إلى صحة النفس والعقل، فهو أمر يكذبه الواقع، وينفيه ما نشاهده في دنيا الحضارة الغربية الآلية المادية، التي أخذت زخرفها وإزيتت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، بما أوتوا من العلم التجريبي، والتقدم التكنيكي. فهذا العالم الغربي «العلمي» الحديث، يعاني من أمراض النفس والعقل ما يسهد عليه ليله، ويكدر عليه نهاره.

وهذا أمر لاحظته وحذر منه الفلاسفة المفكرون، وشاهده وشهد به العلماء المجربون، وأحس به وعبر عنه الأنبياء والفنانون، وانتبه إليه وسجله الكتاب الصحفيون.

فمن الفلاسفة والمفكرين تقرأ شهادة الفيلسوف المؤرخ البريطاني المعاصر "توينبي" إذ يقول (نقل ذلك عنه المفكر المعاصر «كولن ولسون» في كتابه «سقوط الحضارة»):

لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها، وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعها «المصاييح الجديدة» لهم مقابل «المصاييح القديمة»، لقد أغرتهم فباعوا أرواحهم وأخذوا بدلاً منها «السينما» و «الراديو»، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك «الصفقة الجديدة» إفقاراً روحياً، وصفة أفلاطون بأنه «مجتمع الخنازير»، وصفه أدوس هكسلي بأنه «عالم زاه جديد»!

ويأمل توينبي في نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين، ولكنه لا يخبرنا كيف سيتم هذا الانتقال، وإنما يؤكد قائلاً: "إن الغربي يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفاً روحياً يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية".

فكان توينبي يجيب بدأ على سؤال «إيفان ستراود» كيف تستطيع روحية الإنسان أن تسير على أقدامه المادي؟

ويقول الفيلسوف الشاعر المسلم الدكتور محمد إقبال:

"الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية، وتخصص علمي، يجد نفسه في ورطة، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو.

الإنسان العصري، وقد أضعف نشاطه العقلي، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحية الكاملة، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وجبه للمال حياً طاعياً، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة، وقد استغرق في «الواقع» أي في مصدر الحس الظاهر للعيان، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعماق التي لم يسبق غورها بعد، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية، هي ذلك الشلل الذي اعتري نشاطه، والذي أدركه هكسلي (Huxley) وأعلن سخطه عليه" (**"تجديد الفكر الديني في الإسلام"** للدكتور محمد إقبال ص 214).

ومن العلماء التجريبيين الذين قضوا جل أعمارهم في المعامل والاختبارات، الدكتور «الكسيس كاريل» أحد أقطاب العلم الحديث الذي يقول في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» (ص 187، 188 من الترجمة العربية):

"من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة: ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلاتها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم" ويقول س. و. بيرس "إن شخصاً من كل 22 شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر!!"

"وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصوريين. ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات، حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل، فإن حوالي مليون من الأطفال والشباب الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً! "ففي عام 1922 كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية: 340,000 مجنون، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين في المصحات الخاصة 81,580، وكان عدد مطلقي السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول 10,930. ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة. وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها 500,000 من ضعاف العقول، ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية، عن أن 400,000 طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة، والإفادة مما يتلقون من علم ... وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير. ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية (هذه الإحصاءات قد مضت عليها سنوات غير قليلة، وقد تضاعفت أكثر من مرة في هذه الفترة الأخيرة). وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضر للعطب، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري. فإن أمراض العقل خطر داهم: إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى، بل والتيفوس والطاعون والكوليرا. فيجب أن يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب، بل لأنها ستضعف حتماً التفوق الذي تتمتع به

الأجناس البيضاء (كذا). على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التي يوجدون بها بين أفراد الشعب!!

صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقائص العقلية موجود في السجون. بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعي الثقافة، مازالوا مطلق السراح!

"ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية".

وفي مجال الأدب والصحافة نكاد نقرأ كل يوم جديداً عن السخط والقلق والتوتر الذي يسود الحياة في الغرب، نتيجة للانحراف عن الإيمان بالله والآخره والاستغراق في المطالب المادية وحدها.

وأكتفي هنا بنموذج مما نشرته صحيفة «الأخبار» القاهرية في يوم واحد:

في يوم 12/2/1960 في «أخبار الأدب» نشرت الصحيفة تحت هذا العنوان «الأيون والقرف» الخبر التالي:

"البوليس في أمريكا اعتقل عشرات الأدباء والشعراء من «جمعية الأدباء الساخطين» ولم يكن السبب هو الاعتراض على آثارهم الفنية، بل على سلوكهم الاجتماعي، على تعاطيهم للأفيون، ودفاعهم عن هذه المخدرات بصورة عدائية، وعلى أثر اعتقالهم أصدر «ويليام روراك» من الأدباء الساخطين ما يلي: "إن الحياة طعمها مر، وإن الناس في تعب دائم، وإنه لا وسيلة للهروب من «القرف» إلا الاستسلام للأحلام السعيدة، وكسل لذتي!!".

#### هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل

وفي اليوم نفسه كتب أنيس منصور تحت هذا العنوان «هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل» يقول:

"هذه عبارة الكاتب الفرنسي «شارل موليه» في الجزء الثالث من كتابه عن «أدب القرن العشرين والمسيحية» في 500 صفحة، وهو في هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها، ولكن يجعلها حائطاً كبيراً ترجع إليه الحضارة الغربية في محتنها الروحية، وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين، فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقاً. وإنما كل الكتب التي صدرت هي دراسات خاصة مطولة عن كثير من هؤلاء الأدباء .. ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صابراً مجتهداً شارل موليه. والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يطلق حكماً دون أن يكون في يديه وفي جيبه حثيثيات هذا الحكم. وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه، وإنما يصدرها علناً في محكمة النقد الأدبي.

والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار العميقة لكل من مالرو، وكافكا، وفركور، وشولوخوف، ومولنيه، وبومبار، وفرانسواز ساجان، ولاديسلاس ريمون. ومن رأي المؤلف أن الفيلسوف السياسي الموسيقار الطيار أندريه مالرو هو الذي وضع أصابعه على الخطر الذي ينتظر الإنسانية، فهو وحده الذي أدرك منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوروبية. ومالرو هو الذي نفث روح القلق والأسى في الأدب الفرنسي والأوروبي بعد ذلك.

والغريب في هذا الجزء الثالث ما قاله المؤلف عن الأدبية الفرنسية فرانسواز ساجان التي صدرت لها قصتان هما: «مرحبا أيها الحزن» .. و «ابتنسامة ما» فهو يرى أن ساجان قد سجلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل، تلك الروح التي عبر عنها سارتر في أعقاب الحرب الأخيرة. والذي يتذكر ما قال سارتر في الأعداد الأولى من مجلة «العصور الحديثة» يجده يصرخ ويقول: "لقد انتهت الحرب في فرنسا الجائعة، لكن السلام لم يبدأ. إننا نعيش في محنة ما بين الحربين. لقد كذب هؤلاء الذين قالوا: إن السلام من طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة .. فما هذا الذي نحن فيه؟ إنه الحرب والسلام معاً. إنها المحنة دائماً!!!!".

وهذا الذي قاله سارتر في قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة واليأس والمرارة، وقد عبر عنه الشاعر الألماني بروشرت الذي توفي سنة 1947، فقال في قصته «أمام الباب»: نحن جيل بلا رابط ولا عمق. عمقنا هو الهاوية، نحن جيل بلا دين ولا راحة، شمسنا ضيقة، حبنا وحشية، وشبابنا بلا شباب!!

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد.

وكان لابد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعبدة في طلب الجامعات والمدارس وأعماق الأديرة. ومن هذه الأديرة، ومن الرهبانية القائمة، خرجت فرانسواز ساجان لتعلن في قصتها: إنني لا أفكر، ولا أستطيع، ولا أطيق أن أبقي وحدي، ولا أريد لأحد أن يكون كذلك، وأريد أن أعيش مثل شيء جديد، ولو كان فيه عذاب، المهم أن يكون جديداً.

وكذلك فعلت سسيل بطلة قصة «مرحبا أيها الحزن». ولم تتردد «دومنيك» طالبة الحقوق وبطلة قصة «ابتنسامة ما».

سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذي يتحرك ويتألم ويروح ويجيء، ويحارب ويصرخ في الظلام، بلا حدود ولا قيود يؤمن بها، ولا أمل في أن يكون لديه أمل". وكفى بهذه الوثائق مستنداً.

### الحرية الشخصية وآثارها

أما الحرية الشخصية التي يدعى أنصار الفكر المادي الملحد أنهم ربحوها من وراء «التحرر» من الدين، والإيمان بعبقده الغيبية، وأخلاقه القسرية، فالذي نريد أن نقوله: إن الحرية إذاً كان معاشها العب من الشهوات بلا حساب، والانطلاق وراء المتع الحسية بلا حياء، والتحلل من عرى الفضائل والأنواق والقيم العليا التي هي أغلى ما ورثته الإنسانية من تاريخها الطويل، فهذه الحرية ليست حينئذ كسباً يسعى إليه، ولا غنماً يحرص عليه، بل هي خسارة جسيمة على البشرية، وهزيمة منكرة للمعاني الإنسانية التي بها صار الإنسان إنساناً.



إن القيود التي يفرضها الدين على الإنسان، لا يريد بها عذابه ولا حرمانه، إنما يريد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الصاعدة، وبذلك ينتصر الجزء السماوي في الإنسان على الجزء الأرضي، ينتصر الروح الشفاف على الجسد الكثيف، ينتصر العقل والإرادة على الشهوة البهيمية أو السبعية.

إن هذا الانتصار على النفس غضلاً عما له من قيمة ذاتية وخلفية. ليمنح النفس لذة أعمق وأبقى من لذة الانطلاق وراء المتع الجسدية التي لا يدوم التلذذ بها أكثر من لحظات قصار، ثم ينطفئ أوارها فإذا هي رماد.

على أن للقيود التي يفرضها الدين على المرء معنى آخر لا تصلح الحياة الاجتماعية إلا به، ذلك أن الحياة لا تخلو من قيود توجبها ضرورة التشابك والزحام، وليس في الإمكان أن يعيش إنسان حراً طليقاً من كل قيد، إلا إذا تصورنا جدلاً أنه يعيش وحده في إقليم فسيح كبطل قصة «حي ابن يقظان».

إننا نجد السيارات مقيدة بالسير على الجانب الأيمن من الطريق، والتوقف عند كل إشارة حمراء، والدوران في مناطق معينة وفق تعليمات المرور، وليس هذا انتقاماً من السيارات وأصحابها، وإنما هي تنظيم اقتضاه منع الصدام بين السيارات بعضها البعض، وبين الركبان والمشاة، ولو تصورنا طريقاً خالياً من الناس دائماً، لأمكن أن يسير السائق فيه بسيارته أتى شاء وكيف شاء.

فتدخل الدين هنا في حرية الفرد، ووضع الإشارات الحمراء أمامه في بعض المواقف إنما هو تنظيم «لمرور» الإنسان، وسيره في طريق الحياة. إنما هو عمل على منع «الصدام» بينه وبين غيره من الناس، حماية له من الخطر أن يصيبه هو، أو يصيب غيره من جراء انطلاقه بلا قيود ولا حدود.

وكل مجتمع يخرج على هذه القيود، أو يهون من شأنها، فإنه يعرض نفسه للخطر، ويقرب نفسه من حافة الهاوية، وإن كان لا يدرك هذا إلا بعد تجربة وزمن، تتجلى فيه آثار التخلل وأخطاره بارزة للعيان.

ويكفي أن نقرأ في الصحف هذه الأخبار:

(أ) أصدرت الجمعية البريطانية لمعالجة الشذوذ الجنسي تقريراً اليوم قالت فيه: إن مليون رجل في بريطانيا -وربما أكثر- مصابون بالشذوذ الجنسي.

(الأهرام القاهرية في 1965/5/7)

(ب) 72 مليون أمريكي يتناولون الخمر، منهم 20 مليوناً يكلفون الدولة بليون دولار كل سنة، السبب تغيبهم عن العمل.

(الأهرام القاهرية في 1965/5/3)

(ج) خرجت النساء السويديات في مظاهرة عامة، تشمل أنحاء السويد، احتجاجاً على إطلاق الحريات الجنسية في السويد، اشتركت في المظاهرات حوالي 100,000 (مائة ألف) امرأة

(أخبار اليوم القاهرية في 1965/4/24)

(د) الجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية هي وصمة وسبة في الجبين. فسجلات الشرطة تزخر بحوادث النشل من المحلات التجارية أثناء التسوق، وخطف حقائب السيدات، وقاعات المحاكم «موحلة»، بجرانم الاغتصاب، والقتل والسفك.

والخلاصة أنه بأي مقياس ومن خلال أي زاوية، فالإحصاءات مرعبة وأثرها ياد في الحياة الأمريكية على مختلف مستوياتها الاجتماعية. فكل ولد من بين ستة يساق إلى محاكم الأحداث لاقتراه جريمة أو جرانم!! سوى جرانم السير، وذلك قبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره!! وفي كثير من المناطق السكنية المأهولة العامرة يلزم أكثر من نصف السكان منازلهم بعد غروب الشمس خوفاً من تعرضهم لأي اعتداء أثناء تجوالهم أو مرورهم بسياراتهم..

والثلث ينخلع رعباً عندما يشاهد وجهاً غير مألوف في الحي!!

والخمس ملئ خوفاً واضطراباً حتى أنهم يفضلون النزوح والهروب، ولكن لا يدرون أين يجدون الأمن.

وترتفع كل سنة وبشكل غير عادي، نسبة الحاملين لرخص نقل وحيازة الأسلحة النارية والبنادق في منازلهم وسياراتهم، وكلاب الحراسة الضخمة الشرسة أصبح وجودها في المنازل أمراً طبيعياً كوجود القطط والجرار المدللة!!

وفوق هذا كله يزداد الشعور بأن الحكومة، على جميع مستوياتها الولائية والفيدالية، لا تقدر أو لا تريد أو لن تحمي المواطن العادي!! والحالة في أنصع صورها تبدو مستحيلة، ولكن الحقيقة مرعبة تماماً!!

هذا ما توصلت إليه لجنة الرئيس جونسون المشكلة لمحاربة الجريمة بعد 18 شهراً من الدراسات المتتابعة والمقابلات المتعددة، وبعد زيارات لا نهاية لها للمحاكم والسجون ومراكز الشرطة. وببساطة ذكرت أن قصة الجريمة كاملة في الولايات المتحدة لا تقدر على وصفها أو أخبارها!! فالإحصاءات التي وضعتها إنما تعكس الجرانم الظاهرة، لأن الجرانم الناجحة بالتعريف هي غير ظاهرة ومغلقة بستار كثيف من السرية لا يقدر على حل رموزها وكشفها أحد!!.

ولكن الملاحظات الجانبية لتقرير اللجنة التي جاء في 300 صفحة، مخيفة للغاية، فالحالة سوداء قاتمة، حتى أنها تكاد تطيح ببناء المجتمع «الجونسوني» العظيم الذي يحلم الرئيس جونسون برويته!!

نسبة الجرانم تشطح رأسياً سنة بعد أخرى، ففي عام 1966 سجلت أكثر من 3 ملايين سرقة كبيرة، أي أن واحداً من بين 70 مواطناً أمريكياً هو لص كبير!

ويبدو للمواطن العادي أن بداية الحل الوحيد يتطلب:

1. محو جميع المدن الكبيرة لأنها تفقد سدس القتلة في الولايات المتحدة وتلث اللصوص والنشالين.
2. حجز ومنع اختلاط المراهقين من الجنسين لأنهم هم أكبر مجموعة سكانية في المجتمع خلقياً وتصرفياً.
3. تدمير جميع السيارات لأن معدل سرقة السيارات يتجاوز أكثر من نصف مليون سيارة سنوياً.

4. إزالة الأعمال التجارية والمالية الكبيرة لأنه يعلم هذه المؤسسات أو بدون علمها تشجع الأعمال المالية الاحتياطية، وتقدم فرصاً مغرية للاستثمارات المالية العائدة لملاك الاختلاس والسرقة!!

(الشهاب اللبنانية (العدد 16 من السنة الأولى في 1967/9/15) من مجلة "تايم" الأمريكية في 24 آذار سنة 1967).

### العمل والإنتاج للحياة

أما العمل والإنتاج للحياة، وترقية الجانب المادي منها، والسعي لتحقيق حياة طيبة للبشر في الأرض، والزعم بأن الإيمان بالله والآخره يعوق ذلك أو يؤخره - فتحيل الرد عليه، إلى ما ذكرنا؟ من قبل عن «الإيمان والإنتاج».

### علم النفس لا يقتنى عن الإيمان

ولابد أن نعرض هنا لشبهة تحيك في بعض الصدور:

إن بعض الناس قد يخيل إليه أن علم النفس الحديث، بمكتشفاته وإمكاناته وعباداته النفسية، وكشفه عن دخال النفس ومخباتها بواسطة ما يسمى: «التحليل النفسي» يستطيع أن يعالج الأفس المرضية وكل العقد المستعصية، ويقوم بالدور الذي كان يقوم به الدين في الماضي، بطريقة علمية مأمونة، مستمدة من واقع الأرض لا من غيبات السماء! ولئن أرد على هذه الدعوى بنفسى، ولئن أدع ردها لأحد من علماء الدين ودعاته المتحمسين له، فربما يقال: أنها بضاعتهم، ومن شأن التاجر أن يروج لبضاعته.

ولكن أدع الرد لأقلام كتاب «مدنيين» ليسوا «مشايخ» ولا أبحاراً ولا رهباناً، إنما هم قوم يستندون إلى الواقع، ويحكمون بمنطق التجربة، فلا عذر بعد ذلك للواقعين، ولا حجة للتجريبين.

فلنستمع أولاً إلى الصحفي المصري المعروف محمد زكي عبد القادر، يناقش هذا الموضوع في إحدى «يومياته» بجريدة «الأخبار» القاهرية، فيقول: "تلقيت هذا الخطاب: استمعت إلى محاضرتكم في كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية عن «مشكلات الشباب الجامعي»، وقد ذكرتم أننا حتى الآن لا نعرف شيئاً محدداً عن النفس الإنسانية وأسرارها، وأن علم النفس ومدارسه والعبادات النفسية لم تزد روادها إلا تعقيداً، وأشرتم إلى أن العبادات النفسية كثرت في أمريكا كثرة غير عادية، وأنها مع ذلك لم تؤد إلى النتائج التي كان يروجها من يلجأون إليها، بل إن الكثيرين خرجوا منها وقد ازدادت أمراضهم النفسية سوءاً.

إني أرى أنكم بذلك حطمت علماً حيوياً ناجحاً إلى حد ما، فيفضله وفضل التحليل النفسي والعالم فرويد والتتويم المقنطاسي استطاع العلماء أن يصلوا إلى باطن الإنسان ومعرفة أمراضه وعقده وشفى الكثيرون".

هذا هو الخطاب الذي بعث به طالب بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

ويجيب الأستاذ عن هذا الخطاب فيقول:

"عرضت لهذا الموضوع، وأنا أتحدث عن نطاق الإيمان المستند إلى وجود قوة عليا مسيطرة، وقلت: إن الإيمان بالله ضرورة يدعو إليها العلم وليست الأديان وحدها. وقلت: إن العلم لم يستطع ولن يستطيع أن يحل المشكلات التي يعاينها الإنسان في هذه الدنيا، فهناك حوادث مفاجئة ومأس تقع دون أن تكون لها أسباب مفهومه، ونحن نسندنا عادة إلى القدر وإرادة الله ... فلو لم تكن على درجة من الإيمان، ما استطعنا أن نتعزى عنها أو نحتملها .. الأم التي تفقد أولادها .. كارثة الطيران التي تؤدي بعائلة بأسرها أو تقتل الأب والأم وتترك الأطفال، أو تقتل الأطفال وتترك الأم والأب .. حوادث الغرق والانهيار والأعاصير والزلازل والبراكين .. غضب الطبيعة على آية صورة وقع هذا الغضب .. الأمراض التي لا شفاء لها .. المتاعب النفسية والعقلية والجسدية التي يعجز الإنسان عن إيجاد وسيلة للبرء منها .. وعشرات المصابين في المستشفيات والبيوت ومنازل المشوهين بالخلفة هنا وهناك .. وكل ما نراه حولنا من مأس يعجز العلم عن إيجاد حل لها، ويعجز الإنسان بكل ما أوتي من براعة وقوة وسلطان- عن التخلص منها .. كل هذه المتاعب والآلام كيف يتحملها المصابون بها؟ وكيف يتحملها المحيطون بهم إن لم يستشعروا الإيمان بالله، ويتوجهوا له أن ينقذهم مما عجز الإنسان عن إنقاذهم منه؟ كيف يتحملونها إن لم يؤمنوا أن هناك قوى تجهل حكمتها؟ وأن هناك في الدنيا أشياء وتصرفات لا يمكن أن نعيها بما أوتينا من علوم ومقاييس؟ فلا وسيلة لنا أمامها إلا أن نسلم بوجودها، ونسلم في الوقت نفسه بقصورنا عن أدراك كنهها؟

وليس معنى ذلك أن ننكر العلم ومجاله، بل معناه أن نؤمن بالعلم في أوسع مجالاته، وأن نترك له الحرية يطرق ما يشاء، ويبحث عما يشاء، فإذا وفق فتحن مؤمنون بما بلغه، وإذا لم يوفق فتحن مؤمنون بالقوة العليا، إلى أن يتاح للعلم أن يحل ألغاز المشكلات التي تحيرنا. إن العلم حتى الآن، بكل ماله من تاريخ ناصع، وانتصارات عظيمة رائعة جيدة، لم يستطع أن يعرف: كيف تعمل أعضاء الإنسان كلها، وكيف تتصرف وتنشأ وتمرض وتموت؟؟ لقد وفق في علاج كثير من الأمراض، ولكن لم يوفق في علاج كثير آخر منها ... وفق في معرفة بعض وظائف الأعضاء، ولكنه لم يوفق في معرفة سائر الوظائف ... وفق في تشخيص بعض الأمراض، ولكنه عجز عن اقتحام اللغز الأكبر: هل عرف كيف وجد الإنسان؟ .. ولماذا وجد؟ وكيف يموت؟ .. ولماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ وماذا قبل الحياة؟

كل هذه ميادين لا تزال بكرة، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلت، وعلى الرغم من كل الادعاءات المستندة إلى فهم والمستندة إلى تدجيل وسوء فهم ... كل هذه الميادين لا تزال حستظل إلى ما شاء الله- مجال الإيمان الذي لا يستطيع العلم أن يقتحم منطقته.. ولناخذ نفس الإنسان، ذلك الجوهر الذي يسعده ويشقيه، يمرضه ويشفيه، يجعله مرحاً كان الدنيا بين يديه، وفجأة تضيق وكأنها ثقب إبرة .. هذه النفس التي تنحرف وتعطل، تزكو وتضمحل ... تكون عبقريّة، كأنما يوحى إليها من السماء، وتكون شريرة كأنها لهب من الجحيم ... هذه النفس هل عرفناها؟ .. هل حددناها؟ هل صورنا أمراضها واهتدنا إلى علاجها؟ إن علم النفس بكل الجهود المضنية التي بذلها لا يزال يقف عند الشاطئ، ولا تزال نظرياته مجالاً للاختلاف والشك، ولا تزال تتطور جيلاً بعد جيل، وطرائق بعد طرائق...

كان «فرويد» أستاذ هذه المدرسة، وتبعه كثيرون، منوم من سار على منهجه، ومنهم من عارضه، ومنهم من اختلف وإياه في الطريق والنهج .. ترى هل وفق علم النفس حتى اليوم، إلى معرفة النفس؟ .. قد يكون وفق إلى معرفة بعض مظاهرها وانفعالاتها .. قد يكون وفق إلى ردها إلى أسباب تصدق أو تكذب، ولكنه لا يزال جاهلاً هذه النفس.

وقد تعلق الناس بعلم النفس، لأنه علم الحياة، وابتهجوا به وانصرفوا إليه، ظانين أنه سينقذهم من الانحرافات والادفعات، من الأمراض العصبية والعقلية، ولكن هل حقق كل ما علقوه عليه من آمال؟ .. هل حقق بعض ما علقوه عليه من آمال؟ ... الجواب كما قلت في المحاضرة- عند العيادات النفسية الكثيرة المثبتة في أمريكا بعدد أوفر مما في غيرها!! في هذه العيادات مأس لجأ أصحابها إلى المحللين النفسيين يلتمسون عندهم الشفاء ...

فهل نجحوا؟ ... هل شفى اليانسون من الحياة، لأن نفوسهم مضطربة قلقة معقدة؟ .. إن الإحصائيات لا تستطيع أن تؤكد -حتى في الحالات التي شفى فيها المريض- أن التحليل النفسي -والتحليل النفسي وحده- كان السبب في الشفاء!! وفي أمريكا بالذات تكثر الأمراض النفسية والعقلية بصورة لا مثيل لها (راجع الإحصائيات التي ذكرها "الكسيس كاريل"، ونقلناها عنه في الصفحات الفائتة). وفي أمريكا هذه توجد عيادات نفسية لا حصر لها، وكل ما يقوله المحللون النفسيون. أو أكثر ما يقولونه لرواد هذه العيادات إذا كانوا شباباً أو فتيات: أن اذهبوا وتصرفوا كما تشاؤون!! إن أمراضكم النفسية سببها الكبت والخوف من التقاليد والأمراض والعار!! فماذا كانت النتيجة؟ .. كانت هذه الاعترافات التي لا حصر لها، وهذا التحليل الذي دمر -أو كاد- الحياة العائلية، ثم لم يمتنع أصحابه السعادة التي كانوا ينشدونها!

هذا هو ما قلته ... وهو لا يتضمن إنكاراً لفضل علم النفس، ولكنه يتضمن أن علم النفس لم يوفق، حتى الآن، إلى كشف تلك المنطقة الهائلة الرائعة، الصغيرة الكبيرة، منطقة النفس. وأن كل ما بلغه تحليل لبعض الظواهر، وتعليل لبعض التصرفات، فقد يكون صادقاً وقد لا يكون. إن ما نعلمه عن الحياة وأسرارها، بفضل كشوف العلوم وتفكير المفكرين لا يزال ضئيلاً جداً إذا قيس إلى ما لا نعلمه ولا نستطيع تعريفه ولا تعليله. هذا النطاق الواسع مما لا نعلم هو مجال الإيمان بالله .. وهذا النطاق الضيق الذي علمناه هو مجال الإيمان بالعلم، ولا تعارض بين الاثنين، بل بينهما التقارب والتكامل.

أمرنا الله أن نسعى ونعرف ونبحث، وبسط أمامنا آفاق الدنيا لنذهب بها كيف نشاء وأطلق فينا شرارة من لدن ذاته العليا، هي العقل .. هذا العقل يجب أن يروى كل المجاهل، ويحاول كشف الأنغاز وتيسير الحياة وتوجيهها وجعلها ممكنة ومحتملة، وإيماننا به إيمان بذات الله العليا .. ولكن هذا العقل قاصر، وكل ما ينتجه مهما يكن لن يبلغ حدود الشمول فالشمول من اختصاص الذات العليا.

إيمان بالعلم هو إيمان بالعقل الذي هو شرارة الإلهية يجب أن تتطلق من غير حدود، وإيمان بالله هو إيمان بالمصدر والوحي والكل والشمول والأزل والأبد .. وكل من يقول بغير هذا يدعي، ولا يعطي دليلاً على ما يدعي.

علم النفس كغيره من العلوم مجال للاحترام والتشجيع، ولكن أن أعتمد عليه لكي يكشف لي كل غامض هو اعتماد من غير سند، لا من حقيقة ولا مما وصل إليه، ولا مما ننتظر أن يصل إليه. "أ. هـ.

#### الطب النفسي في موكب الإيمان

على أن كثيراً من الأطباء النفسيين قد ثبت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخره من أعظم الأدوية الفعالة في القضاء على الأمراض النفسية. وكثير منهم استعان بالدين في علاج مرضاهم فنجحوا أعظم نجاح، وسجلوا ذلك في بحوث ومقالات وكتب ونشروها على الناس. ولعل أبرز مثل يحضرني الآن هو الطبيب النفسي الأمريكي الشهير الدكتور «هنري لوك» الذي كفر يوماً بالدين الذي ورثه، وخلع معتقده القديمة كما يخلع المرء نعله، وعاش عدة سنوات ملحداً لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فعلى ذلك باسم العلم الذي رآه في ذلك الوقت يتعارض مع الدين، أو على الأقل، لا يثبت ولا يؤيده. فالعلم حسب قوله -لا يستطيع أن يثبت وجود الله، كما لا يستطيع أن يثبت عدم وجوده، وبناء على ذلك لا يسع الطبيب إلا أن يقول: "أنا لا أعرف" أي يكون شاكاً أو ملحداً. هذا الرجل الذي جرفه العلم بعيداً عن الدين، عاد عن طريق العلم مرة أخرى إلى الدين، وسجل ذلك في كتاب نشره على الناس وطبع إلى ما قبل سنوات في أمريكا 47 مرة، وقد سمى كتابه «العودة إلى الإيمان».

ولنستمع إليه نفسه يحدثنا عن أسباب عودته وظروفها وكيفيتها فيقول:

"وهاأنذا أسجل أن عودتي إلى حظيرة الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التي اكتسحت العالم وقتاً ما، ولو أنني أعترف مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لي. وما كان تقدم سني أو اقترابي من الشيخوخة -هذان الشبحان اللذان غالباً ما يؤثران على تفكير المرء- هما السبب في عودتي إلى حظيرة الإيمان، فبأنى مازلت في مستهل الخامسة والأربعين وهي سن تعتبر مبكرة نوعاً ما، ومازلت بحمد الله موفور الصحة، قوي البنية، قادراً على الانخاء عشر مرات متواليات، وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهي من طعام دون خشية أية عواقب.

فعودتي إلى الإيمان لا ترجع إلى تدهور صحي، ولا إلى ما عساه أن أكون قاسيته من الآلام التي تؤثر على عقلية المريض، فتجرفه في تيار التمني للتخلص من هذه الحياة والإخلال لحياة أخرى، كلها راحة واطمئنان. كما أنني أقرر أنها لم تأت في أعقاب مصيبة أو كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها، بل بالعكس، جاءت بعد أن قضيت ستة عشر عاماً في حياة زوجية هانئة، فأنا رجل محظوظ لي ثلاثة أطفال هم مصدر سعادتي وغطتي، وأحرزت من النجاح أكثر مما كنت أصبو إليه. أما إيرادي فيربو على حاجتي ومطالب أسرتي.

ومن هذا ترى أن هداي لم تصطحبه أية حكمة روائية أو إثارة ما لعواطف. فلم أمر بتجربة قاسية، ولم تحرك إحساسي كارثة، كما لم يبهر بصري اكتشاف جديد قد يحدث هذا التبدل الذي أسجله الآن.

لقد أتاني الهدى ونيذاً حتى أنني لم أتبينه في نفسي خلال مراحله الأولى وما كان مرجع هذا التبدل إلا تلك التجارب المتواصلة التي صادفتني في أثناء ممارستي لمهنتي كطبيب نفسياني" **(العودة إلى الإيمان ص 14، 15).**

فهذا الرجل الطبيب العالم يعن في ثقة ووضوح أنه لم يعد إلى حظيرة المؤمنين نتيجة لتأثر وقتي، أو انفعال عارض، ولم يعد إلى الإيمان، بناء على نظريات نفسية اعتنقها، أو آراء فلسفية تبناها، فإن النظريات والآراء قابلة للصدق والكذب، ومحتملة للخطأ، إنما عاد الرجل إلى الإيمان، بناء على تجارب مارسها بنفسه، وعلى ملاحظات متكررة شاهدها بعين رأسه، وهذه التجارب والملاحظات هي أساس علم النفس التجريبي الذي يدرس الظواهر النفسية دراسة تقوم على القياس والاختبار والإحصاء والأرقام، والتي بها أصبحت الدراسات النفسية «علماء» ولم تعد «فلسفة».

وها هو يوضح هذا المعنى ويؤكد، فيقول:

"إن علم النفس الحديث القائم على أساس الرياضيات والأرقام، والذي يطبق على البشر لا على الورق، هو الذي قلب آرائي ومبادئ رأسي على عقب دون أن أشعر بالتطور الذي حل بي من مدة طويلة.

وهنا لا يجوز الخلط بين هذا العلم، وبين التحليل النفسي، الذي أدى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن تماماً الجزم بصحتها كلها، كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل الباطن والليبدو («الليبدو» هي الطاقة الحيوية في الإنسان قصد بها «فرويد» الحرمان الجنسي أو الجانب العقلي للفرجة الجنسية، ولكن «يوتنج» توسع في معنى التعبير، وأطلقه بصفة عامة على الحيوية بأسرها (المترجم)) وعقدة النقص والتربية التقدمية الخ. وما أقل ما يعرفه الناس عن علم النفس العلمي الذي بلغت دقته الدرجة التي وصلت إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان. وبرغم أنهم سمعوا عن اختبار الذكاء أو مقياس الذكاء، إلا أن القليلين منهم هم الذين يدركون أن هناك أكثر من 10,000 اختبار نفسي أجراها رجال علم النفس، وأن معظم هذه الاختبارات تستخدم الآن في الحياة العامة. والقليلون أيضاً يعلمون أن مؤسسة روكفلر قد وهبت جماعة من علماء النفس نصف مليون دولار

لاكتشاف اختبارات التعاون المستخدمة الآن بمعظم المدارس. وقد أمضى أستاذة علم النفس في جامعة «مينيسوتا» خمس سنوات في بحث متواصل، حتى اهتدوا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاية المرء الآلية، واستعداده الطبيعي لاستخدام الأجهزة الآلية، أنفقت فيها مائة ألف دولار، تبرع بها مجمع الأبحاث الوطني وغيره من المؤسسات.

ويكاد الجمهور الذي ينفق ملايين الدولارات على دراسة الموسيقى لا يعرف شيئاً كذلك عن دقة اختبار «سيشور» لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية في الإنسان، وقد وضعه بعد بحث مجهود دام خمسة وعشرين عاماً، بمعاونة عدد من رجال علم النفس المساعدين. وقليلون أيضاً هم الذين سمعوا عن الجهد العظيم الذي بذله أمثال: رودرث وثيرستون، وألبروت وولز وروث وبرنويتر، وغيرهم في مجال الشخصية وحدها.

وهكذا ظهر تحسن ملحوظ في القدرة على تفهم الشخصية، وترقيتها والتقدم بها، بواسطة الاختبارات المتقدمة الذكر واستخدامها في علاج المرضى بالعيادات الطبية. فقد أجرى اختبار قياس الشخصية وحده على حوالي نصف مليون نفس عام 1935 في عيادات الولايات المتحدة ومدارسها. هذا الفرع من علم النفس هو الذي أدت مكتشفاته إلى تبديل معتقداتي الدينية، وهي كما سبق أن أوضحت- تختلف عن تلك النظريات الجذابة الشائعة بين الناس، كما أنني قد قفمت إلى هذا النوع من علم النفس العلمي الكثير من المعونة فحازت القبول. وأما مكتشفاتي التي سيرد ذكرها فيما بعد، فلم تكن ممكنة التحقيق بدون تلك التجارب العلمية التي قام بها غيري من العلماء النفسيين، وأما كون النتائج المستخلصة من هذه الدراسات تؤيد بل تطابق بعض المعتقدات الدينية الأساسية، فهذا ما سيلمسه الجميع حتماً بمرور الزمن.

وقد طبقت مكتشفات علم النفس تطبيقاً واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية، فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختباراً نفسياً على 15,321 نفساً من الرجال والنساء المتعطلين في فترة لا تتجاوز ستة عشر شهراً. وفي ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم إلى المهنة المناسبة والتدريب المطلوب له حتى يصير لائقاً لهذه المهنة.

وفي كثير من الأحيان كانت النصيحة تقدم استناداً على المشكلات والعقد المكتشفة في شخصية كل منهم، والتي تكون عادة السبب الأساسي في تعطيلهم. وقد تكلفت هذه العملية أكثر من مائتي ألف دولار، تبرعت بمعظمها مؤسسة كارنجي، وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك، ولما كنت قد عينت مستشاراً خاصاً في هذه العملية، ونيط بي وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ممن جرى عليهم الاختبار، وقد أجريت عليهم ما قدره 73,226 اختباراً نفسياً، وسجلت تقريراً شخصياً شاملاً لكل فرد منهم. وفي هذا الوقت بالذات بدأت إدراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، ووجدت من نفسي استعداداً لمضاهاة تجاربي السابقة على مرضاي، بالنتائج الباهرة التي أنت بها تلك الاختبارات العظيمة التي توليت الإشراف عليها، وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة هامة، ولو أنها لم تنشر في التقرير النهائي. وهذه النتيجة هي: "إن كل من يعتقد ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل مما لا دين له أو لا يزال أية عبادة".

وعلى ذلك لم تكن رجعتي إلى الدين رجعة الضال الذي اهتدى إلى دين صائب، أعني أن هذه الرجعة لم تصاحب شعوراً متوقفاً أو نكرة عاطفية، لكنها كانت رجعة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ! ولا أظن أن كافة المتدينين يقرون هذه الحقيقة، حتى أنا نفسي لا أعتقد أنها الطريقة المثلى، ففكرتني عن الدين تتضمن بضع معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينية معينة، وتنبذ بعض الآراء التي تراها مذاهب معينة جهورية. (إن ... فما هو الدين؟

الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة: هذه القوة هي قوة الله، مدير الكون، خالق السموات، وهو الاقتناع بالدستور الخلقي الإلهي الذي سنده الله في كتبه المتعاقبة، واعتبار التعاليم السماوية أئمن كنز تقترب منه الحقائق الدينية، وهي أسس في مرماها من العلوم كلها مجتمعة" (المرجع نفسه ص 23، 26).

والحق أن هذا الرجل ككثيرين غيره- حين كفر وألحد، لم يكفر بدين الله الحق، وإنما كفر بالتحريفات التي شوهت الدين ومسخته، إنما كفر بدين الكنيسة بما أضيف إليه، وما ابتدع فيه .. وحين آمن وعاد إلى الدين، لم يعد إلى الدين الذي أنكره من قبل، بل عاد إلى دين ترضى عنه فطرته وعقله، وإن لم ترض عنه مذاهب كنسية معينة، وهو ينبذ معتقدات تراها بعض المذاهب جوهريّة، ولو أتيح للرجل أن يعرف الإسلام على بصيرة ليقن أن الدين الذي اهتدى إليه وأعلن عودته إلى حظيرته، إنما هو في الواقع دين الإسلام، دين الفطرة والعقل، دين الحياة والقوة فهذا الدين هو سلاح الأقوياء وليس ملجأ الضعفاء، كما يقول الدكتور في فقرة من كتابه:

"لقد أدت دراساتي العميقة للأفراد إلى مشاهدتي ذلك القبس المضيء من نور الهداية. وسواء أكان أمل الإنسان هو الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الاقتصادي أو الاطمئنان الاجتماعي أو السعادة الزوجية، فلن يعم الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الراهنة والمجتمع الحالي حرباً لا هواده فيها توقد جذوتها عدة من المثل العليا العملية الصادقة.

فالدين الذي أتكلّم عنه ليس ملجأ الضعفاء، ولكنه سلاح الأقوياء، فهو وسيلة الحياة الباسلة التي تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها، لا فريستها وعدها الخانع" (المرجع نفسه ص 28، 29).

وليس الدكتور هنري لنك وحده الذي عاد إلى الإيمان عن طريق التجربة، والعلم، فهناك غيره كثيرون.

لقد حدثنا الكاتب الأمريكي المشهور «دبل كارنيجي» مؤلف «دع القلق وأبدأ الحياة» وغيره من الكتب- أن موجة الشك والقلق انتابت إيمانه فترة من حياته، وأوشك أن يكون جاحداً ملحداً، يرى أن الحياة تسير بلا غاية، وإلى غير مقصد، ويحسب أن البشر مجردون من الأهداف السامية مثل: حيوانات «الديناصور» العملاقة التي كانت تجوب الأرض منذ مائتي مليون سنة، وأن النوع الإنساني مصيره إلى انقراض يشبه انقراض حيوان الديناصور.

ثم هبت على الرجل نفحة إيمان جعلته يشعر أن الحياة متاهة مضلة، وصحراء قاحلة مهلكة بغير واحة الإيمان.

ومما قاله في هذا الصدد: إنني يهمني الآن ما يسديده إلى الدين من النعم، تماماً كما تهمني النعم التي تسديدها إلينا الكهرباء والغذاء الجيد، والماء النقي، فهذه تعيننا على أن نحيا حياة رغبة، ولكن الدين يسدي إلي أكثر من هذا، إنه يمدني بالمتعة الروحية، أو هو يمدني -على حد قول «وليم جيمس»- بدافع قوي لمواصلة الحياة .. الحياة الحافلة، الرحيبة، السعيدة، الراضية. إنه يمدني بالإيمان والأمل والشجاعة، ويقضي عنا المخاوف والاكئاب والقلق ويزودني بأهداف وغايات في الحياة، ويفسح أمامي آفاق السعادة، ويعينني على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتنا.

لقد كان الفيلسوف «فراستيس بيكون» على حق حين قال:

"إن قليلاً من الفلسفة يجنح بالعقل إلى الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة خليق أن يعود بالمرء إلى الدين".



إن السطحين وأنصاف المتكلسفين، والمغرورين بقشور العلم والفلسفة هم الذين يتهورون فيتورطون في اقتراف الخطيئة الكبرى: خطيئة الثورة على الدين، والثمرد على الله، بل الجحود لوجوده سبحانه. ومنهم من يفعل ذلك تظاهراً بالتححر وطلباً للشهرة. ومنهم من يفعله تبريراً لفرقه في الشهوات، وجريه وراء المتع والمذات، فهو يريد أن يهدم الدين من أساسه، ليسوغ لنفسه السقوط والاتحلال، بلا تخرج ولا حياء من الناس، ولا حساب من ضمير.

أما الراسخون في العلم، المتعمقون في الفكر، فهم أعدل من أن يقطعوا أنفسهم عن هذا النور الذي لا يخبو، والزاد الذي لا ينقد، نور الإيمان، وزاد اليقين.

ولا غرو أن رأينا أعلام المشتغلين بالحياة النفسية، فلسفة ونظراً، أو علاجاً وطبياً، يعنون اعتصامهم بالعروة الوثقى، عروة الدين، ويدعون الناس إلى ذلك بصوت جهير.

قال «وليم جيمس» العالم النفسي الشهير بمذهبه في المنفعة العملية:

"إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه سبحانه وتعالى- تحققت كل آمياتنا وآمالنا".

وقال: "الإيمان من القوى التي لا بد من توافرها، لمعاونة المرء على العيش، وفقدتها نذير بالعجز عن معاناة الحياة".

وقال حين كان أستاذاً للفلسفة بجامعة هارفارد:

إن أعظم علاج للقلق -ولا شك- هو الإيمان".

ويعقب على ذلك «كارنجي» بقوله: "ولا يتحتم أن تتعلم في هارفارد لتترك هذه الحقيقة، فقد أدركها والداي في بيتهما الريفي المتواضع، فما استطاعت الفيزاتات ولا الديون، ولا النوازل أن تنال من روحهما القوية، المستبشرة الظافرة، ويسعني الآن أن أسمع فيتردد في أذني صوت أمي تترنم بالأغنية التالية، بينما هي تدير شئون المنزل:

الأمان، الأمان، .. بالروعة الأمان

إذ يسكب في نفوسنا الرحيم الرحمن

إليك اللهم أدعو أن تحيطني بالأمان

فياضاً غامراً يملأ القلب والجنان .."

يقول «ديل كارنجي» أيضاً:

"إني لأذكر تلك الأيام التي لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير وجهة، فإن أحدث العلوم -وهو الطب النفسي- يبشر بمبادئ الدين. لماذا؟

"لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي، والاستمساك بالدين، والصلاة، كقيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبي، وأن تشفي أكثر من نصف الأمراض التي تشكوها .. نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك، وقد قال قائلهم الدكتور «أ. أ. بريل»: "إن المرء المتدين حقاً لا يعاني مرضاً نفسياً قط".

"وعندي أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاءاً من نوع جديد. فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توفيقاً لعذاب الجحيم في الدار الآخرة، وإنما يوصوننا بالدين توفيقاً للجحيم المنسوب في هذه الحياة الدنيا .. جحيم قرحات المعدة، والانهيار العصبي، والجنون ... الخ. يقول الدكتور «كارل يونج» -أعظم الأطباء النفسيين في هذا الجيل بأمریکا- في كتابه «الرجل العصري يبحث عن روح»:

"استشارني في خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة، وعالجت منات من المرضى، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر -أي الخامسة والثلاثين أو نحوها- لا ترجع في أساسها إلى افتقادهم الإيمان، وخروجهم على تعاليم الدين .. ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض، لأنه حرم سكينه النفس التي يجلبها الدين -أي دين- ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة".

لماذا يجلب الإيمان بالله، والاعتماد عليه -سبحانه وتعالى- الأمان والسلام والاطمئنان؟.

سأدع «وليم جيمس» يجيب على هذا السؤال:

"إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق، ولا تقلق أمنه، وكذلك المرء الذي عمق إيمانه بالله خليق بالألا تعكر طمأنينته التقلبات السطحية المؤقتة، فالرجل المتدين حقاً عصى على القلق، محتفظ أبداً باتزانه، مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتي به الأيام من صروف" (عن كتاب "دع القلق وأبدأ الحياة").

ونشرت جريدة الجمهورية يوم السبت 1962/11/29، تحت عنوان «العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية»: "عزاء وسلوان لأولئك الذين تشبثوا بدينهم، ولم يتزعزع إيمانهم في أحلك لحظات المدنية وأنصعها، أقصد تلك اللحظات التي يتشدد فيها دعاة النظريات العتيدة، وفي مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء «لنداريون» ويتشدقون فيها بأن الدين بدعة، وبأن الإنسان يقف وحده في هذا الكون، كما زعم «جولييان هاكسلي».

إن علماء الأمراض العقلية، لا يجدون اليوم سلاحاً أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله .. والتطلع إلى رحمة السماء .. والتشبث بالرعاية الإلهية، والاتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه!!

لقد بدأت التجربة في مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية. بدأ التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ، والعقاقير المسكنة والمهدئة للأعصاب.

وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذين تعجز شفاؤهم .. بل فقدوا الأمل فيه، انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء .. أولئك الذين ارتكبوا أفزع الجرائم وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم، ويذرفون الدمع ندماً، وكلهم أمل في رحمة السماء ومغفرة الله.

واستسلم العلماء، ورفعوا أيديهم إلى السماء، يعترفون بضعفهم ويعلنون للعالم أن العلم يدعو إلى الإيمان. وليس أبداً إلى الإلحاد". ولم يقف الأمر عند الأطباء النفسيين، بل تجاوزه إلى أطباء الأجسام أنفسهم، يرون أن الإيمان بالله ضرورة لنجاح علاج كثير من الأمراض الجسمية والعصبية، وخاصة إذا اجتمع إيمان الطبيب وإيمان المريض، فذلك أجدر أن يقصر مدة العلاج ويقرب حلول العافية. يقول الدكتور «بول أرنيست أدولف» -أستاذ مساعد التشريح بجامعة سانت جونز وعضو جمعية الجراحين الأمريكيين-: "لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بد أن يشمل الروح والجسم معاً في وقت واحد، وأدركت أن من واجبي أن أطبق معلوماتي الطبية والجراحية، إلى جانب إيماني بالله وعلمي به، ولقد أقمت كلتا الحالتين على أساس قويم، بهذه الطريقة وحدها، استطعت أن أقدم لمرضي العلاج الكامل الذي يحتاجون إليه .. ولقد وجدت بعد تدبر عميق، أن معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة (من كتاب "الله يتجلى في عصر العلم" ص 138، 139).

وقد وجدت أثناء ممارستي للطب، أن تسليحي بالنواحي الروحية، إلى جانب إمامي بالمادة الطبية يمكنني من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقية، أما إذا أبعد الإنسان ربه من هذا المحيط، فإن محاولاته لا تكون إلا نصف العلاج، بل قد لا تبلغ هذا القدر. فما هي الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية؟

إن من الأسباب الرئيسية هذه الأمراض: الشعور بالإثم والخشية والحقد والخوف والقلق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم. ومما يؤسف له أن كثيراً من المشتغلين بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض، ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات، لأنهم لا يلجأون في علاجها إلى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى".

بالتحريات كان بعض المثقفين في أوطاننا لا يصغون إلا لصوت جيبيهم من الغرب، فإن عليهم أن يستمعوا وينصتوا لتلك الصيحات المخلصة، التي أطلقها أناس ليسوا بالأدعياء المتطفلين على العلم، ولا بالسطحيين المحكومين بالعاطفة، ولا بالخياليين المتعلقين بالأحلام، الذين يسبحون في غير ماء، إنما هم «علماء» متعمقون يحكمون منطق العلم العصري وحده، القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء. والعجب أن تصدر هذه الصيحات من بلد بلغ القمة في الارتقاء العلمي والغنى المادي، والرخاء الاقتصادي، واستطاع أن يضع أقدام أبنائه على سطح القمر! بلد يؤمن بالمنافع العملية، والحياة الواقعية، لا بالمدن الفاضلة والمثل الأفلاطونية. ولكن أعلامه كما رأينا. ينادون بضرورة التشبث بالإيمان، وقاية وعلاج، وزاداً وسلاحاً، وهداية ونوراً، وصاحباً ودليلاً.

فلنركل بقوة وإلى الأبد تلك الأكنوبة الكبرى، التي يرددها هنا أناس لا يمتازون إلا بصفاة الوجوه وعمى القلوب: إن العلم يناقض الإيمان، أو يستغني عن الإيمان! هيهات هيهات لما يدعون.

#### الخاتمة

أحسب -بعد ما عرضناه في هذا الكتاب- أن الطريق، قد اتضحت وجهته واستبانت معالمه.

إنه طريق واحد يتعين على أمتنا أن تسلكه، ولا خيار لها في ذلك. إنه طريق الإيمان. إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف، وما نصبو إليه من آمال..

إن كنا نريد الآخرة .. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريد الدنيا .. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريدهما معاً .. فطريقهما هو الإيمان.

أما الآخرة فلها حديث في غير هذا الموضوع.

وأما الدنيا وآمالنا فيها، وغاياتنا منها، وسعادتنا بها، فقد تبين لنا -من خلال هذه الدراسة- أن الإيمان الحق هو سبيلها، لا سبيل غيره. إن كنا نريد السعادة الشخصية، فلا سعادة بغير سكينته النفس، ولا سكينته بغير إيمان.

وإن كنا نريد الحياة النظيفة، فلا نظافة بغير استقامة، ولا استقامة بغير إيمان.

وإن كنا نريد التماسك الاجتماعي، فلا تماسك بغير إخاء، ولا إخاء بغير إيمان.

وإن كنا نريد النصر العسكري على عدونا الجاثم على صدورنا، فلا نصر بغير أبطال، ولا بطولة بغير تضحية، ولا تضحية بغير إيمان.

وإن كنا نريد الرخاء الاقتصادي، فلا رخاء بغير إنتاج، ولا إنتاج بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير إيمان.

وإن كنا نريد التقدم «التكنولوجي» فلا تقدم بغير إخلاص، ولا إخلاص بغير هدف، ولا هدف للحياة بغير إيمان.

وإن كنا نريد الإصلاح الجذري لحياتنا، فلا إصلاح إلا بتغيير نفسي، ولا تغيير إلا بتصميم، ولا تصميم إلا بالإيمان.

وإن كنا نريد الحكم العادل، فلا عدل بغير قانون، ولا فائدة في قانون بغير ضمان، ولا أمل في ضمان بغير إيمان.

الإيمان هو قوة الخلق، وخلق القوة، وروح الحياة وحياة الروح، وسر العالم وعالم الأسرار، وجمال الدنيا ودنيا الجمال، ونور الطريق طريق النور.

الإيمان هو واحة المسافر، ونجم الملاح، ودليل الحيران، وعدة المحارب، ورفيق الغريب، وأنيس المستوحش، ولجام القوي، وقوة الضعيف.

الإيمان هو مصنع البطولات، ومحقق المعجزات، ومفتاح المغاليق، ومنارة الهدى في كل طريق.

الإيمان في كلمة واحدة- ضرورة للحياة الإنسانية: ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويرقى، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويبقى.

والإيمان الذي غنيته هو إيمان الإسلام، في شموله وتوازنه وعمقه وإيجابيته، إيمان القرآن والسنة، إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان: معرفة ونية واعتقاداً وعملاً. لا الإيمان العقلي الخالص الذي أراده المتكلمون، ولا الروحي المحض الذي أراده المتصوفون، ولا الشكلي الجاف الذي عنى به المتفقهون الجامدون.

هذا الإيمان ليس مجرد شعار يرفع، أو دعوة تدعى. إنه أسلوب حياة متكامل للفرد والأمة، إنه ضياء ثاقب، ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة في دنيا الفرد، فيجري في كيانه عصارة الحياة، وينشئه من جديد ويحوّله من مخلوق تافه إلى إنسان ذي رسالة وهدف، ومن حيوان أو سبيح إلى كائن أشبه بالملاك.

ويمتد إلى المجتمع بأشعته الوهاجة المشرقة، فإذا دم الحياة قد جرى في عروقه، والعافية قد سرّت في أوصاله، فيشفيه وهو سقيم، بل يحييه، وهو رميم، ليس فيه نفحة من سر الألوهية التي تقول للشيء: "كن" فيكون؟.

الإيمان الحق هو الذي يخط آثاره في الحياة كلها، ويصبغها بصبغته الربانية في الأفكار والمفاهيم، والعواطف والمشاعر، والأخلاق والعادات، والنظم والقوانين، (صِبْغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) (البقرة: 138).

والأمة التي تريد أن تحيا بالإيمان لابد أن «تكيف» حياتها ومناهج تفكيرها وسلوكها وفقاً لما يوجبها عليها منطق الإيمان. وأن تحرر وجودها من كل ما يعوق هذا الإيمان أو يحجب نوره وسناه. وإلا كان إيمانها حبراً على ورق، ودعوى بلا برهان.

فاللهم اهد أمتنا إلى صراط الإيمان (صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) (الفاتحة: 7) آمين.